

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

في الإسلام

كتاب في ثلاثة أجزاء يبحث عن الحالة العقلية والسياسية والأدبية
في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية
اشترك في تأليفه : طه حسين ، واحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي
اخص كل بكتابة جزء في ناحية من هذه النواحي الثلاث

الجزء الأول

في الحياة العقلية

تأليف

طه حسين

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الإعتقاد بشارع حسن الكبير



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com



الفهرس

صفحة

الباب الأول - العرب في الجاهلية

- ١ الفصل الاول - جزيرة العرب . موقعها . أجزاؤها . مناخها . سكانها .
أنسابهم . حالتهم الاجتماعية
- ١٣ الفصل الثاني - اتصال العرب بمن جاورهم من الامم . وسائل الاتصال .
التجارة . انشاء المدن العربية على التخوم . امارة الحيرة ،
الغساسنة ، اليهودية والنصرانية
- ٣٥ الفصل الثالث - طبيعة العقلية العربية . رأى الشعوبية . رأى الجاحظ .
رأى ابن خلدون . رأى أوليرى . مناقشة هذه الآراء
- ٤٦ الفصل الرابع - الحياة العقلية للعرب في الجاهلية . وصفها . أثر البيئة
الطبيعية والاجتماعية في تكوينها . في هذا الطور لا علم
ولا فلسفة
- ٥٩ الفصل الخامس - مظاهر الحياة العقلية . دلالة اللغة العربية على عقلية
العرب . دلالة الشعر . دلالة الأمثال . دلالة القصص

الباب الثاني - الاسلام

- ٨٣ الفصل الاول - بين الجاهلية والاسلام . لفظ الاسلام ومعناه . تعاليم
الاسلام . أثر هذه التعاليم في العرب . مقارنة بين المثل
الأعلى في الاسلام والمثل الأعلى في الجاهلية ، الى أى حد

تأثر العرب بالاسلام . النزاع بين النزعات الجاهلية
والاسلامية .

١٠٠ الفصل الثاني — الفتح الاسلامي وعملية المزج بين الامم . تعاليم الاسلام
في الفتح . الرق والولاء . أثرهما في الحياة العقلية .
دخول البلاد المفتوحة في الاسلام . الاختلاط في
السكنى . أثر هذه العوامل في العقلية

الباب الثالث — الفرس وأثرهم

١١٨ الفصل الاول — دين الفرس . زرادشت . ماني والمناوية . بحث فيما تدل
عليه كلمة الزندقة . نظر الفرس الى ملوكهم . أثر هذه
الديانات في المسلمين

١٣٥ الفصل الثاني — الادب الفارسي . أثره في الادب العربي . أثر الفرس
في الحكم والاخلاق العربية . أثرهم في الغناء . أثرهم في
اللغة . مجالس اللهو عندهم وما كان لها من أثر في الادب

الباب الرابع — التأثير اليوناني — الروماني

١٤٩ الفصل الاول — النصرانية . حالتها عند الفتح الاسلامي

١٥٢ الفصل الثاني — الفلسفة اليونانية . ما كان منتشراً منها في الشرق .
الافلاطونية الحديثة . السريان يون وقيامهم بنشر الفلسفة
اليونانية . اقتباس العرب من هذه الثقافة .

١٦١ الفصل الثالث — الادب اليوناني الروماني . السبب في تأثر العرب بالادب
الفارسي أكثر من تأثرهم بالادب اليوناني . نواحي

تأثير اليونان في الأدب العربي

الباب الخامس - الحركة العلمية في القرنه الاول الهجري

وصفها ومراكزها

١٦٩ الفصل الاول - وصف الحركة العلمية اجمالا . الامية عند العرب . أثر

الاسلام في الحركة العلمية . وصف الحركات العلمية .
وأشهر القائمين بها . الموالى والعلم . أنواع هذه الحركات .
الحركة الدينية . الحركة التاريخية . القصص في الإسلام ،
الحركة الفلسفية . موقف الأمويين ازاء هذه الحركات ،
التدوين في هذا العصر

٢٠٤ الفصل الثاني - مراكز الحياة العقلية . المؤثرات في هذه المراكز .

الحجاز . مدرستا مكة والمدينة . حياة اللهوى في الحجاز
بجانب الحياة الدينية . مظاهر هذه الحياة . لماذا زاد اللهوى
في الحجاز عن اللهوى في العراق والشام ، العراق . مدرستا
البصرة والكوفة . الحياة العربية في العراق . الشام
مدرسته ، مصر الحركة العلمية فيها

٢٣٣ الباب السادس - الحركة الريفية تفصيلا

٢٣٤ الفصل الاول - القرآن وتفسيره . اختلاف العرب في فهم معاني القرآن ،

أسباب الاختلاف . مصادر التفسير . طبقات المفسرين

٢٤٩ الفصل الثاني - الحديث . عدم تدوينه . الوضع في الحديث . أسباب

الوضع . نهضة العلماء لمقاومة الوضع وما اتخذوه من
وسائل . أشهر المحدثين

المحاولات التي اتخذت لرسمية الحديث . أثر الحديث في
نشر الثقافة

٢٧٠ الفصل الثالث - التشريع : التشريع في الجاهلية . القرآن وما فيه من

تشريع . الحديث والتشريع . الرأي والتشريع . معنى
الرأي . تخرج قوم من القول به . كيف كان يستخدم
الرأي في العصر الاول ، أشهر القائلين بالرأي وبعض
أقوالهم . محاولة تنظيم الرأي من طريق الشورى . شيوع
مذهب الرأي في العراق . مميزات هذا المذهب . مذهب
الحديث وأنصاره . شيوعه في الحجاز والسبب في ذلك .

النزاع بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث

أثر الفتح الاسلامي في التشريع . القانون الروماني
والفقه الاسلامي . علاقة الدولة الاموية بالقضاء . تأثير
الامصار في التشريع . تأثير الامصار في المشرع

٣٠٢ الباب السابع - الفروع الدينية

٣٠٢ كلمة في الخلافة وأنها أساس كثير من الفرق

٣٠٦ الفصل الاول - الخوارج . سبب تكونهم . فروعهم . تعاليمهم . أشهر
فرقهم . مميزاتهم . من اشتهر منهم بالشعر والخطابة
والعلم باللغة

٣١٧ الفصل الثاني - الشيعة . سبب تكونهم . تطور مذهبهم . تعاليمهم .

غلاتهم . السبب في تأليه الغلاة عليا . رأيهم في
الامام . أشهر فرقهم . الزيدية . الامامية . شعراؤهم في

هذا العصر . عملهم سرآ . معنى التقية . اضطهادهم .
أثر التشيع فى الاسلام . اختلاف الآراء فى الأصل
الذى نبع منه التشيع

٣٣٣ الفصل الثالث - المرجئة . معنى الارجاء . سبب تكونهم . مشايختهم
للامويين . أهم تعاليمهم . شعراؤهم

٣٣٨ الفصل الرابع - القدرية والمعتزلة . الجبر والاختيار . منشأ القول فيهما ،
أشهر دعاة الجبر ودعاة الاختيار

المعتزلة . منشأ هذا الاسم . أشهر الدعاة الى الاعتزال .
تعاليمهم . آراؤهم السياسية . أين نشأ الاعتزال . ما قام به
المعتزلة من دفاع عن الدين . أسباب كرههم
انتشار الجدل بين الأمة الاسلامية فى العصر الأموى .
أمثلة على ذلك . صدور الفرق الاسلامية عن عقليات
مختلفة . سناجتها فى العهد الأموى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

للككتور طه حسين

في نفوس الناس الآن من الأدب العربي ودرسه صورة جديدة مخالفة لما كان في نفوسهم منذ سنين ، ولكنها صورة غامضة على جدتها وطرافتها ، أو هي غامضة لجدتها وطرافتها ، فالناس جميعاً لا يطمثون الآن الى ما كانوا يطمثون اليه من أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنشور والمنظوم ، وأن يلم بما يتصل بهذا المنشور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب لشرحه وتفسيره ونقده ليكون أديباً ، وإنما هم يطلبون الى الأديب شيئاً آخر ، يطلبون اليه أن يكون مرآة صافية وضاعة أمينة لخير ما في عصره ان كان أديباً منشئاً ، وأن يكون مرآة صافية وضاعة أمينة للأدب الذي يريد درسه ان كان أديباً واصفاً . وليس المختار من المنظوم والمنشور الا صوراً لآلوان من حياة الافراد والجماعات فيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الرديء ، فيها الرضى وفيها البغيض . والناس لا يريدون الآن أن يقتنعوا بهذه الصور يحفظونها ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين لا يحققون ولا ينعمون ، وإنما يريدون أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا — الى أقصى حدود المعرفة — دقائق هذه الحياة النفسية التي اضطربت بها الافراد والجماعات فانشأت ما انشأت من نظم ونظم .

الناس يحسون ذلك ويشعرون به ، ثم يؤدون حسهم وشعورهم بهذه الشكوى

المتصلة من ضعف الأدب العربي وفساده ، وقصوره عن أن يثبت للأدب الأجنبية ، وهذا الازدراء المتصل بالادباء وأساتذة الادب وما ينتج اولئك وهؤلاء من أدب انشائي أو وصفي ، وبانصراف كثير منهم عن الادب العربي قديمه وحديثه الى الأدب الاجنبي يفتنون به ، ويتهاكون عليه ، ويؤثرونه لا يعدلون به شيئاً .
ولكنك تسألهم ماذا يريدون من الأدب العربي ليقراوه ويحبوه ، وماذا يريدون من الأديب العربي ليسمعوا له ويصغوا اليه ، فيجيئونك أجوبة غامضة ملتوية لا تكاد تحقق شيئاً عما يجحدون في أنفسهم الا أنهم يكرهون هذا الادب العربي ويتبرمون به ، ويرونه بعيداً كل البعد عن أن يرضى حاجات نفوسهم ، ويحقق ما لعقولهم من مطامع .

وقد أحس أساتذة الأدب أنفسهم نفور الناس من أدبهم وانصرافهم عنه منذ أول هذا القرن ، فجندوا في أن يلائموا بين أدبهم وبين عقول الناس ، وحاولوا التجديد والاصلاح ، فنشأ في مصر ما سموه تاريخ الادب . وتغير اسم الادب نفسه بعض الشيء فسمى في الكتب والبرامج الرسمية هذا الاسم الجديد الغريب بعض الشيء : أدب اللغة ، أو آداب اللغة : ولكن أساتذة الادب لم يفهموا عن الناس شكواهم على وجهها ، فلم يتصوروا التجديد في درس الادب على وجهه . وخيل اليهم أن التجديد في درس الادب انما يكون اذا صيغت كتب الادب العربي صيغة كتب الادب الاجنبي ، وأرخ الادب العربي على نحو ما يؤرخ الادب الاجنبي ، فقسم الى عصور ، وترجم في كل عصر لطائفة من الكتاب والشعراء النابهين ، وأشير - في ايجاز - الى ما يسمونه المؤثرات الادبية أو العلية التي تتميز بها العصور بعضها من بعض ، واستحدثت الفاظ جديدة هي في حقيقة الأمر ترجمة لالفاظ أجنبية ، لا تدل في أدبنا العربي على شيء ، وعلى هذا النحو نشأ في مصر نوع من الادب جديد لا هو بالعربي القديم ، ولا هو بالاجنبي الحديث ، وانما هو شيء بين بين ، قصر عن ذلك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الادب حيناً . ولكن

شكوى الناس لم تنقطع ونفورهم من الادب العربي وانصرافهم الى الآداب الاجنبية لم يزدادا الا شدة والحاحا . وكان طبيعيا أن تتصل هذه الشكوى ، وكان طبيعيا أن يشتد هذا النفور والانصراف ، لان رقى الحياة العقلية في مصر اطرده منذ أول هذا القرن . ولان اتصال هذه الحياة العقلية المصرية بالحياة الاوروبية اشتد واستوثقت عراه ، بينما لم يطرد رقى الادب ولم يتصل بالادب الاجنبي ، ولم يزد أساتذة الادب في هذه الايام على ما وضعوه من صور جديدة في أول القرن . ففضى الناس قدما وتختلف الادباء .

وقام بين الناس واساتذة الادب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين ان يفهم بعضهم بعضا ، فأما الناس فاستيأسوا أكثرهم من الادب العربي ، وأخذوا يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الاجنبية ، وأما اساتذة الادب فاستيأسوا من الناس واستيقنوا أن الحضارة الاجنبية قد أفسدت العقول والقلوب وعكفوا على أدبهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئونه ، ثم يعيدونه ويبدئونه ويزجونه زجا في نفوس الطلاب والتلاميذ لا يحفلون بما يتركون في نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر ، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الادب العربي من حياة ، ومع ذلك فليس الادب العربي أقل حياة من الآداب الاجنبية مهما تكن ، وليس الادب العربي أقل صلاحا للبقاء واستحقاقا للعناية الخصبه والدرس المنتج من الآداب الاجنبية مهما تكن . وكل عيب الادب العربي أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الادب العربي وبين الحياة والخصب والنفع أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد ، ولم يتناولها الاصلاح في مصر كما تناول اصلاح المناهج العلمية الاخرى ، فالتاس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درسا صحيحا مستقيم المناهج كما تدرس في أوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد الى هذا الحظ من الشجاعة الذى يكفى لان يتصور الادب كما تتصور العلوم ، ولان يدرس الادب كما تدرس العلوم . ويقيننا ان لو تغير

تصور الناس للادب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الادب نفسه ، ول كان درسه في مصر منتجاً قيمياً كما ان درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم .

على هذا النحو من الاستعداد أقبل زملائي وأقبلت على درس الادب العربي في الجامعة حين كلفنا هذا الدرس مننسين ، وكنا نحدث أنفسنا بأننا نحاول تجربة شاقة ، ان تفلح فقد استطعنا أن نحبي الادب العربي ونبعث فيه روحاً جديداً يمكنه من النمو والنهوض والتسلط على عقول الناس وقلوبهم ، والتعبير عن أهوائهم ، وميوهم والاختذ بحظه من الحياة القوية الغنية بين الاداب القائمة ، وان لم تفلح فلم يضع الوقت ولم تذهب الجهود عبثاً ، وإنما هي محاولة يكن الانصراف عنها الى محاولة أخرى، وطريق يمكن العدول عنها الى طريق أخرى كما يفعل كل عالم مؤمن بعبءه، جاد في العناية به، وكنا مؤمنين بالادب العربي وكنا جادين في العناية به ، وكنا مخلصين في هذه التجربة ، لانحفل بما نجد فيها من مشقة ، ولا نغتر أمام ما يعترضنا فيها من عقبة ، وكنا نجد في هذه المشقات والعقبات وفي تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة تدفعنا الى العمل وتحثنا على المضي فيه ، وكنا نجد من استعداد الطلاب وتفتح نفوسهم لهذا الادب العربي ما يضاعف هذه اللذة ويشد من عزائنا للمضي فيما نحن بسبيله ، وكنا كلما خطونا خطوة أحسنا أن أقدامنا لا تزاد الا ثباتاً ، وأن الطريق تنبسط أمامنا مستقيمة واضحة الأعلام . ويخيل لنا أن قد قطعنا من هذه الطريق مرحلة يحسن أن نقف عندها بعض الشيء ، ويحسن أن نظهر الناس على ما وجدنا فيها . على أننا لم نقطع هذه المرحلة في سهولة أو يسر، وإنما وجدنا أمامنا طاقة ضخمة من الانقراض بذلنا جهداً غير قليل في إزالتها لتخلص الطريق لنا ، وتستقيم أمامنا ، وكثير من هذه الانقراض كان في نفوسنا ، فكم تركت فيها تريتتنا الأولى وكم تركت فيها تعليمنا الأول . وكم حفظنا من أشياء لم يكن لنا بد من أن نخلص منها وتتحفف من اثقالتها ونبذها على شيء من الألم والحزن كان يخالج نفوسنا ، وأى شيء ألم

للنفس وأثقل عليها من هذا الجهد الذى يفرق بينها وبين ما أحبت وألفت منذ
عرفت البحث والتفكير ؟

وكثير من هذه الانقاض لم يكن فى نفوسنا ولكنه كان فى نفوس الناس ،
وكان فى الكتب . ولم يكن جهدنا فى إزالة تلك الانقاض الخارجية أقل من
جهدنا فى إزالة تلك الانقاض الداخلية ، ان صح هذا التعبير .

ومهما يكن من شىء فقد يخيل الينا أن جهودنا لم تذهب عبثاً ولم تمض سدى
وأنا نستطيع أن نظهر الناس من القرن الأول للهجرة على صهورة جديدة ، الانكن
قد وفقنا الى اتقانها وتحديدها من جميع أقطارها فقد وفقنا الى أن نظهر منها المقدار
الذى يمكن غيرنا من الوصول الى حيث لم نصل ، والانتهاى الى ما لم ننته اليه . والعلم
لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله ، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة ،
لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها . ونحن لا نزعم
لصورتنا هاته التى نعرضها من القرن الأول للهجرة أنها الصورة الاخيرة ، وإنما نزعم
أنها الصورة التى انتهى اليها بحثنا على ما بدلنا فيه من جهد ، وما اصطنعنا فيه من
دقة ، وما تحرينا فيه من انصاف ، وقد يتكشف بحثنا وبحث غيرنا عما يغير هذه
الصورة كلها أو بعضها . فان يكن ذلك فنحن أشد الناس به اغتباطاً وله ابتهاجاً .
ذلك أنا لا نبغى الا الحق من حيث هو . والحق لم يوقف على فريق من الناس دون
فريق ، ولم يقصر على عصر من عصور التاريخ دون عصر

ولكن ما هذه الصورة التى نريد أن نعرضها على الناس والتي نتحدث عنها فى
غموض وإبهام ؟ كانت القاعدة التى اعتمدنا عليها فى البحث أن الادب العربى كغيره
من الآداب بل كغيره من كل ما يتصل بالحياة الانسانية ، بل كغيره من كل ما يصلح
موضوعاً للدرس فى هذا الكون شىء لا ينبغى أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما
حوله ، وإنما هو جزء من كل ، وليس الى معرفة الجزء سبيل اذا لم يعرف الكل ، أو اذا
لم يعرف ما يحيط به من الاجزاء الاخرى على أقل تقدير ، واذاً فلا ينبغى أن نقف

جهودنا على درس الشعر والنثر وخدمتهما وتعرف ما لهما من قيمة فنية ، وإنما ينبغي أن يدرس الشعر والنثر من حيث هما مرآة لحياة الامة العربية في طور من أطوارها ، واذن فلا بد من أن تعرف الامة العربية في هذا الطور معرفة واسعة عميقة واضحة .

تعرف في حياتها الخاصة بينها وبين نفسها ، وتعرف في حياتها الخارجية بينها وبين الامم التي اتصلت بها ، ولا بد من أن تعرف حياتها الخارجية والداخلية معرفة دقيقة مفصلة الى أبعد حد يمكن أن تصل اليه الدقة والتفصيل . وعلى هذا قسمنا بحثنا الى ثلاثة أقسام : الاول الحياة العقلية للامة العربية في القرن الاول للهجرة ، الثاني الحياة السياسية لهذا الامة العربية في هذا القرن ، الثالث حياتها الادبية . وكل قسم من هذه الاقسام معقد شديد التعقيد ، متلو كثير الالتواء ؛ فلم تكن الامة العربية ابان القرن الاول للهجرة تحيا حياة عقلية يسيرة سهلة كما يظن الناس ، وإنما كانت حياتها العقلية خلاصة معقدة لطائفة كثيرة من العناصر اشتبكت وتداخل بعضها في بعض . حتى نشأ عنها هذا المزاج الذي نراه أيام بنى أمية ، وما رأيك في حياة عقلية للعرب تجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد ، وتجد فيها أثر الاسلام وهو مركب غير بسيط ، وتجد فيها أثر المسيحية وفيها السامى واليونانى ، وتجد فيها أثر المجوسية الفارسية كما تجد فيها أثر الديانات الهندية على اختلافها ، وكما تجد فيها أثر الحضارات المختلفة لكل هذه الامم التي ذكرنا أسماءها

ولواننا كنا نريد التمويه على الناس والعبث بالعقول لأشرفنا الى هذا في شىء من الاليجاز اللبى ، مكتفين بالمثل والشاهد نرويه رواية ونثبته على علاته في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولكننا لم نرد تمويهها ولا عبثاً ، وإنما أردنا أن نرضى ضمائرنا أولاً وحاجة الناس ثانياً ، فأخذنا أنفسنا أو بعبارة أصح أخذ زميلنا الأستاذ احمد امين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلاً ليس أقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله ، نعم وأخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع الى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف الى أى حد

امتزجت هذه العناصر وتداخلت ، وما مقادير هذه العناصر في هذا المزاج العام ،
ما مقدار العنصر الجاهلي ، وما مقدار العنصر الفارسي ، وما مقدار العنصر اليهودي ،
وما مقدار العنصر اليوناني ، وما طبيعة هذه العناصر نفسها ، وما العناصر المختلفة
التي كونت كل واحد منها ، ثم بعد هذا كله ما المزاج العربي الذي خرج من تفاعل
هذه العناصر المختلفة فظهر في الآداب العربية كما نراه في شعر الشعراء ، وخطب
الخطباء ، وعلوم العلماء ، وأمثال الناس في أحاديثهم العامة والخاصة

ولقد أحب أن أتأمل من هذه القيود التي يأخذ بها الانسان نفسه حينما
يتحدث عن أثر من آثاره فيتكلف التواضع و يلتزم القصد فلا يتمدح ولا يثني ،
أريد أن أتأمل من هذه القيود لأشهد بأن زميلي « احمد امين » قد نهض بهذا
العبء في درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمي
الحى بعبء من الأعباء . نعم أريد أن أتأمل من هذه القيود فأشهد بأن زميلي
« احمد امين » قد استطاع أن يكشف لنا بيحته هذا عن رجل لم تكن نقدر أن نراه ،
فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب ، جد حتى تتقف بالثقافة الأجنبية
الأوربية ، ولكننا لم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ
وأقربه الى الاتقان والكمال ، فاحسن العلم بمنهجها والاستعمال لهذه المناهج ، كما
أحسن العلم بمنهج القديما في الفقه وعلوم الدين ، والاستعمال لهذه المناهج . ولست
أخفي أني لم أكن أعرف حدا لهذا الدهش الذي كنت أجده حين أرى « احمد
امين » يتصرف في المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل
يعرف كيف يفكر وكيف ينتقل من قضية الى قضية ، ومن مقدمة الى نتيجة ،
وكيف يضع الاشياء بعد ذلك كله في نصابها معتدلا أحسن اعتدال لا يعرف
التقصير ولا يعرف الاسراف

نعم أريد أن أتأمل من هذه القيود وأن أثنى على احمد امين . ومهما أفعل من

ذلك فان يكون ثنائى شيئاً الى جانب هذا الاثر الذى ستركه فى نفوس الناس بحه الذى أقدمه الى الجمهور سعيدا مغتبطا بأنه أول ما يقع فى أيدى الناس من كتاب « فجر الاسلام »

أخذ احمد امين نفسه بمرايت من مناهج البحث فى درس الحياة العقلية للامة العربية ابان القرن الاول للهجرة فالتهى الى نتيجتين كلتاهما قيمة حقاً : الاولى أنه أظهر هذه الحياة كما كانت ، معقدة ملتوية ولكنها قوية أشد قوة ممكنة، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما كان يظن الناس من هذه السذاجة الغليظة الجافة

الثانية أنه وصل بين الثقافة الادبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلامتيناً لن يتعرض منذ الآن لضعف أو وهن ، فقد كان الناس يعلمون أن للدين والفلسفة أثر فى الشعر والنثر. ولكنهم لم يكونوا يزيدون على هذه القضية العامة . أما الآن فقد استطاع احمد امين أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التى يتركها الدين والفلسفة فى الادب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة الى أن تتصل الحياة الدينية الاسلامية فى وضوح وجلاء وقوة الى نفوس الشبان الذين يدرسون الادب العربى فى الجامعة أو فى غيرها من معاهد العلم العالى . ومن ذا الذى كان يقدر أن سيصل شباننا الى تعمق الفقه والتفسير والحديث والتوحيد وأثرها كلها فى الادب العربى ؟ ان كان الشبان ليسمعون هذه الالفاظ فأخذهم شيء من الوجوم والازدراء ، أما الآن فسيقراءون وسيشوقهم ما يقرأون ، وسيحرصون المحرص كله على التزيد من البحث والانعام فى القراءة والدرس

وأنا زعيم وسعيد بأن الشبان سيكثرون من قراءة القرآن ، وسيكثرون النظر فى كتب الحديث ، وسينعمون بالبحث عن مسائل التوحيد . وليس هذا بالشىء اليسير لا بالقياس الى هذه العلوم نفسها ولا بالقياس الى الادب العربى الخالض ، سيستفيد الادب من هذا الكتاب فائدة جديدة هى اشتداد الصلة بينه وبين هذه

الثقافات المختلفة ، وستستفيد هذه الثقافات نفسها لانها ستبلغ بهذا الكتاب بيئات لم تكن تبلغها من قبل .

ولست الحياة السياسية للعرب أبان القرن الاول بأقل تعقيدا من الحياة العقلية فللعرب في هذا القرن سياسة خارجية دقيقة عويصة . ولهم في هذا القرن سياسة داخلية مشتبكة الاطراف متشعبة الانحاء ، وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربي ومنها الاجنبي ، منها ما كانت قبل الاسلام ومنها ما طرأ بعد الاسلام . وليست حاجة هذه الحياة السياسية الى العناية والتحليل بأقل من حاجة الحياة العقلية ، وسيرى الذين يقرأون كتاب الاستاذ عبد الحميد العبادي أن بلاءه في هذا البحث خليق بما لبلاء صاحبه احمد امين من حمد وثناء

والحياة الادبية هي الخلاصة الفنية . وهي في الوقت نفسه المرأة لكل ما اضطربت به الامة العربية في حياتها العقلية والسياسية . وهي في الوقت نفسه الخلاصة والمرأة لالوان أخرى من الحياة لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلي الخالص . وهي كالحياة السياسية والعقلية محتاجة الى العناية والتحليل الدقيق وهي في الوقت نفسه محتاجة الى نوع آخر من الدرس الفني واللغوي . وأنا أرجو أن أنهض بعبء هذا البحث كما نهض صاحبها بعبء البحثين اللذين عالجهما ومهما يكن من شيء فنحن نقدم الى القراء كتاب « فجر الاسلام » راجين الا يفرغوا من قراءة أحد أقسامه حتى يظهر لهم قسمه الثاني ثم قسمه الثالث ؛ راجين بنوع خاص أن يكون ظهور هذا الكتاب مؤرخاً لعصر جديد يدرس فيه الادب العربي هذا الدرس المفصل الدقيق الحر ، الذي لا يعرف مواربة ولا احتيالا ولا التواء ، والذي لا يقصد به الا الى العلم من حيث هو علم ، والذي لا يحفل أصحابه الا بما يعنون به من البحث ، لا يعينهم التناء ، ولا يخيفهم

المهجاه ولا يكرهون (أستغفر الله ! بل هم يتمنون) النقد الصحيح البري .
وثلاثتنا متضاهون في هذا الكتاب على اختلاف أقسامه . قد استقل
« احمد امين » بدرس الحياة العقلية ، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره فنحن
شريكاه فيه على هذا النحو ، واستقل « عبد الحميد العبادي » بدرس الحياة السياسية
ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره فنحن شريكاه فيه على هذا النحو . واستقلت
بدرس الحياة الادبية . ولكننا قرأناه جميعاً وأقررناه جميعاً « فنحن جميعاً شركاء
فيه على هذا النحو . وكل ما تمنناه الآن هو أن نوفق الى أن ندرس « ضحى الاسلام »
بعد أن درسنا فجر الاسلام .

طه مسين

الجزء الاول
في الحياة العقلية

الباب الأول

العرب في الجاهلية

الفصل الأول

جزيرة العرب

ليست جزيرة العرب وحدها هي مسكن العرب ، فقد كانت لهم مساكن فيما حولها ، ولكن كانت الجزيرة مسكن أكثرهم ، وأهم مساكنهم ، فأضيفت إليهم وهي إقليم في الجنوب الغربي من آسيا ، يحد من الشمال ببادية الشام ، ومن الشرق بالخليج الفارسي وبحر عمان ، ومن الجنوب بالمحيط الهندي ، ومن الغرب بالبحر الأحمر

وهي أعلى ماتكون غرباً ، ثم تنحدر الى الشرق الا عند عمان ، وليس فيها أنهار دائمة الجريان ، ولكن أودية يجرى فيها الماء حيناً ويحف حيناً أكبر جزء فيها صحراؤها في وسطها ، وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة ، بل متنوعة أنواعاً ثلاثة ، (الأول) الصحراء المسماة ببادية السَّماوة ، وقريب في مدلولها ما يسمى اليوم « صحراء النفود » (وهو اسم لم يكن يعرفه العرب) وهي في الشمال ، تمتد نحو ١٤٠ ميلاً من الشمال الى الجنوب و١٨٠ ميلاً من الشرق الى الغرب ، ورمالها غالباً

وَعَسَاءٌ^(١)، ليس بها الا قليل من آبار وعيون، والسير فيها شاق عسير، لطبيعة أرضها، ولأن الرياح تلعب برمها فتجعل منه كُثْبَانًا ووهادًا — تمطرها السماء شتاء فينبت في بعض بقاعها نبات صحراوي، وأزهار صغيرة مختلفة الألوان، وأغلب سكانها بدو، يرحلون عنها صيفًا الى التخوم لجدها وقيظها، ثم يأتون اليها شتاء لرعى ابلهم وشأنهم

جنوبي بادية السماوة ما يسمى الآن جبل شَمْرٌ، وهو هلالى الشكل محدودب الى الجنوب، مناخه معتدل، وأمطاره غزيرة، وأعشابه كثيرة، نثرت فيه جملة قرى وبلدان، وهذا الجبل هو المعروف عند العرب بجبلى طي^{*} وهما آجا وسلمى. سمي بشمر وهو فرع حديث من فروع طي^{*}

(النوع الثانى) من الصحراء صحراء الجنوب، وتتصل ببادية السماوة، وهى تمتد شرقًا حتى تصل الى الخليج الفارسى، وقد قدرت مساحتها بمخمين ألف ميل مربع، وأرضها غالبًا مستوية صلبة، انتثرت حصابؤها، وتموجت رمالها واذا نزل المطر فى موسمها، أنبتت الأرض كلاً، فيخرج البدو ابلهم وشأنهم ونسائهم، يقيمون فيها نحو ثلاثة أشهر، ترعى ماشيتهم وهم يشربون من ألبانها، فاذا جاء الصيف جف الزرع فعادوا الى مواطنهم، ويغلب على هذا القسم أيضاً الجذب، وفى قليل من بقاعه أشجار وغابات ونخيل، وقد سمته العرب جملة أسماء، فالجزء الذى بين شرق اليمن وحضرموت يسمى صيهدا، والذى بين شمالى حضرموت وشرقيها يسمى الأتحاف، والذى فى شمالى مهرة يسمى الدهناء، ويسمى الآن جميعه بالرَّبع الخالى

(النوع الثالث) من الصحراء الحركات، والحرة — كما فى معجم ياقوت —

(١) الرمال الوعساء السهلة اللينة التى تغيب فيها الرجل عند السير

أرض ذات حجارة سود نَحْرَة كأنها أحرقت بالنار ، وهذه الحرات مقنوفات
بركانية تنبثق من شرقي حوران وتمتد منتثرة الى المدينة ، وتقع المدينة نفسها بين
حرتين ، وهي كثيرة في جزيرة العرب عد منها ياقوت في معجمه نحواً من ٢٩ حرة ،
أشهرها حرّة واقم ، وهي التي تنسب اليها وقعة الحرّة (١)

إذا نحن عدونا الصحراء وجدنا غربي جزيرة العرب يتألف من جزئين :
الحجاز شمالاً واليمن جنوباً . والحجاز يمتد من أيلة (العقبة) الى اليمن ، وسمى حجازاً
— فيما يقولون — لأنه سلسلة جبال تفصل تهامة — وهي الأرض المنخفضة على
طول شاطئ البحر الأحمر — عن نجد وهي الأرض المرتفعة شرقاً ، والحجاز قطر
فقير به كثير من الأودية ، تمتلئ بالسيل غب المطر ، وتسير مياهه صوب البحر ،
ولكن مياهه ليست بالغزيرة ، ومناخه في بعض بلاده معتدل كالطائف ، وفيها عدا
ذلك حار شديد الحرارة ، وأغلب سكانه بدو رحل ، وبدوه في أيامنا هذه يبلغون
نحو خمسة أسداس السكان جميعاً ، والسدس فقط قار في القرى والمدن ، وأهمية
الحجاز نشأت من وقوعه على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشمال ،
وقد رحل اليه قبل الاسلام اليهود ، وأنشئوا فيه مستعمرات في خيبر والمدينة
وغيرهما ،

وفي جنوبي الحجاز بلاد اليمن ، وهي تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من
الجزيرة ، قد عرفت قديماً بالخصب والغنى ، وأشهر مدنها صنعاء ونجران وعدن ،
وكان لسكان اليمن قديماً علاقات بالهند والشرق الأدنى
وفي شرقي اليمن صنع حضرموت ، وهو صقع كثير الجبال كثير الوديان ، وبه
مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند

(١) وقد وضعت خريطة للحرات في جزيرة العرب نشرت في ألمانيا سنة ١٨٨٢

وفي شرق حضرموت «ظفَّار»، وهي من قديم مصدر للتوابل والطيب وبنحور
المعابد ولا يزال — الى اليوم — يرسل منها الى الهند
وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة عُمان، وهو قطر جبلي على شاطئ
البحر، وقد اشتهر سكانه قديماً بالمهارة في الملاحة — وفي الشمال الغربي من عمان قطر
البحرين ويمتد الى حدود العراق

والجزء المرتفع الذي يمتد من جبال الحجاز ويسير شرقاً الى صحراء البحرين
يسمى «نجدا» وهو مرتفع فسيح، فيه صحراوات وجبال، ثرت فيه اراض صالحة
للزراعة، وهو اصح بلاد العرب وأجودها هواء

ومناخ جزيرة العرب — على العموم — حار شديد الحرارة، يعتدل الليل
في اراضيها المرتفعة صيفاً ويتجمد ماؤها شتاء، وأحسن هوائها الرياح الشرقية وتسمى
الصَّبَا، وكثيراً ما تغنى الشعراء بمدحها، وعلى العكس من ذلك ريح السَّموم،
وأحسن أيامها أيام الربيع، وهي التي تعقب موسم المطر فينبت الكَلأ والعُشب
وترعى الابل والماشية

يسكن هذه الجزيرة العرب، وقد ذهب بعض الباحثين الى أن العرب ومن
حولهم كانوا من أصل واحد، ثم تحضر من حولهم وتحلفواهم، فقد تحضر سكان
القرات، وتحضر وادي النيل، وظل العرب تغلب عليهم البداوة لَمَّا حاصرتهم
جبالهم وبحارهم

وسواء صح هذا أو لم يصح فقد تأخر العرب عما حولهم في الحضارة، وغلبت
عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَل، لا يقرون في مكان، ولا يتصلون
بالأرض التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما يفعل الزراع، بل هم يتر بصون مواسم الغيث

فيخرجون بكل ما لهم من نساء وابل يتطلبون المرعى ، لا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضرة ، إنما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء ، فإن أمطروا رعوا ، والا ارتقبوا القدر ، وليس هذا النوع من المعيشة بالذى يرقى قومه ويسلمهم الى الحضارة ، إنما يسلم الى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شؤون الحياة

هذه العيشة البدوية هي التي كانت سائدة في جزيرة العرب وان كان هناك اصقاع ممدنة كسكان اليمن

وهؤلاء البدو وأشباههم ينقسمون الى قبائل ، والقبيلة هي الوحدة التي انبثت عليها كل نظامهم الاجتماعي ، وهذه القبائل في نزاع دائم ، وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للاغارة على حلف آخر أو لرد غارة أو نحو ذلك من الأغراض ، وقد تمر الأجيال وتسمى القبائل المتحدة أسماءها وشخصياتها وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها ، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة . وقد عنى المؤرخون بنسب القبائل وتفرعها وألقوا فيها الكتب الكثيرة ولكن هذه الانساب في مجموعها كانت ولا تزال مجالاً للشك الكبير « سئل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له فالى اسماعيل فانكر ذلك وقال ومن يخبره به ؟ »

واعتاد النسابون أن يقولوا أن عرب الشمال من نسل اسماعيل بن ابراهيم وغرب الجنوب من نسل يقطان المسمى أيضاً قحطان ، وترجع هذه العقيدة الى ما ورد في التوراة في سفر التكوين — ويسمى أهل الجنوب عادةً اليمنيين أو القحطانيين . وأهل الشمال المدنايين أو النزاريين أو المعديين ، ولسنا الآن بصدد البحث في صحة هذا التقسيم ، وكل الذى نريد أن نذكره أن هناك فوارق حقيقية

بين القسمين من وجوه

(الأول) ان القسم الجنوبي كان يعيش عيشة قرار ، وتغلب عليه الحضارة ، « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » وأهل الشمال تغلب عليهم البداوة وعدم القرار

(الثاني) أنهم مختلفون أيضاً في اللغة ، فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز في أوضاعها وتصاريفها كما سنشير اليه بعد ، وكانت لغة اليمن أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكادية ، ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية

(الثالث) أنهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعاً لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية ، وتبعاً لاختلافهم في اللغة والأمم المخالطة

ولسنا نفي بما ذكرنا أن هذين القسمين كانا منفصلين تمام الانفصال ، وان كل قسم كان يسكن بلاده ولا يرحل عنها الى الآخر ، بل كان الأمر على عكس ذلك ، فهم محدثوننا أن كثيراً من أهل اليمن قبل الاسلام رحلوا الى بلاد الحجاز ، وقليل من أهل الحجاز رحلوا الى اليمن ، فأما رحلة اليمن الى الحجاز فعملوها بانهميار سد مأرب في اليمن وتفرق سكان البلاد الى أنحاء الجزيرة ، ويظن بعض المؤرخين أن من بين الأسباب التي بعثت على هذه الهجرة ما أصاب اليمن من السقوط والضعف التجاري بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد على أثر النشاط التجاري الذي قام به الرومانيون في البحر الأحمر في ذلك العهد ، فكان ذلك ضربة شديدة لتجارة اليمن ، وأما هجرة أهل الشمال الى الجنوب فقد يرجع الى كثرة نسل القبيلة وضيق موطنها بها فيضطرها ذلك الى الرحلة

على كل حال فقد ذكر النسابون أن التنقل بين القبائل كان من قبل الاسلام

كثير الوقوع

وقد كان العداء مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى روى أن كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً في الحزب يخالف شعار الآخر ، فأخذ المزيرون العائم الحُمْرَ والرايات الحجر ، واتخذ أهل اليمن العائم الصفر والرايات الصفز ، قال الجوهري سمعت بعض أهل العلم يفسر بذلك قول أبي تمام يصف الربيع

مَحْرَّةٌ مُصْفَرَّةٌ فَكَأَنَّهَا عَصْبٌ تَيَمَّنُ فِي الْوَرَى وَتَمَصَّرُ

وأصل هذا العداء على ما يظهر هو ما بين البداوة والحضارة من نزاع طبيعي ، وكان توالى الحوادث والوقائع الحزبية يزيد في العداء ويقوى بينهم روح الشر ، ومن أوضح المثَل على هذا ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة — الأوس والخزرج — وهم على ما يذكر النسابون يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون — وقد استمر هذا التنافس بينهم بعد الاسلام ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات ، وكل يدعى أنه أشرف نسباً ، وأعز نفراً ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة ، وملاك راسخ ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو عدناني وكانت الخلافة في قريش وهم عدنانيون رجحت كفة العدنانيين ، ويظهر أن اليمنيين أرادوا أن يعيدوا شيئاً من التوازن في المفاضلة فسلكوا في ذلك جملة طرق : منها أن رواتهم وقصاصهم لولوا تاريخهم القديم بلون زاهر جميل ، وزعموا أن قحطان ابن هود عليه السلام ، ومنها أنهم وصلوا نسبهم بالعدنانيين بطرق شتى كالذي ذهب اليه بعضهم من أن اسماعيل أبو العرب كلهم حتى قحطان — وربما كانوا هم الواضعين كذلك لنظرية تقسيم العرب الى عرب بائدة وهم قحطان وعاد وحمود وطسم الخ ويسمّون العرب العرباء أو العرب العاربة ، أما العدنانيون فعرب في المنزلة الثانية في العربية اذ يسمّون عرباً مُتَعَرِّبَةً ، وبعضهم يذهب الى تقسيم العرب الى عاربة وهم عاد وحمود وطسم الخ ويسمى قحطان عرباً متعربة ، وعدنان عرباً مستعربة ، أي أنهم في المنزلة

الثالثة فى العربية

يستمر النسابون فيقولون أن قحطان أبو اليمنين جميعاً وأنه نسل شعيبين
عظيمين شعب كهلان وشعب حمير

فشعب كهلان تفرع منه فروع كثيرة أشهرها

(١) طي وهي تسكن الجبلين الشاهرين أجاً وسلماً وهما المعروفان الآن
بجبل شمر وقد سكنتهما طي من قبل الاسلام بقرون ، واشتهر ذكرها حتى كان
السيان والفرس يسمون كل العرب طياً

(٢) همدان ومدحج ، وأغلبهم ظل يسكن اليمن ، والى مدحج ينتسب
بنو الحارث الذين سكنوا الجنوب الشرقى للطائف ، وبجيلة التي كان لها أثر كبير في
فتوح العراق في عهد عمر

(٣) عاملة وجدام وكانوا يسكنون بادية الشام ، والى جذام تنتسب لخم
— التي أسست ملك الحيرة على الفرات ، وكندة التي حكمت حضرموت ومدت
سلطانها على بني أسد في اليمامة ، والى اسرهم المالكة ينتسب امرؤ القيس

(٤) الأزدي . وهم قبيلة قوية حكمت عمان ، ومنهم الغساسنة الذين أسسوا
ملكوتهم شرق الشام ، ومنهم أيضاً خزاعة التي تسلطت على مكة قبل قريش ،
ومنهم كذلك سكان يثرب وهم قبيلتنا الأوس والخزرج
وأما شعب حمير فأشهر قبائله :

(١) قضاة وكانت تسكن شمالى الحجاز (٢) وتنبوخ وقد نزلوا قديماً
شمالى الشام (٣) وكلب وكانوا يسكنون بادية الشام
(٤) وجهينة وعذرة وقد نزلوا وادى إضم بالحجاز ، وقد عرف العذريون

برقة عواظهم وطهارة عشقهم

كذلك يقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين ربيعة ومضر
فأما ربيعة فأشهر قبائلها (١) أسد وكانوا يسكنون شمالى وادى الرمة
(٢) ووائل وهى تنقسم الى بكر وتغلب ، وقد كانت بينهما حروب طويلة
عقب قتل كليب كادت تغنى القبيلتين جميعاً ، والى بكر بن وائل ينتسب بنو
حنيفة اليمامة

وأما مضر فأشهر قبائلها (١) قيس وهى من الشهرة بحيث يطلق اسم قيس
أحياناً على من عدا اليمانيين - والى قيس تنتسب هوازن وسليم ، وكانا يسكنان
الجزء الغربى من نجد - والى قيس أيضاً تنتسب غطفان ، وغطفان تنقسم الى
القبيلتين الشهيرتين عبس وذبيان وكان العداء بينهما شديداً ، وأشهر حروبهما
الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء (٢) وتميم وكانت تسكن بادية البصرة
(٣) وهذيل وكانت تسكن جبالا قريبة من مكة وقد اشتهر الهذليون بكثرة
شعرهم وجودته (٤) وكنانة وهى تسكن جنوبى الحجاز ، ومنها قریش وهى التى
كانت تسود هذا القسم

وقد كان بين ربيعة ومضر عداً شديداً ظل قرونا طويلة أدى الى أن ربيعة
غالباً كانت تتحالف مع اليمانيين لمقاتلة المضريين

هذه خلاصة لأشهر القبائل العربية ومواطنها ، وقد ذكرنا أن هذه الانساب مجال
للشك ، ولكنها سواء سحقت أو لم تصح قد اعتنقها العرب ولا سيما متأخريهم ، وبنوا عليها
عصبيتهم ، وانقسموا فى كل مملكة حاوها الى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا فى
نسبهم ، واصبحت هذه العصبية مفتاحاً نصل به الى معرفة كثير من أسباب الحوادث
التاريخية ، وفهم كثير من الشعر والأدب ولا سيما الفخر والهجاء ، والاسلام جاء
وكان قد تم اعتقاد العرب بانهم فى أنسابهم يرجعون الى أصول ثلاثة : ربيعة ومضر

والين، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقاً لهذه العقيدة، واستغلها خلفاء بني أمية ومن بعدهم فكانوا يضرّبون بعضاً ببعض مما لا محل لشرحه الآن.

هالة العرب الامة تماعية - قدمنا أن العرب في الجزيرة كانوا أقسامين بدواً وحضراً، وإن البدو كان هو القسم الغالب.

فاما البدو فكانوا ولا يزالون يحترفون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، انما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط، ويشربون ألبانها، ويلبسون أصوافها، ويتخذون منها مساكنهم، وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضبّ واليربوع والوير - وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الطبيعة يخرجون بها في مواسم المطر الى منابت الكلالترعى، فاذا انتهى الموسم عادوا الى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث، - وإذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البديل، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من تمر ولباس.

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب - فيغيرون على قبيلة معادية - وكثيراً ما تكون المعادة - فيأخذون جملهم ويسبون نساءهم وأولادهم، وتربص بهم القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا - بل هم اذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعل خيراً ما يمثل ذلك قول القطامي

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأىّ رجال بادية ترانا
ومن ربط الحجاش فان فينا فننا سلباً^(١) وأفراساً حسانا
وكن اذا أغرّن على قبيل فأعوزهن نهب حيث كانا^(٢)

(١) قنا جمع قناة وسلبا أى أطوال

(٢) القيل الجمع من الناس

أغرَنَ مِنَ الصَّبَابِ عَلَى حِلَالٍ وَضَبَّةٌ أَنَّهُ مَن حَانَ حَانَ (١)
وأحياناً على بكرٍ أحياناً إذا ما لم نجد إلا أخاناً

ومن أجل هذا كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت إلى الإحتياج بقبيلة قوية تدود عنها ، ولكن قل أن يدوم حلقهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنقسم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين

ليس في البدوى خلق يؤهله للتجارة ، فإذا اشترك فيها اقتصر عمله على أن يكون سائقاً أو هادياً للطريق أو حامياً من اغارة أمثاله

أفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ، ينصرون أخاهم ظلماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها، وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى والاهها وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها ، فوطنية البدوى وطنية قبلية لاوطنية شعبية ، وهذا الشعور يارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبية

والمعنى في البداوة منهم ضعيف الإيمان بدين ، قل أن يؤمن بالثقافة ليد قبيلته وما ورثه عن آبائه « الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم »

مثله الأعلى في الأخلاق تركز فيما سماه « المروءة » ، تغنى بها في شعره وأديه ، ومن الصعب أن يتحدثها حداً دقيقاً ولكن يصح أن تقول أنها تعتمد على

(١) الصباب اسم قبيلة والحلال المجاور يقال حى حلال أى مجاور مقيم بالقرب منه ، يقول أغرن على الحى المجاور لهم من قبيلتي صباب وضبة — وقوله من حان حاناً أى من جاء أجله فهو لا بد هالك

الشجاعة والكرم ، اما شجاعته فتتجلى في كثرة من نازله وقاتله ، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته ، وأكثر من هذا في نجاته—وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف ، واغاثة البائس الفقير، وفوق هذا أن يعطى أكثر مما يأخذ ، وأن يغشى الوغى ويعفّ عند المغنم »

دعاهم الكرم أن يأكلوا كثيراً ويشربوا النبيذ كثيراً ، ولكن بلاد البدو وأشباهاها مجدبة قليلة الانتاج ، لا تسد حاجات الكريم ، فاتصلوا باهل الشام والعراق واليمن يستعينون بما يكتسبون على جذب أرضهم وقسوة أقليمهم مرأتهم تشارك رجلهم في شؤون الحياة ، فهي تحتطب وتجلب الماء ، وتجلب اللثائية وتنسج المسكن والملبس ، وتخيظ الثياب ، وهي — على الجملة — أقرب في عقليتها الى عقلية الرجل ، ولكنها لا تُغنى غناء الرجل في الحروب ، والحروب عندهم أساس حياتهم ، فانحطت لذلك منزلة المرأة عن منزلة الرجل ، وكان في بعض القبائل وأن البنات . وكان فيهم من يقول الله فيه « واذا بُشّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كظيمٌ يتَوَارَى مِنَ القومِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ به أُمُّهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ ما يَحْكُمُونَ »

أما الحضرم من العرب فهم أرقى من ذلك كثيراً ، يسكنون المدن ويقرون فيها ، ويعيشون على التجارة أو الزراعة ، وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كاليمن ، والنهاسنة في الشام واللخميين في العراق ، كما سنذكر ذلك فيما يلي

الفصل الثاني

اتصال العرب بمن جاورهم من الامم

شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم ، لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصرها وجعلها منقطعة عن حولها لا تتصل بهم فى مادة ولا تقتبس منهم أدبا ولا تهديبا — والحق أن هذه فكرة خاطئة ، وإن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأديبا وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد ، نظراً لموقعها الجغرافى وحالتها الاجتماعية

وهذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من طرق عدة أهمها (١) التجارة (٢) انشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم (٣) البعثات اليهودية والنصرانية التى كانت تتغلغل فى جزيرة العرب تدعو الى دينها وتنتشر تعاليمها وسندكر كلمة عن كل منها

التجارة — من قديم كانت جزيرة العرب طريقاً عظيماً للتجارة ، فطوراً تنقل غلاتها الى الممالك الأخرى كالشام ومصر ، وأهم هذه الغلات البخور الذى يكثر فى الجنوب ولا سيما فى ظفار ، وطوراً تنقل غلات بعض الممالك الى البعض الآخر — ذلك لان طريق البحر لم يكن طريقاً آمناً ، فالتجأ التجار الى البر يسلكونه ، ولكن طريق البر نفسه كان طويلاً ، وكان خطراً ، لذلك أحاطوه بشئ من العناية ، كأن تخرج التجارة قوافل ، وإن تسير القوافل فى أزمنة محدودة وفى طرق محدودة

وكان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي ، أحدهما يسير شمالاً من حضرموت الى البحرين على الخليج الفارسي — ومن ثم الى صور — والثاني يبدأ من حضرموت أيضاً ويسير محاذياً للبحر الاحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنباً هضاب الشاطى* ووعورتها ، وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة في المنتصف تقريباً بين اليمن وبطرة

هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة ، وفتحت لهم باباً للرزق كبيراً ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يُستخلم في التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً

ومع ميل العربي للغزو والنهب ، وتهديده للممالك الممدنة على التخوم ، ومهاجمته لها من حين لآخر فإن حبه للوفاء ، وشعوره بالشرف ، وتقديره للوعد الذي يصدر منه جعله يستطيع أن يتعامل مع من حوله من الأمم ، ويمهد الطريق لتجارة واسعة منظمة ، فكان كثير من القبائل يحملون القوافل من تعدى قبائل أخرى في نظير جمل يأخذونه ، وكثيراً ما يردون الجمل اذا عدا عاد على قافلة فلم يستطيعوا رده وزاد في نجاحها عليهم بالصحراء وسبلها ، ومواضع الأمن والخوف فيها وقدرتهم على تحمل القبط وعناء السير

كانت التجارة قديماً في يد اليمنيين ، وكانوا هم العنصر الظاهر فيها ، فعلى يدهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار وواردات الهند الى الشام ومصر ، ثم انحط اليمنيون لأسباب أشرنا الى بعضها من قبل وحل محلهم في القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس للميلاد ، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر ، وقليلاً ما يبيعونها في أسواق فارس ، لأن التجارة مع الفرس كانت

في يد عرب الحيرة ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبيل الاسلام — عند ما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — الى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترهبون به — كالحرير — وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية للتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحاديش ينظرون في مصالح قومهم التجارية^(١)

كان أشهر من يسكن مكة قبيلة قريش ، وأبوها النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ، وقد رأى بعضهم انها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة ، ففي لسان العرب « وقيل سميت بذلك لانهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم فلان يتقرش المال أى يجمعه »

وقد ساعد قريشاً على بلوغ هذه المنزلة موقعها الجغرافي ، فقد ذكرنا أنها تقع في منتصف الطريق ، وعين زمزم تستقي منها القوافل وتأخذ حاجتها من الماء ، ولأن قريشاً أهل الكعبة التي يدين العرب بعظمتها وتقديسها « لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » قال الزمخشري في الكشاف (كانت لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يتعرض لهم والناس غيرهم يتخطفون ويفار عليهم ، وقال تعالى « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي اليه تمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »

كان التجار يخرجون بتجارهم قوافل عظيمة ، وقد رآها « سترابو » وشبه القافلة منها بجيش ، وذكر الطبرى أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة ألف بعير ، وقال ابن هشام فى غزوة بدر « ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى غير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ، منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص وكانت هذه القوافل تخرج مع عظيم استعداد وكبير حيلة ، تتقدمها الكشافة تتعرف مافى الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفرون القافلة »

وقد كان عرب الحيرة يتعهدون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند مرورها فى بلاد العرب فى نظير جعل كبير يأخذونه من الفرس ، ويروون أن الفرس مرة استكثروا هذا الجعل فأبوا دفعه فهاجم العرب قافلة فارسية وهزموا حماتها ، وكان هذا اليوم أحد أيام العرب المشهورة ويسمى يوم ذى قار ، وبه تغنى الشعراء ، وعدوه نصراً للعرب على الفرس

كانت القوافل التى تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل فى أسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على « الصادرات » ولتراقب الأجانب الذين يقدمون بلادها — وكانت هذه القوافل أول ما تنزل فى البلاد الرومانية تنزل فى أيلة وهى المعروفة اليوم بالعقبة ، ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار الى بصرى وقد رووا أن النبى صلى الله عليه وسلم سافر فى هذه القوافل مرتين : مرة وسنه اثنتا عشرة سنة الى بصرى وأخرى وسنه خمس وعشرون

أثرى أن هذه التجارة تقتصر على تبادل العروض والنقود ، ولا تمتداها الى الأمور المعنوية والأدبية ؟ لسنأرى ذلك ، بل نرى أن العرب استفادوا فوق تجارتهم المادية شيئاً من مدينة الروم والفرس وأدهم ، وهذا طبعى ، فالرحلات الى الأمم المتمدنة تجعل دائماً تحت أعين الرحلين مدينة جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، ولا يزال عرب اليمن والحجاز أنفسهم فى أيامنا هذه يستفيدون من زيارة مصر والشام ويأخذون من مدينتهم وعلومهم ، بل لا نستطيع أن نصدق أن قافلة كبيرة كهذه تنتقل بتجارتها العظيمة لتتعامل مع أمة أجنبية من غير أن يكون فيها أفراد يعرفون لغة الذين يتعاملون معهم ويكونون واسطة للتفاهم بينهم — قد تقول انهم كانوا يعرفون اللغة الأجنبية كما يعرفها « التراجمة » اليوم ، وهؤلاء ليسوا أهلاً لنقل مدينة ولا أدب ، فنقول قد يكون ذلك صحيحاً الى حد ما ، ولكن يجب ألا ننسى أن من بين الذين كانوا ينتقلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلا ، وقد رأينا فيما نقلنا أنه كان من بين رجال القافلة أبو سفيان ومخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص وهم سادة قومهم ، ومنهم من كان له يد فى ادارة شؤون الأمة فى الاسلام بعد ، فهم لا يقارنون بتراجمة اليوم ، وهم أكثر استعداداً لنقل مدينة بما يرون من نظام فى المعيشة ومبان ضخمة ومعابد ، وبما يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجيى الضرائب ونحو ذلك ، وبما يسمعون من قصص وأدب اذا فرغوا من تجارتهم وتنادموا ونقل من يعرف منهم اللغة حديثهم الى من لا يعرفها ، — نعم ان هذا لا يكون نقلًا صادقاً ولا ترجمة دقيقة ولا شبه دقيقة لتاريخ أو أدب ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك ، انما هذه النتف التاريخية والأدبية التى تنقل — وان كانت مشوهة — لا تخلو من أثر فى عقلية العرب — ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذته العرب فى جاهليتهم من كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحشية

قلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم ، وجعلوها جزءاً منها ، وأخضعوها لتوانينها ونطق بها القرآن ، وسنأتى على براهين أخرى فيما بعد

(ب) **انشاء المردة العربية على التخوم** — اذا نحن نظرنا الى مصوّر آسيا وجدنا أن جزيرة العرب كانت تقع بين أعظم مدينتين في العالم : فارس شرقاً والرومان غرباً ، وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزومهم وسلبهم ، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأتس والأموال ، ولأن طبيعة العيشة العربية جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة اذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة ، بل هناك عصابات وقوات متعددة لا بد لاختضاع البلاد من الاستيلاء عليها جميعاً ، وليس ذلك باليسير — من أجل هذا رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، ثم يكونون رداء لهم يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ، فتكونت امارة الخيرة على تخوم الفرس ، وامارة الغساسنة على تخوم الرومان

امارة الخيرة — كان العرب قديماً على تخوم فارس من قبل انشاء امارة الخيرة في تاريخ لا محل لسرده ، وفي عهد سابور الأول ملك الفرس (حول سنة ٢٤٠ م) أسس الفرس امارة الخيرة على نهر القرات وأمروا عليها عمرو بن عدى وكان النظام المتبع أن عرب الخيرة يقدمون الطاعة لملك فارس وهو يولى عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الأتاوة

وقد كان نظام الفرس اذ ذلك نظاماً اقطاعياً ، يكاد يستقل كل وال بأمر مقاطعته ، ويستمر والياً عليها مدى حياته غالباً ، ويراعى الملك رغبة المقاطعة فيمن

يولّى عليها ، عكس النظام الروماني فقد كان نظاما مركزيا
فوق هذا كان عرب الحيرة أكثر استقلالا ، فهم لا يرتبطون بفارس الا بما
توجهه المعاهدات عليهم ، وقد اعتاد ملك الفرس أن يُنصب من قبيلة لَخَم (وهي
قبيلة من أصل يمني كما يذكر النسابون) واذا مات الأمير عَيَن من يختاره من بيته
كان عرب الحيرة اذ ذاك في رخاء يحسداهم عليه غيرهم من العرب لخصب
أرضهم ، وغنى أقليمهم ، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ، يحملون
اليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم ، ويشيرون بالفرس ومدنيتهم
وفي عهد يَزْدَجَرْد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) أرسل الملك أكبر أبنائه (بهرام)
الى عرب الحيرة لينشأ بينهم ، ويتعلم الصيد وينعم بمجودة الهواء ، وذلك في عهد
النعمان الأول ، وكان بهرام جور هذا يعرف العربية كما يعرف اليونانية - وقد
نازعه على الملك أخوه بعد وفاة يزدجرد فعاونوه العرب وتعصبا له ، فلما اعتلى عرشه
لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقر بهم وأعلى شأنهم

ويظهر أن الحيرة بلغت شأوها أيام المنذر الثالث وكان معاصراً لِجُوسْتِنْيَان ،
حتى روى بعض المؤرخين أنه لما عقد الصلح بين الفرس والرومان سنة ٥٢٢ م كان
من شروطه أن يدفع الرومان قدرأ من المال لملك الفرس وللمنذر - وبعد ذلك
بسنين أحس المنذر بضعف الفرس فتحالف مع الرومان ثم مال بعدُ الى الفرس
فأسره الرومانيون ونفوه الى صِقْلِيَّة

وبعده ولى النعمان الخامس زوج هند وهو الملقب بابي قابوس وصاحب النابغة
الذياني، وقد غضب عليه كسرى ففرها ربا ثم لجأ اليه فخبسه حتى مات وكان ذلك
حوالي سنة ٦٠٢ م ، وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام امارة اللُخْمِيَّين وولت من
قبلها حاكما فارسياً يخضع له أمراء العرب واستمر الحال على هذا حتى سنة ٦٣٣ م

حين فتحها خالد بن الوليد

كان عرب الحيرة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولجوارتهم مدينة الفرس العظيمة ، واتصلهم بهم اتصالاً وثيقاً ، وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويحيدها ، ففي ابن خلدون « أن عدى بن زيد (الحيرى) كان من ترجمة أبرويز (ملك الفرس) وإن أباه زيدا كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس^(١) . ولا شك أن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة لنقل شئ من حضارتهم وآدابهم الى العرب

بل أن عرب الحيرة هؤلاء تسرب اليهم شئ من علوم اليونان وآدابهم ، ذلك أن الحكومة الفارسية في عهد هرْمُز الأول أنشأت مستعمرات كوتتها من أسرى الحرب الرومانيين وكان من بين هؤلاء الأسرى من تُفغ بالثقافة اليونانية ومنهم من كان يفوق الفرس في الفن والهندسة والطب فاستخدموه في مهام شؤونهم — ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة ، ويظن بعضهم أنهم هم منبع النصرانية فيها ، وعلى كل حال فقد كان في الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون اليها ، ولبي السعوية منهم هند زوج النعمان الخامس ، وقد أنشأت ديراً سُمي بدير هند كان الى عهد الطبرى

وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير في الأدب العربى والحياة العقلية للعرب عامة فأحاديث جديمة الأبرش وأساطير الزباء (وهما من الحيرة قبل انشاء الامارة التي ذكرناها) والخورنوق والسدير والتغنى بهما وبعضهما والأقاصيص حول سِنِمَار بنى الخورنوق والأمثال التي ضربت فيه وبوما النعمان : يوم نعيمة ويوم يؤسه ، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربى وكلها

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢

تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم ، أضف الى ذلك ما ذكره « ابن رُسْتَه » في « الأعلاق النفيسة » من ان أهل الحيرة علموا قريشاً الزندقة في الجاهلية والكتابة في صدر الاسلام

وكان أمراء الحيرة مقصدًا لشراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير ليشرروا بهم بين البدو وفي أنحاء الجزيرة ، وديوان النابغة الذبياني مملوء بالقصائد التي قيلت في مدح النعمان والاعتذار اليه ونحو ذلك

الغساسنة - كَوْنُ الغسانيون في الشام امارة كالتى كونها اللخميون في الحيرة ، ويذكر النسابون كذلك أن أصلهم من اليمن ، وقد امتد حكمهم تقريباً على مقاطعتي حوران والبلقاء، ويظهر أنه لم يكن لهم مقر ملك ثابت ، فأحياناً يفهم من قول الشعراء أن جَوْلان والجابية عاصمتهم ، وأحياناً يذكرون جِلَاق بالقرب من دمشق على أنها هي العاصمة

وعلى العموم فتاريخ الغسانيين في الشام من الأمور الغامضة في تاريخ العرب ، واذا قارنا بين ما رواه المؤرخون عن أمراء الحيرة وما رووه عن الغسانيين وجدنا الأول واضحاً مفصلاً والثانى ناقصاً متناقضاً ، فبينما حمزة الأصفهاني وأبو الفداء مثلاً يعدان ملوك الغساسنة واحداً وثلاثين اذا باين قتيبة والمسعودى يعدانهم عشرة أو أحد عشر ، كذلك يعد حمزة مدة ملك الحارث بن جبلة عشر سنين بينما مؤرخو الرومان المعاصرون يعدون ملكه ٤٠ سنة وهكذا ، بل اذا نحن قارنا بين ما رواه العرب عن الفرس وتاريخهم وما يتصل بهم عامة وما رووه عن الرومان وما يتصل بهم وجدنا أن ما ذكروه عن الاولين أدق وأقرب الى الصحة ، وما ذكروه عن الآخرين ناقصاً مضطرباً غير صحيح في كثير من الأحيان ، ولعل السبب في هذا ان الفرس أنفسهم دونوا ملكهم وملك الحيرة وعنهم أخذ مؤرخو العرب وان لم تصل

الينا الأصول التي تقلوا عنها ، وقد جاء في تاريخ الطبرى ما نصه :

« وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلابي أنه قال انى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة (الحيريين) ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها ^(١) »

أما المؤرخون المعاصرون للغسانيين فكانوا يونانيين يكتبون باللغة اليونانية ، وكان العرب أقل اتصالاً باليونانيين منهم بالفرس

أضف إلى ذلك أن من دخل في الاسلام من موالى الفرس كانوا أكثر عدداً من الموالى اليونانيين ، وكان موالى الفرس يتعصبون لقومهم وأصلهم ويرون أن في حفظ تاريخهم ونشره رفعة لشأنهم

وعلى كل حال فقد كان للغسانيين امارة بالشام ، وكان بينهم وبين امارة الحيرة عداً شديداً ، وكثيراً ما وقعت بينهم الحروب الملائمة

وأهم أمراء الغسانيين وأول من يثق بمحققو المؤرخين بأمارتهم الحارث بن جبلة وقد عينه الإمبراطور جوستينيان سنة ٥٢٩ م أميراً على جميع قبائل العرب في سوريا ومنحه لقب فيلارك و *بيطريق* *Phylarch and Patricius* وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور ، وكان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة ، وكان يعد حامياً من حماة كنيسةها ، وقضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث أمير الحيرة ، وفي يونيو سنة ٥٥٤ م انتصر الحارث نصراً عظيماً على المنذر في قسرين ، وربما كانت هذه الواقعة هي التي عرفت عند العرب بيوم حكيمة والتي ورد فيها المثل المشهور « ما يوم حليمة بسير » وقد سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣ م إلى القسطنطينية ليفاوض

الامبراطور في شؤون الحرب التي بينه وبين الخيرة ، وفي من يخلفه على كرسيه ومات سنة ٥٦٩ أو سنة ٥٧٠ م

وخلفه ابنه المنذر فغزا عرب الخيرة فانتصر عليهم في وقعة « عَيْنِ أَبَاغ » ولم يكن الامبراطور جوستين الثاني وهو الذي خلف جوستينيان يميل اليه ، فحاول اغتياله فلم يفلح وعلم المنذر بمكيدته فثار وأبى مخالفته وظل كذلك ثلاث سنين ، ثم هدد عرب الخيرة تخوم الرومانيين فاضطروا لمصالحة المنذر والتعاقد معه في سنة ٥٨٠ م ، وبعد موت الامبراطور جوستين سافر المنذر بولديه الى القسطنطينية فاستقبلوا استقبالاً حافلاً وألبسه الامبراطور التاج ، ثم ساءت العلاقة بين الغساسنة والروم لأسباب يطول شرحها

ولما غزا الفرس الروم وأخذوا منهم اورشليم ودمشق (٦١٣ م ، ٦١٤ م) انحط شأن الغساسنة وضعف أمرهم ، ويذكر مؤرخو العرب « أن آخر ملوكهم هو جبلة ابن الأيهم ، وان الاسلام جاء وهو على ملكه ، ولما فتح المسلمون الشام أسلم جبلة ، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته ، لكرم وفادته ، وأحسن عمر نزلَه وأجلَه بأرفع رتب المهاجرين ، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلا من بني فزارة ، وطى فضل أزاره وهو يسعبه في الأرض وناذره الى عمر في القصاص فأخذته العزة بالأمم فقاتل له عمر لا بد أن أقيده منك فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠ هـ »^(١)

وكان هؤلاء الغسانيون على ما يظهر أرق عقلياً حتى من عرب الخيرة ، لانهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية ، وكان شعراء العرب يندون اليهم فيحسنون وفادتهم ، فقد وفد عليهم فيما نعرفه النابغة الذبياني والأعشى

(١) ابن خلدون ثاني

والمرقش الأكبر وعلقة الفحل وفيهم يقول حسان

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

كذلك الأدب العربي مملوء بالقصص والأساطير والأمثال التي قيلت في هؤلاء الغساسنة ، كالذي ذكروا من حكاية امرئ القيس وإيداعه مائة درع عند السمؤال فطلبها ملك من ملوك غسان فأبى أن يعطيها إياه فذبح ابنه ، الى كثير من أمثال ذلك ويروى لنا أبو الفرج في الاغانى « أن حسان بن ثابت دُعى الى مأدبة سمع فيها غناء رائعة وصاحبها ، فلما عاد الى بيته قال لقد أذكرتني رائعة وصاحبها أمراً ما سمعته أذناى بعد لىالى جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم... لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وكان (جبلة) اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى ضحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى ان كان شائياً ، وان كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل^(١) هو وأصحابه بها ، وفى الشتاء براء الفنك^(٢) وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط الا وخلق على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه ، وحسن حديث ، ما رأيت منه حى قط ولا عر بدة ونحن يومئذ على الشرك^(٣) » وهذه القصة ان صحت دللتنا على قدر من الحضارة والترف — عند الغسانيين — غير يسير

* * *

وهنا يستوقف نظرنا شىء يظهر لنا غريباً : ذلك انا نرى اللخمين فى الحيرة

(١) يمتاز (٢) الفنك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

(٣) أبصر الحكاية بطولها فى الاغانى جزء ١٦ ص ١٤

والغسانين في الشام عمروا قرونا ، وبلغوا من المدينة شأواً جيداً اذا قيس بحالة العرب في الجزيرة ، وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم ، ودينهم كان أرقى على العموم من دين غيرهم من العرب ، فهم إما نصارى أو مجوس — وهذا كله كان داعياً الى خصب الذهن ، وتفتق القريحة بالشعر ، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فجواً من الشعراء يفتحون فيه أبواباً جديدة ، ومعاني جديدة ، مع رشاقة في اللفظ تتناسب مع حياتهم الحضرية ، ولكننا على غير المعقول لم نظفر منهم بشعر ذي خطر ، فهم مثلاً يحدثونا عن عدى بن زيد الحيرى ، وهو شاعر ضعيف كان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان فيه « عدى بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها » وقل أن يحدثونا بعد عن شاعر فحل ، وجامع « شعراء النصرانية في الجاهلية » مع تلمسه كل وسيلة لعد الشاعر نصرانيا والاشادة بذكر كل شاعر نصراني لم يذكر لنا شيئاً عن غسان ، ولم يحدثنا عن شاعر واحد غسانى — وكل الذى يرويه لنا الأدباء انما هو رحلة شعراء من الجزيرة — كالنابغة والأعشى وحسان — الى أمراء الحيرة وغسان . فما السر في هذا ؟

قلنا الأمر على وجوه مختلفة من النظر ، فقلنا لعل السر أن البادية هي منبع الشعر وهي التي تحرك نفس العربي وتغدى خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه سلطة ، ولا يقيدته قانون ، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها ، فيجيش صدره ، وينطلق بالشعر لسانه ، فاذا تحضر ذلك ، وعقلت من لسانه قوانين المدينة وتقاليد الحضارة ، وحرم منظر الصحراء الجميل فحرم الشعر الجميل ، لهذا لم يك للعراق شعر قيم ولا للغسانى شعر ما ، ولكن رأينا أن هذا التعليل غير صحيح ، فما عهدنا أن الحضارة تيمت الشعر ، فحضارة الفرس والروم وحضارة المسلمين في الدولة الاموية والعباسية لم تضيق خيالهم ولم تعقل من لسانهم ، والحضارة اليوم في أورو باعشت

على الشعر ولم تقف في وجهه ، إنما كل ما يصحح أن يقال أن الحضارة تميزت أنواعا من الشعر لا تعيش إلا في البادية ، كما تحيي أنواعا من الشعر لا تعيش إلا في نعيم الحضرة والتعليل الصحيح في نظرنا أن هؤلاء الحيريين والغسانيين كان فيهم شعراء ولكن كانت لهم أيضا لغة خاصة بهم ، غير لغة قريش التي سادت الحجاز ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان لبعده موطنهما ، ولأن الحيريين والغسانيين أرقى ممن حولهم من العرب ، فأثقوا أن يخضعوا للسان غير لسانهم ، وقد يستتبع ذلك أن تكون لهم في الشعر أوزان خاصة تتفق مع لغتهم وعقليتهم ، فلما جاء الاسلام ونزل القرآن بلغة قريش أهمل الرواة ما كان خارجا عن هذه اللغة وقواعدها وأوزانها

ولا يطعن في هذا الرأي ما يروى من شعر لعدي بن زيد ، وما يروى لنا من رحلة شعراء الجزيرة الى الحيرة وغسان وتفاهمهم ، فان عدى بن زيد كما يحدثنا الرواة له نسب في عرب الجزيرة ، ورحلة الشعراء ليست اعتراضا وجيها ، لأننا نرى أن لغة الحيرة والغسانيين مع اختلافها عن لغة الحجاز قريبة منها ، لاتفاق الأصل الذي تفرعت عنه لغات العرب ولهجاتها ، فليس ببعيد أن يكون للحيريين والغسانيين بلغة خاصة وهم مع ذلك يستطيعون أن يفهموا لغة قريش اذا حدثوا بها

ودليلنا على صحة هذا الرأي أن النسايب كما ذكرنا يذهبون الى أن اللخمين والغسانيين من أصل يمني ، وثقات المؤرخين قديما وحديثا يؤكدون أن لغة اليمن كانت غير لغة قريش ، وفي ذلك يقول ابن خلدون « ولقد كان اللسان المصري مع اللسان الحيرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحيرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الأتقال الموجودة لدينا ، خلافا لمن يحمله التصور على أنهما لغة واحدة ، ويلتمس اجراء اللغة الحيرية على مقاييس اللغة المصرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القليل في اللسان الحيرى أنه من القول وكثير

من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح ، ولغة حمير مناصرة للغة مضر في الكثير من
أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها (١) «

فلو جارينا النساءين فيما قالوا في أصل علم وغسان كان الأمر في اختلاف اللغتين
واضحاً ، بل أكبر ظننا أن اللخمين والغسانين كانوا نَبَطاً لا يمينين ولا عرباً
خلصاً وأنه كان لهم شعرهم وآدابهم باللغة النبطية

ج — اليهودية والنصرانية : من عوامل نشر الثقافة الأجنبية في جزيرة
العرب انتشار اليهودية والنصرانية

اليهودية : انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت
فيها مستعمرات يهودية ، وأشهرها يثرب وهي التي سميت بعد بالمدينة ، ولكن من
هم هؤلاء اليهود في جزيرة العرب ؟ هل هم من عنصر يهودى أو هم عرب تهودوا ،
وإذا كان الأول فن أين أتوا هل من فلسطين أو من غيرها ؟ اضطرت الأخبار في
ذلك ، ويظهر أن الصنفين كانا موجودين في الجزيرة ، يهود نزوحوا ، وعرب تهودوا
فياقوت في معجمه يذكر أن يهود يثرب عرب تهودوا ، ويقول صاحب الأغاني
« انه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم وقتلواهم ونكحوا
نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هار بين منهم الى من بالحجاز
لما غلبتهم الروم على الشام »

وليس هنا موضع تحقيق ذلك ، وعلى كل حال فقد كان في القرون الأولى للميلاد
مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي
أهمها ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة .
وقد اشتهر اليهود في جزيرة العرب حيث حلوا بمهارتهم في الزراعة كما اشتهروا

في يثرب أيضاً بصناعاتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة
وقد كان يثرب قبيلتنا الأوس والخزرج نزحاً إليها من اليمن — كما يذكر
النسابون حوالي سنة ٣٠٠ م بعد أن سبقهم اليهود الى استعمارها ، وكانت العلاقة
بين اليهود والأوس والخزرج حسنة في أول الأمر ثم ساءت قبل الهجرة لأسباب
يختلف الباحثون فيها

كذلك عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبى الجزيرة حتى تهود كثير من
قبائل اليمن ، ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس ، وقد اشتهر بتحمسه لليهودية
واضطهاده لنصارى نجران وذكروا في سبب ذلك « أن يهوديا كان بنجران عدا
أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلما ، فرجع امره الى ذى نواس وتوسل اليه باليهودية
واستنصره على أهل نجران وهم نصارى فحصى له ولدينه وغزاهم ^(١) »

ويظن بعض المؤرخين أن حركة ذى نواس هذه كانت حركة وطنية ، ذلك
أن نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة ، وكانت الحبشة تعد حامية النصرانية في
نجران وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شؤون اليمن ، فأراد ذو نواس وقومه
محو هذا النفوذ الحبشى ، ولذلك لما قتل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم
بالحبشة فأنجدوهم وكانت بينهم حروب ، وكان علم الفيل مما لا محل لذكره هنا
نشر اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها ،
من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار ، ونشروا تفاسير
المفسرين للتوراة وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتى أدخلها بعد من أسلم من
اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وأضرابهما — وكذلك كان لليهود أثر
كبير في اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب

(١) ابن خلدون ج ٢

ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم والشيطان وابليس ونحو ذلك أضف الى هذا أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني ولأنها كانت منتشرة في الاسكندرية وعلى شواطئ البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية ، وكان من أحوار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية ، وتأدب بأدابها ، فتسربت تلك الثقافة الى اليهودية كما تسرب اليها بعض مبادئ من القانون الروماني

قال بلذوين في كتابه معجم الفلسفة « ان الشرق والغرب اختلطا في الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام في اللدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى في ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على إيجادها بحث الغرب والهام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالاً وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد دينية لاهي من الفلسفة المحضة ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين : أحدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربي الذي كان متأثراً بالعلم اليوناني ، وثانيهما أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التي جاء بها المشركة ، ومن أي الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لاهي فلسفة محضة ولا هي دين خالص » فلما انتقلت اليهودية الى العرب كانت تحمل في ثناياها شيئاً من ذلك

النصرانية : انقسمت النصرانية في ذلك العهد الى جملة كنائس وان شئت فقل الى جملة فرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان . النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة ، واليعقوية في غسان وسائر قبائل الشام ، كذلك كانت هناك صوامع في وادي القرى

وأهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان « نَجْران » وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان ، تزرع وتصنع الأنسجة الحريرية ، وتتاجر في الجلود وفي صنع الأسلحة ، وكانت إحدى المدن التي تصنع الحُكْلَ اليمانية التي تغني بها الشعراء ، وكانت قرية من الطريق التجاري الذي يمتد إلى الحيرة

وكان يتولى أمورها رؤساء ثلاثة : السيد والعاقب والأسقف ، ويظهر أن السيد كان اختصاصه كاختصاص رؤساء القبائل ، فهو رئيسهم في الحرب ، وهو الذي يدير أمورهم الخارجية ، ويتولى أمور العلاقات بينهم وبين القبائل الأخرى ، والعاقب يتولى الأمور الداخلية الدنيوية ، والأسقف الأمور الدينية ، وهم الثلاثة يتشاورون في المسائل الهامة ، قال ياقوت في المعجم « ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب والعاقب واسمه عبدالمسيح والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايحتهم فامتنعوا واصلحوا النبي صلى الله عليه وسلم فكتب لهم كتاباً فلما ولي أبو بكر أنفذ ذلك لهم ، فلما ولي عمر أجلاهم واشترى منهم أموالهم »

وكان بنجران كعبة ، قال ياقوت « وكعبة نجران هذه — يقال — بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الخارثي على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمون » ويستظهر بعض الباحثين أنها كانت كعبة للعرب تحج إليها قبل مجيء النصرانية ثم اتخذها النصارى بيعة بعد انتشار النصرانية فيها

وكان نصارى نجران — على ما يستظهر « أوليري » على مذهب البعاقبة — وهذا يدل اتصالهم بالحبشة (لأنهم كانوا بعاقبة أيضا) أكثر من اتصالهم بالرومان واشتهر بين العرب من رؤسائها قبل الاسلام قُسُّ بن ساعدة ويذكر أدياء

العرب أنه كان أسقف نجران ، ويقطع « لآمانس » - في كتابه عن يزيد -
ببطلان ذلك ويذكر أنه لم يكن له صلة بنجران

وقد أوقع ذونواس بأهل نجران وقتلهم كما ذكرنا ذلك عند الكلام على
اليهودية ، ويروى بعض المؤرخين أنه نزل في ذلك قوله تعالى « قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأَخْذُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ . وما تَقَمَّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وذلك بعيد ، لأن
كلام من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد ، وقد استنجد النصارى بالحبشة
فأبجدوهم ، وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢ م ثم سنة ٥٢٥ م وهزموا ذا نواس ،
وأنشأوا مستعمرة حبشية على شاطئ البحر الأحمر ، وحكوا تهامة واستمر حكمهم
الى سنة ٥٧٥ م حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوا وطردوا الحبشة منها ، واستمرت
النصرانية في نجران الى عهد عمر فأجلام عنها وذهب أكثرهم الى العراق

وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب ، وأوجدت فيهم من يميل الى الرهبنة
ويبنى الأديرة ، فهم يحدثوننا أن حنظلة الطائي فارق قومه ونسك ، وبنى ديراً بالقرب
من شاطئ الفرات ، ويعرف هذا بدير حنظلة ، وترهب فيه حتى مات ، ويذكرون
أن قس بن ساعدة « كان يتقفر القفار ، ولا تكنه دار ، يتحصى بعض الطعام ،
ويأنس بالوحوش والهاوم » ، ويقولون أن أمية بن أبي الصلت كان قد نظر في
الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، ويذكرون أن عدى بن زيد نصح النعمان
ملك الحيرة حتى حجب اليه النصرانية ثم وضع تاجه ، وخلع أطهاره ولبس أمساحه
فلزما عبادة الله في الجبال حتى مات النعمان

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ، ويعظون ويبشرون ، ويذكرون
البعث والحساب والجنة والنار وقد ورد في القرآن كثير من الآيات تحكى أقوالهم وتفند

مذاهبهم ، مما يدل على انتشار هذه التعاليم بينهم
وكان من هؤلاء النصارى شعراء كقس بن ساعدة وأمّية بن أبى الصلت
وعدى بن زيد ، وهؤلاء لهم مسحة خاصة فى شعرهم ، عليها طابع الدين ، ومتأثرة
بتعاليمه ، تُزهد فى الدنيا وشؤونها ، وتدعو إلى النظر فى الكون والاعتبار بحوادثه ،
وهذه الأشعار وان قلد أكثرها فقد أحكم تقليدها حتى ليدلنا تقليدها على منهاج أصلها
كذلك أدخلوا على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ،
فهم يذكر أن أمية بن أبى الصلت علم العرب باسمك اللهم ، وقس أول من قال
أما بعد ، وكان أمية يستعمل فى شعره ألفاظاً مجهولة لا تعرفها العرب كان يأخذها
من الكتب القديمة فمنها قوله « قَرَسَا هُورِ يَسْلُ وَيُعَمَد » وكان يسمى الله
« السُّلْطِيط » وسماه فى موضع آخر « التَّغْرُور » الخ

كانت النصرانية — فوق هذا — من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل فى
ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن فى اليهودية ، فانها احدى الديانات التى
ولدت فى الشرق وانتشرت فى الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية —
وكانت الاسكندرية هى المركز الجغرافى لزوج الدين بالفلسفة كما أشرنا الى ذلك من قبل ،
وفى العصور المسيحية الأولى كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال
دين ، لأنهم رأوا من الضرورى أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين ، فاجتأوا
الى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان ، فترسبت الى النصرانية فلسفة أرسطو
وافلاطون وغيرها ، وقد امتاز الشرق بأن أنشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة
اليونانية تقليداً للاكاديميات اليونانية ، وأشهر ذلك مدرسة الاسكندرية التى كانت
فى بدء القرن الثالث لليلاد ، وأنشأ ملكيون سنة ٢٧٠م مدرسة فى أنطاكية وأنشئت
فى نصيبين مدرسة أخرى سنة ٢٩٧م وهذه كانت تعلم اللغة السريانية واليونانية معاً

وكان النساطرة على الأخص أكثر الملاما بعلوم اليونان . وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونانية ، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية ، وكان من رجال الدين النساطرة أطباء في بلاط فارس ومنهم كثيرون انتشروا في الحيرة ، ولعل هذا هو السبب في أنه بعد ضعف شأن الحيرة وانتشار الاسلام في هذه البقاع كان أول حامل للواء العلم في الاسلام « البصرة والكوفة » لجوارهما الحيرة ، وكان أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هي المكتوبة باللغة السريانية ، والتي خلقتها هذه المدارس النسطورية ، وعلى العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب

* * *

هذه الامور الثلاثة : التجارة والامارات على التخوم واليهودية والنصرانية كانت وسائل لتسرب المدينيات المجاورة الى العرب ونفوذ ثقافتها اليهم ، قال الهمداني في كتابه الوشئ المرقوم « لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب (كذا) وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيورها في البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيادة » ، ولكن لم تكن معرفتهم بذلك معرفة وافرة انما كانت تتسرب هذه المدينيات من مجرى ضيق ، وقد ينال التحريف ما ينقلون من غيرهم ، كالذي نراه في بعض أمثال العرب المنقولة عن امثال سليمان ، وفي بعض القصص المنقولة عن الفرس والروم ، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منظماً كما نأخذ نحن من المدينة

الغربية ، لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك ، منها الحوائط الطبيعية ، بين العرب وغيرهم من بحار وجبال وصحراوات ، ومنها البعد الكبير بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية ، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية إذا تقاربت العقليتان ، ومنها انتشار الأمية بين العرب اذ ذلك حتى ندر أن نجد فيهم القارىء الكاتب ، انما كان الخاطون للفرس والروم ينقلون حكما أو قصصاً أو أمثالا أو حوادث تاريخية مما يخف حمله على الناقل ، ومما يستطيع البدوى ومن في حكمه أن يهضمه

ولعله ظهر لك مما ذكرنا أن قد كانت هناك صلة بين العرب وغيرهم من الأمم أثرت في حياتهم المادية والأدبية ، وهو ما أردنا اثباته

الفصل الثالث

طبيعة العقلية العربية

تختلف الشعوب عقلياً ونفسياً اختلافاً كبيراً ، فعقلية الأنجليزى غير عقلية الفرنسى ، وهما غير عقلية المصرى وهكذا ، وهذه العقليات والنفسيات تختلف تبعاً لاختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بالأمة ، فالشعوب تقف فى العالم على درجات متسلسلة الرقى ، وكل درجة لها مميزاتها العقلية والنفسية

وأفراد الأمة الواحدة وان اختلفوا فى المدارك والتربية والتعليم ونحو ذلك فإن بينهم جميعاً وحدة مشتركة ، وهذه الوحدة تدركها فى الملامح الجسمية حتى لتسطيع بعد قليل من المران أن تحكم بأن هذا انجليزى أو فرنسى أو مصرى ، وهناك وحدة عقلية بين أفراد الأمة الواحدة تشبه الوحدة الجسمية تماماً ، فإهذه الوحدة العقلية والنفسية للعرب؟ وبعبارة أخرى اذا اخترت عربياً ليكون نموذجاً يمثل العرب فى نفسياتهم فما تكون صفاته؟ اختلفت آراء الباحثين فى هذا اختلافاً كبيراً ونحن نستعرض لك بعضها

(١) يقول بعض الشعوبيين فى العرب « لم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج ورمانة القبان ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والأصطرلاب ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصيتها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، الا ما كان من الشعر ، وقد شاركها

فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبية قائمة الاوزان والعروض الخ» (١)

(٢) ويقول الجاحظ في الرد عليهم والمقارنة بين العرب وغيرهم « ان الهند لم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف وانما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ومنطق ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ولا موصوف بالبيان ، وفي الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكر ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام فتأتيه المعاني ارسالا ، وتثال عليه الألفاظ اثيالا ، وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، . . . وليس هم كن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب» (٢)

(٣) رأى ابن خلدون في العرب—ولابن خلدون رأى في العرب منشور في

مواضع عدة من تاريخه نلخصه فيما يلي بألفاظه :

يرى ابن خلدون أن حالة العرب حالة اجتماعية طبيعية . يمر عليها الانسان في نشوئه وارتقائه ، وعبر عن ذلك بقوله « إن جيل العرب في الخلقه طبيعي » ويقول « انهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل اتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالفقر ، والقبائل الممتنة عليهم — بأوعار الجبال — بمنجاة من عبثهم وفسادهم ، وأما البساط — متى

(٢) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٥ مختصراً

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٨٦

اقتدروا عليها بفقدان الحماية وضعف الدولة — فهي نهبٌ لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم^(١)

وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ، لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أنافيً للقدور ، ويخربون السقف ليُعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن الفاسد ، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مفرماً ، فإذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقل أن يُسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل ، فيتعدد الحكماء منهم والامراء ، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمارة وأقفر ساكنه ، فالين — قرارم — خراب الا قليلا من الامصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك^(٢)

وهم أصعب الأمم اتقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة^(٣)

والمباني التي يختطونها يسرع إليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ، في المكان وطيب الهواء واليباه والمزارع والمراعى ، فانه بالتفاوت في هذا

تفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمنزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعى بلهم خاصة ، لا يبالون بالماء طاب أو خيث ، ولا يكثر ، ولا يسألون عن زكاء للزراع والمنابت والأهوية ، وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعى بلهم وما يقرب من القفر ومسالك الطعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للعدن ، ولم تكن لهم مادة تمد عمراتهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس ، فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سيابجا لها أتى عليها الخراب والانحلال^(١) وهم أبعد الناس عن الصنائع ، لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها ، ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر^(٢)

وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، ويُعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي ، ولذلك كان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم أو المستعجمون باللغة والمربى ، ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم^(٣)

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، سلامة طباعهم من عيوب الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المنتهى لقبول الخير^(٤)

وهم أقرب إلى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكونونها الى سواهم ، ولا يتقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل

(١) ص ٣٠٠ (٢) ص ٣٢٧ (٣) ص ٤٧٨ (٤) ص ١٢٧

جانب في الطرق ، قد صار لم البأس خلقاً والشجاعة سجية . ونجد التوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الاحكام^(١)

وهم لم يزالوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق والذلافة في اللسان ، والبيان سَمَّهم بين الامم منذ كانوا^(٢)»

(٤) ويقول «أوليري»^(٣) أن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً مادي ، ينظر

الى الاشياء نظرة مادية وضيعة ، ولا يقوّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يملك الطمع مشاعره ، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ، ولا يكثر بشئ* إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في الحروب الجسد والبغض والحياة من أول يوم اختيار للسيادة عليه ولو كان صديقاً حميماً له من قبل ، من أحسن اليه كان موضع تقمته لأن الاحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجباً لمن أحسن ، يقول لا مانس « ان العربي نموذج الديمقراطية » ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد بعيد ، وان ثورته على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت في مصلحته هي السر الذي يفسر لنا بسلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تاريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذي قاد الاوروبيين في أيامنا هذه الى كثير من الاخطاء ، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ جب العربي لحريته مبلغاً كبيراً حتى اذا حاولت أن تحدّها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة جنونية لتعطيم أغلاله والعودة الى حريته —

(١) ص ١٠٦ (٢) ج ٢ ص ١٥ (٣) في كتابه Arabia before Mohammad

ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ، مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم ، يؤدي واجبات الضيافة والمخالفة في الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها حسب ما رسمه العرف ، . . . وعلى العموم فالذي يظهر لى أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعى عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى اذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً تعدلت هذه العقلية « انتهى مختصراً

(٥) وهناك غير هذا كثير من أقوال الكتاب فى كتب الادب تنسب للعرب كفضيلة ، وتنفى عنها كل رذيلة ، كالذى ذكره الأوسى فى بلوغ الارب ، فقد قال بمد كلام طويل « والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم السنة ، وأوفرهم أنهما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة »^(١) ويقول ابن رشيقي فى العمدة « العرب أفضل الامم ، وحكمتها أشرف الحكم ، الخ » مناقشة هذه الآراء — لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذى يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمى ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمى فى عقليته وتسميته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذى يمثله الرأى الخامس لا يستحق مناقشة ولا جدلا — كذلك يخطئ الشعوبية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانونا كقانون الرومان ، أو أن يمهروا فى الصناعات كصناعة الديباج ، أو فى المحترعات كالاصطربلاب ، فانه ان كان يقارن هذه الامم بالعرب فى جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة انما تصح بين أمم فى طور واحد من الحضارة

لا بين أمة متبدية وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كفقارته بين عقل في طفولته وعقل في كهولته ، وكل أمة من هذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بداوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات ، أما ان كان يقارن العرب بعد حضارتها فقد كان لها قانون وكان لها علم وان كان قليلا كما سيأتى - أما الذى يستحق البحث والمناقشة هو رأى ابن خلدون وأوليرى

أما رأى ابن خلدون فخلاصته أن العربى متوحش نهاب سلاب ، اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب اتياده لرئيس ، لا يجيد صناعة ولا يحسن علما ولا عنده استعداد للاجادة فيهما ، سليم الطباع ، مستعد للخير شجاع وخلاصة رأى الثانى أن العربى ماضى ضيق الخيال ، جامد العواطف ، شديد الشعور بكرامته وحرية ، تأثر على كل سلطة ، كريم مخلص لتقاليد قبيلته

فهما متفقان فى وصف العرب بالمادية وثورتهم على كل سلطة ، أما الوصف الثانى. فلا مجال للشك فيه ، وقد صدق « أوليرى » فى قوله أن هذه الصفة هى التى تفسر لنا الجرائم والخليانات التى شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب « أما للمادية فكثير من المستشرقين يوافقون ابن خلدون وأوليرى على وصف العرب بها كالأستاذ. « برون » فى كتاب « تاريخ الأدب عند الفرس » ويعنون بهذا الوصف انهم لا يقدرون الا المادة والا درهم والدينار ، فاما المعنويات فلا قيمة لها فى نظرم ، وحقاً انك لتدرك هذا المعنى بجلاء فى بعض سكان البادية اليوم ، ولكن هل هذا الوصف يصح أن يعمم فى عرب الجاهلية ؟ ذلك ما نشك فيه ، فانه لو صح ما يروى لنا فى كتب الادب من حكايات الكرم والوفاء ، وبذل النفس عن ساحة فى المحافظة على تقاليد القبيلة ، لتنافى تمام المنافاة مع المادية - لذلك يظهر لنا أن كلا من أوليرى وابن خلدون أخطأ فى تحديد « العربى » الذى يصفه ، فنحن نعتقد أن عربى.

الجاهلية يخالف في أمور كثيرة عربي الاسلام ، بل عربي الجاهلية نفسه متحضراً غيره بادياً ، ويدنو اليوم يخالفون في أمور كثيرة بدو الجاهلية ، وابن خلدون مع دقته في بحثه لم يحدد بالضبط معنى العربي الذي يصفه ، وهذا ما جعله يضطرب في قوله ، فانك اذا قرأت قوله في بعض المواضع تفهم أنه انما يريد العربي البدوي كالذي يهدم القصور ليستعمل حجارها في الأثافي وخشب سقها في الاوتاد ، فانما ذلك ينطبق على البدوي المعين في البداوة لا العربي المتحضر في النولة الاموية أو العباسية ، ثم تراه يذكر العربي في أنه لا يحسن اختيار مواقع البلاد ، كما فعل عند تخطيط البصرة والكوفة . وهذا كما تعلم ليس هو العربي البدوي المعين في البداوة انما هو عربي صدر الاسلام الذي فتح فارس والروم ، وليس العربي الذي يخطط المدن هو الذي يهدم القصور الأثافيّة — ثم هو يذكر أنه لا يحسن علما وأن الموالي هم السابقون في هذا المضمار . وهذا ليس عربي البدو ولا عربي صدر الاسلام انما هو عربي الدولة العباسية وآخر الأموية — وقد ناقض ابن خلدون نفسه إذ يقرر في موضع آخر من مقدمته ما يفهم منه استعداد العربي بطبيعته للتحضر ، والاستفادة من مخالطه ويعاشره ، قال : « ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كبرى فاستعملوه في عجينهم مِلْحاً ، وأمثال ذلك ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنتهم ، وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، فأدوم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية ^(١) »

فترى من هذا أن ابن خلدون في حكمه على العربي خلط بين العربي في عصوره المختلفة ، وأصدر عليه أحكاماً عامة ، مع أنه هو نفسه القائل بأن العربي يتغير بتغير البيئة

ثم يقول « أوليري » « أن العربي ضعيف الخيال جامد العواطف » — أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر في شعر العرب لا يرى فيه أراً للشعر القصصي ولا التمثيلي ، ولا يرى الملاحم الطويلة التي تشيد بذكر مفاخر الأمة كالأبيات هوميروس وشاهنامه الفردوسي ، ثم هم في عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب في تأليف الروايات ونحو ذلك ، ونحن مع اعتقادنا قصور العرب في هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله ، فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال ، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الانظار وإن كان الابتكار فيه قليلاً

كذلك ما ملئ به شعر العربي من الغزل ، وبكاء الاطلال والديار ، وذكري الأيام والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه ، وصور به التبايعه وهيامه ، لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة

أما رأى الجاحظ فيتلخص في أنه يسلم بقول الشعوبية في أن ليس لهم علم ولا فلسفة ولا كتب موروثه ، ويرى أن العرب عوضوا عن هذا بـ « بيمزتين واضحتين : طلاقة اللسان وحضور البديهة ، والحق أنهما صفتان ظاهرتان فيهم ، ويكفي أن تلقى نظرة على ما خلفوه من آدابهم لتتعرف بما منحوا من لسان ذلق وبديهة حاضرة

ولعلك من هذه المناقشة تلمح رأينا في العرب ، فهم ليسوا في جاهليتهم واسلامهم في درجة واحدة من الرقي العقلي والخلقي فلنبقتصر الآن على وصف العربي الجاهلي .

العربي عصبى المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته ، وإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه ، حتى أفنتهم الحروب ، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة

والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، وفى الحق أن العربي ذكى ، يظهر ذكاؤه فى لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفننه فى القول أكثر مما يهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل ان لسانه أمهر من عقله

خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف « المثل الأعلى » لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب

أما ناحيتهم الخلقية فيل الى حرية قل أن يحدّها حدّ ، ولكن الذى فهموه من الحرية هى الحرية الشخصية لا الاجتماعية فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، تاريخهم فى الجاهلية - حتى وفى الاسلام - سلسلة حروب داخلية ، وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبى لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه رضى الله عنه منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب

والعربي يحب المساواة ولكنها مساواة فى حدود القبيلة - وهو مع حبه للمساواة

كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه ، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن
بعظمة الفرس والروم مع ما له ولم من جذب وخصب وفقر وغنى وبداوة وحضارة ،
حتى اذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيد الى المسود — هذا وصف موجز تجد
تفصيله في الفصل الآتي

من هذا الذي ذكرنا مما للعرب من عقلية طبيعية ، ومن ذلك الذي شرحنا
من اتصال العرب بغيرهم من الأمم المتحضرة ، نبع ما لهم من حياة عقلية مظهرها اللغة
والشعر والمثل والتقصص

الفصل الرابع

الحياة العقلية للعرب في الجاهلية

أشرنا فيما تقدم الى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وأن طور البداوة طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم أثناء سيرها الى الحضارة ، ونزيد الآن أن هذا الطور الطبيعي له مظاهر عقلية طبيعية

ففي مثل هذا الطور الذي كانت تمر به العرب في الجاهلية يتجلى ضعف التعليل ، أعنى عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، يمرض أحدهم ويألم من مرضه فيصفون له علاجاً ، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء ، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف ، يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد أن دم الرئيس يشقى الكلب ، أو أن سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، وأنه اذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض ، وهذه درجة لا يصل اليها العقل في طوره الأول

هذا الضعف في التعليل هو الذي يشرح لنا ما ملئت به كتب الادب من خرافات وأساطير كانت تعتقدها العرب في جاهليتها ، فهم يحدوثوننا أن سد مأرب

كان بين ثلاثة جبال تحصر ماء السيل والعيون ، وليس للماء مخرج إلا من جهة واحدة ، فسد الأوتال تلك الجهة بالحجارة الصلبة والرصاص ، فكأنوا إذا أرادوا سقى زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة ، وحركات مهندسة فيستقون حسب حاجتهم ، ثم يسدونه إذا أرادوا ، ثم يحدوثونا أن سبب خرابه جردان حمر كن يحفرن السد الذي يليها بأنيابها ، فتقتلع الحجر الذي لا يستقله مائة رجل ثم تدفنه بمخالب رجلها حتى تسد الوادى من الناحية التي تجمع فيها الماء ، ويفتح من ناحية السد ، — وقد عجزوا عن أن يفهموا أن ليس هناك ارتباط صحيح بين هذه الجردان الخرافية وخراب السد ، وإن السبب الصحيح اهمال تعهد السد حتى لم يعد يقوى على تحمل السيل

وكالذى قالوا ان الذى بنى الخورق النعمان بن امرى القيس ، بناه له رجل من الروم يقال له سِنَمَار ، فلما أتمه قال له سنار انى أعلم موضع آجرّة لوزالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان أيرفها أحد غيرك ، قال لا ، قال لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فقتل من أعلى القصر لى أسفله فتقطع ، فضربت به المثل (١) وقد صدقوا بهذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر كله على آجرة واحدة — ويطول بنا القول لو عددنا ما ذكر فى كتب الأدب والتاريخ من هذا القبيل مما يتعلق بانظار العرب للحوادث ، وبخاصة الحوادث التى تتعلق بالقبائل البائدة كعاد وطسم وجديس ، أو بالحوادث البعيدة التاريخ عن زمن الهجرة كجذيمة والزباء ، ونستخلص من هذا كله انهم لم يكونوا يحسنون تعليل الحوادث ، ولا يربطون المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم فى طور مثل طورهم ، كاليونان ، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها

(١) أنظر المعجم فى مادة مارب وامثال الميدان

موضوعاً لما يسمى « علم الميثولوجيا »

وهذا أيضاً يعلل لنا التجاهم في تعرف الحوادث الماضية والمستقبلية الى الكهانة
والعرافة وزجر الطير والحيافة ، وهي أمور ليست منطقية في تعرف العلة للمعلول
والسبب للسبب .

نعم كل أمة فيها مخرفوها مهما رقيت ومهما تفلسفت ، ولكن كتب الأدب
العربي تدلنا على أن هذه العقائد كانت عقائد الشعب عامة لا أفراد شواذ ، وأن
الكهانة وأمثالها تكاد تكون نظاماً مقررّاً لكل قبيلة من قبائلهم

قد نجد في بيت من الشعر الجاهلي أو في مثل من أمثالهم أو قصة من قصصهم
فكرة راقية ، وربطاً للأسباب بالمسببات ، ولكن حتى هذه يعوزها العمق في
التفكير ، كما يعوزها الشرح والتعليل — جاء في سيرة ابن هشام « أن حيا من
تَقِيْفَ فزعوا للرعى بالنجوم ، فجاهوا الى رجل منهم يقال له عَمْرُو بن أمية أحد بني
عِلاج ، وكان أدهى العرب ، وأمكرها رأياً ، ، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث في
السماء من القنف بهذه النجوم ؟ قال بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي
يهتدى بها في البر والبحر ، وتُعرف بها الانواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس
في معاشهم هي التي يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وإن
كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله بهذا الخلق فما هو ؟ »
أست ترى معي دقة نظر عمرو هذا في تفريقه بين نجوم يتوقف على بقائها
نظام هذا العالم وأخرى ليست لها هذه القيمة وهي الشهب ، ولكن شيئاً من ذلك
ليس الشرح الفلسفي للنجوم والشهب ، ولا التعليل الواضح الجلي للارتباط بين
السبب والسبب .

لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك ، وقبله لاحظ هذا المعنى بعض المؤلفين الأقدمين من المسلمين ، فقد جاء في « الملل والنحل » للشهرستاني عند الكلام على الحكماء « الصنف الثاني حكماء العرب وهم شِرْذِمَةٌ قليلة ، وأكثَرُ حكمتهم فَلَنتَاتِ الطبعِ وَخَطَرَاتِ الفِكرِ » وقال في موضع آخر « ان العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد والمقاربة بين الأمتين مقصورة على اعتبار خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات ، والغالب عليهم الفطرة والطبع ، وأن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد حيث كانت المقاربة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء ، والحكم بأحكام الطبائع ، والغالب عليهم الاكتساب والجهْدُ »

فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني مثلا ، لقد أتى اليوناني أول ما تفلسف نظرة عامة على العالم فساءل نفسه : كيف برز هذا العالم الى الوجود ؟ اتى أرى هذا العالم جم التغيير ، كثير التقلب ، أفليس وراء هذه التغيرات أساس واحد ثابت ؟ وإذا كان فما هو ؟ آلاء أم الهواء أم النار ؟ وأرى العالم كله كالشيء الواحد يتصل بعضه ببعض وهو خاضع لقوانين ثابتة فما هذا النظام وكيف نشأ ومم وجد ؟ هذه الأسئلة وأمثالها وجهها اليوناني الى نفسه فكانت أساس فلسفته ومبناها كلها النظرية الشاملة ، أما العربي فلم يتجه نظره هذا الاتجاه ، ولا بعد الاسلام ، بل كان يطوف فيما حوله فاذا رأى منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل فقال مثلا :

مَنَعَ البقاءَ تَقَابُ الشَّمْسِ وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُمَسِّي
وطلوعها بيضاء صافيةً وغروبها صفراء كالورسِ

تَجْرِي عَلَى كَيْدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حَمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ

الْيَوْمَ أَعْلَمُ مَا يَجِيءُ بِهِ وَمِصَى بِفِصْلِ قَضَائِهِ أَمْسِ

فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي وفوق هذا هو إذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره ، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو إذا وقف أمام شجرة لا ينظر إليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه « الفوتوغرافيا » إنما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة إلى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت إلى القصيدة — وخاصة في الشعر الجاهلي — فخذفت منها جملة أبيات ، أو قدمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارئ أو السامع ذلك وإن كان أدبياً ، ما لم يكن قد قرأها من قبل

وهذا النقص تلمحه فيما يكتب في الموضوعات الأدبية ، فانت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ أو ابن عبد ربه أو العسكري في الخطابة أو الوصف وما يكتبه أرسطو في ذلك رأيت الطبيعتين مختلفتين تمام التخالف ، فأرسطو يحلل الخطابة مثلاً ويبين منزلتها من البلاغة ، وأقسام الخطابة ، وأجزاء الخطبة ، وكيف يتكون الخطيب الخ بنظر شامل بحيث تدرك للخطابة صورة كاملة ، أما كتاب العرب فيكتبون جملاً رشيقة ودرراً منشورة في الخطابة لا يتكون منها شكل تام ، ويجب

أن تعنى — إذا أردت المقارنة الصحيحة — باستبعاد من تأثر طبعه وعقله بالفلسفة اليونانية كالأرسطائيين وأمثاله

وهذا النقص أيضاً تلمحه في كتب الأدب لأنها تأثرت بطبيعة الأدب نفسه فاذا نظرت في كتاب كالأغاني أو العقد الفريد أو البيان والتبيين أو الحيوان للجاحظ لا تجد موضوعاً واحداً ألقيت عليه نظرة عامة دفعة واحدة ثم وضع في مكان واحد ، ولكن هنا لمحة وهناك لمحة ، وتدخل من باب فيسلكك إلى باب آخر لأقل مناسبة ، حتى يعمي الباحث إذا أراد أن يقف على كل ما كتب في موضوع معين ، مع اعترافنا بما في هذا التنقل من لذة وطلاوة

وهذا النوع من النظر هو الذي قصر نفس الشاعر العربي فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الواقية ، ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالا خاصاً ، فذلك أن هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفذون إلى باطنه فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلا آدابهم بالحكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة ، وأتقنوا هذا النوع إلى حد بعيد ، غنى به عقلمهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فكل جملة معان كثيرة تركزت في حبة ، أو بخار منتشر يجمع في قطرة ، ولما جاء الإسلام تقدم هذا النوع من الأدب واقتبسوا كثيراً من حكم الفرس والهند والروم مما ستعرض له في موضع آخر — وعلى الجملة فالعقل اليوناني مثلاً ان نظر إلى شيء نظر إليه ككل يبحثه ويحلله ، والعقل العربي يطوف حوله فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد

والآن وقد علمنا طبيعة نظر العربي ننظر : هل هذا النوع من النظر طور طبيعي تميز به الأمم جميعاً أثناء سيرها إلى الكمال أو هو خاصة عقلية للجنس السامي ؟ ذلك أمر جدير بالبحث ، وليس لدينا مجال لبسط القول فيه ، ولكننا نقول إجمالاً إننا أميل إلى القول بأنه طور طبيعي ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب ، وأن ما يسمى «الوراثة» ليس الا وراثته لنتائج هذه البيئات ، ولو كانت هناك أية أمة أخرى في مثل بيئتهم لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة ، وإذا كان العرب سكان صحارى كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى في البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق ، ولنشرح لك الآن العوامل التي عملت في نفوس العرب

يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية ونعني بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وانهار وصحراء ونحو ذلك ، — والبيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك ، وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية ، لذلك كان خطأ ما ذهب اليه « هيجل » من انكار ما للبيئة الطبيعية من أثر في العقل اليوناني ، والثقافة اليونانية ، مستدلاً بأن الأتراك احتلوا أراضيهم وعاشوا في بلادهم ولم تكن لهم ثقافتهم وعقليتهم ، ووجه الخطأ أن ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد أقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعلوم ، وقد حاول

علم الاجتماع توضيح ما لهذه العوامل من أثر في الأمم المختلفة ، ونحن لا يعنيها هنا إلا تأثيرها في العرب

فالعرب — كما أسلفنا — كانوا يسكنون بقعة صحراوية تصهرها الشمس ، ويقل فيها الماء ، ويجف الهواء ، وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كلاً مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعاً من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القاطظ ، والجو الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، — وهي كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتُبيض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرّب منها في مجاز ضيقة معوجة عن طرق مختلفة بينها قبل

وشيء آخر لا بد من النظر إليه وهو تأثير هذه الصحراء في النفوس : ذلك أن الحياة في الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر ، سواء في ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الانسان ، قد عرّيت أرضها — غالباً — من آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجها لوجه ، لا شيء يحول دون التفاته إليها ، تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهير له ، وتتألق النجوم في السماء فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أنت عليه — أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، وإلى باري مصور ، وإلى حفيظ مُقيت — إلى الله — ولعل هذا هو السر في أن الديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم — وهي اليهودية والنصرانية والاسلام

نبعت من صحراء سينا وفلسطين وصحراء العرب

الحق أن السكون الخيم على الصحراء يملأ النفوس المستعدة روعة ، ويكسبها صفاء ، لا شئ في الصحراء من صنع الانسان ، بل الكل من صنع الله ، لا يقع نظر الناظر الا على شمس تسطع ، ونجوم تناغى ، وقر يحدث ، ورياح تلعب ، في جو فسيح مفتوح ، هنالك يستولى على النفس الصافية حالة لا يفقهها ساكن المدن للصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، موسيقى عابسة قاسية ، رهيبة عظيمة ، فلا عجب أن ترى أهلها قد استولى عليهم نوع من انقباض النفس أو الكتابة أو الوجد ، أو ماشئت فسمه ، ولا عجب أيضاً أن يتغنى شعراؤها بنوع واحد من القول ، ونغمة واحدة ، لأن الصحراء توقع على نفوسهم صوتاً واحداً فيشعرون — كما تلقوا — شعراً واحداً كما سنبينه بعد

م نتيجة أقلم طليق لا يصد هواءه بناء ، ولا يحجب شمس غيم ، ولا يجبس أنظاره وسيوله سد ، كل شئ فيه حر على الفطرة ، فهم كذلك أحرار كأقليمهم ، لم يجبسهم زرع يتعهدونه ، ولا صناعة يكفون عليها ، كذلك تحررت نفوسهم من قيود حكومة ونظام ، اللهم الا شيئين قيذا عقولهم ونفوسهم : قيد دينهم الوثني وما يتطلبه من شعائر وتكاليف ، وقيد تقاليد القبيلة وما تستلزمه من واجبات شاقة ، وقد كانوا لتقاليد قبيلتهم أشد إخلاصاً ، وأقوى إيماناً

هذا النوع من البيئة حدد نوع معيشتهم ، فهم رُحّل يتطلبون الكلاً ، وهم فقراء ، ثروتهم في كثرة ماشيتهم ، وهذه الثروة تحت رحمة الطبيعة ، فقد تنفق الماشية ، وينضب ماء الآبار ، ويقل المطر فيقل المرعى ويسوء العيش ، وبحق سموا المطر غيثاً وهذا النوع من البيئة أيضاً حدد نوع أخلاقهم وعقليتهم ، أليس البؤس

هو الذى جعل الكرم وإطعام الطعام وإيقاد النيران يهتدى بها الضيفان فى مقدمة الفضائل؟ أوليس هذا الفقر هو الذى حجب اليهم الاغارة فأشادوا بذكرحى القبيلة ، وعيروا من قصر فى الدفاع عنها ، واسترخصوا النفوس فى سبيل حمايتها ، واذا كانت الحياة بين اغارة ودفع مغير ، والسبل كلها غير آمنة ، ولا حكومة تقتص من جانٍ أو تحمى طريقاً ، أفليسوا اذن فى حاجة لأن يعدّوا الشجاعة والوفاء والعفو من كبرى الفضائل ؟ وهكذا قل فى عقليتهم ، فالعدل والظلم والخير والشر وما يذم وما يمدح كله تابع لما تواضعوا عليه ، وما تواضعوا عليه تابع لنوع معيشتهم —

وأنت اذا نظرت الى اللغة العربية والأدب العربى فى ذلك العهد رأيت نتيجة طبيعية لتلك الحياة ، وصورة صادقة لهذه البيئة ، فالفاظ اللثة مثلا فى منتهى السعة والدقة اذا كان الشئ الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة فى المعيشة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك ، فالابل هى عماد الحياة البدوية ، هى خير ما كلهم ومشرّبهم وملبسهم ومركبهم — فحياة العرب فى الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل ، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالأبل فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بها الا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ ، فوضعوا الألفاظ لها ولحمّلها ونتاجها ، ووضعوا الأسماء لأسنانها (أعمارها) وحلبها ، ورضاعها وفضامها ، ونعوتها فى طولها وقصرها ، وسمنها وهزلها ، وأصواتها وأوبارها ، وعلفها واجترارها ، ورعيها وبروكها ، وأبوالها وحركة أذنانها ، وأنواع سيرها ورياضتها ، والرّحال وما فيها ، وكل ما يُشَد عليها ، وقبودها ونزع قبودها ، وسِماتها وعيوبها ، وجربها وامراضها ، وأدوائها الخ ولم يقتصروا على اللفظ الواحد للمسمى الواحد بل وضعوا له الأسماء المتعددة — فاذا أنت انتقلت من الجمل الى السفينة رأيت اللغة العربية فى غاية التصور ، فهم لم يوفوها حقها كما وفوا حق الجمل ، ولم يصفوا كل أجزائها ، ولم

يضعوا أسماء لكل نوع من أنواعها ، نعم هناك الألفاظ تتعلق بذلك ولكنها لا تكاد تذكر إذا قيست بالألفاظ الموضوعية للابل وشؤونها ، بل انك اذا فحصت الألفاظ المستعملة في السفن ومترقاتها وجدت كثيراً منها معرباً غير عربي ، كالسَيَابِجَة واليَمَامِيرَة والأَنْجَر ، وكثير منها لا نشك في أنه وضع بعد العصر الجاهلي

هذا مثل واضح وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، فالأرض الصحراوية بما فيها من رمال ومرتفات ومنخفضات ، وما فيها من كلاً وأعشاب وحشرات وهوام ، كل ذلك وصفه العرب ، ووضعوا له الأسماء المختلفة ، فالأرض الصلبة والغليظة والمستوية ، والواسعة والمطمئنة ، والمجدبة والخصبية ، والهضاب والوديان ، قد شرح كل نوع منها ووضع له اسم وأسماء ، أما البحار وما حوته من أنواع الأسماك والأصداف والأمواج ، ومختلف المياه ، فليست اللغة غنية فيها ، الى كثير من هذه الأمثلة ، وحسبك دليلاً على هذا انك اذا نظرت في كتاب كالمخصّص لابن سيده - وميزته أنه يجمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد - أمكنك أن تقارن هذه المقارنة بوضوح ، فقد استغرق فيه الكلام على الابل وما يتعلق بها ١٧٦ صفحة كبيرة عدا ما ذكر متفرقا في مواضع أخرى منه ، على حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات ، وبعبارة أخرى أن الكلام على الابل أخذ نحو جزء من أجزاء الكتاب السبعة عشر ، فانت اذا قلت أن ما ورد في كلام العرب مما يتعلق بالابل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة العربية لم تكن بعيداً عن الحقيقة ، وهي نسبة جدٌ كبيرة ولكنه الجمل عماد الحياة العربية البدوية

هذا في المحسات ، وانك تجد مثله في المعنويات ، فكلمات السرور والهوى واللعب والمزاج أقل من كلمات البؤس والقتال والفاقة والحزن والويل ، ألم ترهم تقننوا في الداهية فصاروا يتخترعون لها من الأسماء ما أتعب اللغويين ؟ حتى جمع سحرة

من أسماؤها ما يزيد على أربعمائة ، وحتى قالوا أن كثرة أسماء السواهي من السواهي ، ذلك لأن طبيعة البيئة تستدعي ذلك ، فهي بيئة شقاء وفقر ، لا بيئة رخاء ونعيم . وإن أنت نظرت الى الأدب العربي في الجاهلية رأيت هذا بينه ، فكم استغرق الجمل والناقاة من الشعر وخيال الشاعر ؟ وكم استغرق وصف الأرض سهلها وحزنها ؟ وكذلك إنما كان يمدح الشعراء بمدوحهم ، ويرثون ميثمهم بالأخلاق . الفاشية لهدم ، من كرم وشجاعة ، وكان للبطلوة ووصف عاطفة الحماسة والتدح بشن الغارة ورد العدو المنزلة العالية — وكذلك قل في تشابهم وأمثالهم ، فكلمها منتزعة من نوع معيشتهم وصورة صادقة لحياتهم

ومظاهر الحياة العقلية في الجاهلية هي اللغة والشعر والأمثال والتقصص وهي فقط . مظاهر عقولهم ، أما العلم والفلسفة فلا أثر لها عندهم ، لأن الطور الاجتماعي الذي أنبأه لا يسمح لهم بعلم ولا فلسفة — نعم كان عندهم معرفة بالأنساب ، ومعرفة بالأأنواء والسماء ، ومعرفة بشئ من الأخبار ، ومعرفة بشئ من الطب ، ولكن من الخطأ البين أن تسمى هذه الأشياء علما ، كما يفعل الألويسي وغيره فيقول ومن علومهم علم الطب ، وعلم الأنواء ، وعلم السماء ثم يشيدون بذلك حتى يوهوك أنه كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة ، لا يصح أن تسمى علما ولا شبه علم ، أما القواعد والبحث المنظم الذي يسمى علما فلا عهد للعرب الجاهليين به ، وأصدق تعبير عن ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته عند كلامه على علم الطب قال :

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى ومجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا

أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلْدَةَ وغيره « (١) ومثل هذا يقال فيما ورد عنهم من الكلام في الأنواء والسماء ، فهي معلومات بنيت على تجربة ناقصة ، تصيب حيناً وتخطئ أحياناً ، ويتناقله الناشئون عن آبائهم ، كذلك لا أثر للمذاهب الفلسفية عندهم لما بيننا من قبل ، ولا تعتد بقول الذين يبحثون عن آيات من الشبر الجاهلي وردت فيها خطرات فلسفية فيزعمون أنها مذاهب فلسفية فاذا قال الأعشى

استأثر الله بالوفاء وبالعَدْلِ لِي وَوَكَلِي الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا

قالوا انه مذهب فلسفي يراد به رفع التبعة عن الانسان ، وكذلك قالوا في مثل

قول الآخر

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْدُ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ سَعْدٍ وَ

وقول زُهَيْرٍ

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبُ مِنْهُ وَمَنْ تُحْطِي بِهِ يَمُرُّ فِيهِمْ

فان هناك فرقاً كبيراً بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ، فالمذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأى ، وبرهنة عليه ، وتقضاً للمخالفين وهكذا ، وهذه منزلة لم يصل اليها العرب في الجاهلية ، أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك ، لانها لا تتطلب الا التفات الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم وتدليل وتفنيذ ، وهذه درجة وصل اليها العرب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٢

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العقلية

سنتكلم كلمة عن كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية وهي اللغة والشعر والمثل والقصص ، لا من حيث جماله الفني وأسلوبه البلاغى فهذا لا علاقة له بموضوعنا ، ولكن من حيث دلالاته على العقل

وقبل ذلك يجب أن نقف قليلاً لنبين رأينا في حجية هذه الأمور ، ذلك لأن الشك قد يطوّح بكل هذه المظاهر ، أليس الشعر الجاهلى ظل غير مكتوب نحو قرنين ، وظلت تتناقله الرواة شفاهاً ، ونحن نعلم ما فى هذا من تعرض للخطأ والتغيير ؟ ثم ، أليس هناك دواع تحمل زواة الشعر وغيرهم على الانتحال من دينية وسياسية وجنسية ، وقد بين النقاد الثقات أن كثيراً من الشعر الجاهلى موضوع مخلق ، فكيف بعدُ يصح أن يعتمد عليه فى تعرف الحياة العقلية ؟ وقل مثل ذلك فى سائر المظاهر

فنتقول : ان أحداً لم ينكر الشعر الجاهلى كله جملة ، بل الباحثون فيه منهم من يبالغ فى الشك ، ومنهم من يبالغ فى اليقين ، ومنهم من يقتصد ، ومذهبنا نحن أن نسلك فى الشعر الجاهلى مسلكنا فى سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث ، فى هذه الأشياء نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السند أعنى الرواة الذين رووا الحادثة أو الحديث ، ومن ناحية المآئن أعنى القول المنقول نفسه ، فاذا كانت الناحيتان صحيحتين وجب علينا أن نصدق ما قيل حتى يظهر وجه للنقد

جديد ، فلننفل كذلك في الشعر ، فاذا كان الراوى كاذباً أو ليس بثقة لم نعتد على ما روى ، وكذلك اذا قام برهان على ضعف المتن كأن يتشبه الشاعر بموضع ثبت تاريخياً أنه لم يذهب اليه ولم يكن به علاقة ، أو نحو ذلك ، فاذا لم يكن شئ من هذين صح الاستدلال بالشعر المروى ، فالتقات مثلاً ضعّفوا ما يرويه ابن اسحاق من الشعر ، وطعنوا في سحماد الزاوية وخلف الأحمر فلندع ما يرويه هؤلاء ما لم يشاركهم غيرهم من التقات في روايته ، ولكنهم وثقوا أبا عمرو بن العلاء ، والأصمعيّ وأمثالهما فلنأخذ بما رووا ما لم يتم دليل من ضعف المتن على كذبه — ولعله يسلم لنا بعد ذلك جملة صالحة نستطيع أن نتبين منها الحياة العقلية

على أن هناك وجهاً آخر للنظر ، وهو أن الشعر المزيف يصح أن يكون ممثلاً للحياة العقلية الجاهلية متى كان المزيف عالماً بفنون الشعر ، خبيراً بأساليبه ، فنلا يقول ابن سلام في خلف الأحمر « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا » ويعنى بالفراسة في الشعر العلم به والبصر فيه ، فاذا وضع خلف قصيدة فقد كان يلبس فيها على الناس وينحون نحو الجاهليين ، ويقادهم في مهارة وحذق ، حتى يصعب على الناقد أن يفرّق بين قوله وقول الجاهلي ، فلا علينا بعد إذا استفدنا من علم خلف بأمر الجاهلية ، أليس اذا حدثك خلف عن شؤون الجاهلية وهو الخبير بها كان لقوله قيمة كبرى ؟ فهو كذلك إذا وضع شعراً يمثل الحياة الجاهلية

(٢) اللغة

تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها ، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ويأخذها الخلف عن السلف كاملة ، إنما

يَخْلُقُ الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجاتهم ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة ، وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها ، وهكذا اللغة في حياة وموت مستمرين ، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضاً تنمو وترتقي تبعاً لرقى الأمة — هذا ما ليس فيه مجال للشك ، وإذا كان هذا أمكننا إذا حصرنا معجم اللغة الذي تستعمله الأمة في عصر من العصور — أن نعرف الأشياء المادية التي كانت تعرفها والتي لا تعرفها ، والكلمات المعنوية التي تعرفها والتي لا تعرفها ، اللهم الا اذا كانت المعاجم أثرية كمعاجم اللغة العربية التي نستعملها نحن اليوم فانها لا تدل علينا ، لأنها ليست معاجمنا ، ولم تسر معنا ولم تمثل عصرنا ، ولذلك يخرج عليها كُتَّابنا وشعراؤنا ، وانما كانت معاجم صحيحة للعصر العباسي أو نحوه ، أما معاجم كل أمة حية الآن فهي دليل عليها ، فاذا أمسكت معجماً منذ مائة عام للأمة الفرنسية ولم تجد كلمة للتعريف والتليفون فعنى ذلك أن الأمة لا تعرفها ، واذا لم تجد كلمة تدل على معنى من المعاني ذلك على أنهم لم ينتبهوا الى هذا المعنى وهكذا

فنتطيع اذن اذا حصرنا الكلمات العربية المستعملة في الجاهلية أن نعرف ماذا كانوا يعرفون عن الماديات وماذا كانوا يجهلون ، وماذا كانوا يعرفون من المعاني والعواطف والملكات النفسية ، وماذا كانوا يجهلون ، فاذا لم تجد مثلاً كلمة مَكَّة أو عاطفة أو شعور في اللغة الجاهلية دل ذلك على أنهم لم ينتبهوا الى تلك المعاني فلم يضعوا لها ألفاظاً ، وهذا وأمثاله يحدد لنا مقدار رقيهم العقلي ، ولكن مع الأسف لم يوضع معجم كهذا ، وهل نستطيع ذلك ؟ — انه يقف في سبيلنا حجة عقبات

(الأولى) أن أكثر الشعر والنثر الجاهليين قد ضاع ، قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » فن أجل هذا نستطيع أن تثبت ولا نستطيع أن ننفي ، نستطيع اذا صح عندنا

بيت من الشعر الجاهلي أن نقول أن ألفاظه ومعانيه تعرفها العرب ، ولكن لانستطيع
إذ لم نجد أن نقول أن العرب لا تعرف هذا اللفظ ولا هذا المعنى ، وبذلك ينهدم
جزء كبير من مظهر الحياة العقلية

(الثانية) أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون قبائل ، وهذه القبائل تختلف
فيما بينها — كثرة وقلة في اللغة وفي اللهجة ، فقد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها
القبيلة الأخرى أو تستعمل غيرها ، فقد روى « أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام
خيبر لقي النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولني
السكين ، فالتفت أبو هريرة يميناً ويسرة ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول
ثانية وثالثة ، ثم قال ألمدية تريد ؟ وأشار إليها فقبل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم
السكين ؟ ثم قال والله لم أكن سمعتها الا يومئذ » وهذه اللغات بدأ توحيدها
قبل الاسلام واستمر هذا العمل في الاسلام ، فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم
تستعملها الأخرى أو استعملت غيرها ، خصوصاً وأن بعض البيئات الطبيعية
والاجتماعية لقبيلة قد تختلف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل
وثالثة في سهل وهكذا ، فاذن لا يصح لنا اذا عثرنا على كلمة في شعر شاعر أن نستدل
بها على الحياة العقلية للعرب أجمعين

(الثالثة) أن كثيراً من الألفاظ العربية خُلِق في العصر الاسلامي ، قال ابن
جني في الخصائص « ان العربي اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف
وارتجى ما لم يُسبق اليه ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم
يسمعاها. ولا سبقا اليها » وهنالك ألفاظ تعيرت معانيها في الاسلام كأن يكون المعنى
عاماً في الجاهلية وخصص في الاسلام كالصلاة والزكاة والحج والبيع والمزارعة ونحو
ذلك ، بل أن اللفظ الواحد قد يتغير مدلوله في عقل السامع بانتقاله من طور الى طور

في الحضارة ، فلفظ الكرسي والمائدة والحوان والمطبخ والكاون والمهوى له مدلول في ذهن البدوي غير مدلوله في ذهن الحضري ، فالكرسي في ذهن البدوي أبسط شكل يطلق عليه اسم كرسي ، وفي ذهن الحضري أشكال مختلفة من الكراسي لم يكن يتخيلها البدوي — ان شئت فانظر الى ما تفهمه نحن الآن من مؤتمر وصحافة وجريدة ومطبعة وما كان يفهمه البدوي في الجاهلية من هذه الألفاظ ، بل وما يفهمه العربي في العصر العباسي منها — فما معجم الألفاظ للجاهليين قبل الاسلام وهبكت عثرت عليها فما مدلولها بالدقة عندهم ؟ ذلك مطلب عسير المنال

قد تقول : ان في القرآن غنَاء عن ذلك ، فقد نزل بلغة العرب وفهمه العرب وقت نزوله ، ونصه لا يحتمل الشك ، فنستطيع أن نتعرف منه لغة الجاهليين ، فنقول ، صحيح ان القرآن نزل بلغة العرب ، ونصه لا يحتمل الشك ، وهو يفيدنا في تعرف كثير من حياة الجاهلية العقلية فيما يحكي من أقوال المعاندين ، وفيما يصور من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين بأكملها ، لأن القرآن استعمل ألفاظاً لم يكن يستعملها الجاهليون ، وخصص ألفاظاً لمعان لم يكن يخصصها الجاهليون ، واستعمل استعارات ومجازات خارجة عن الدائرة التي كان يستعملها الجاهليون ، وله أسلوب أخذ كان بعيداً عن أسلوب الجاهليين وله معان كذلك ، قال السيوطي في المزهَر « قال ابن خالوية ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامي لم يعرف في الجاهلية ، وقال ابن الأعرابي لم يُسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق » الخ فلا تستطيع بعد ذلك ان تقول ان معجم القرآن ومعانيه وأمثاله تمثل الحياة العقلية من الناحية اللغوية

وبعدُ فمع كل هذه العقبات نرى أن ما يسلم من شعر ومثكل صحيحين يدلنا

— نوعاً ما — على حياتهم العقلية ، كما يدلنا كمّ ثوبٍ عثر عليه على طول الثوب نفسه وسعته ، على اختلاف في الصعوبة بين الماديات والمعنويات

وهذا الباقي يدلنا على غنى معجم اللغة قبيل الاسلام وخاصة فيما يتصل بنوع معيشتهم ، وقد عبر عن ذلك الأستاذ « نولدكه » خير تعبير اذ يقول « انا لیتمكننا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ، وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطراداً يدعو الى السآمة والملل ، وهذا يستتبع حتماً ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغير — وان قل — كلمة تدل عليه — ويجب أن تقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، فثلاً اذا أطلق شاعر كلمة « الهَيْصَم » على الأسد من الهَصْم وهو الكسر ، وأطلق عليه آخر « الهَرَّاس » من الهَرَس وهو اللق وضع اصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للاسد ، وقد أدخل باب المهجاء — على الأخص — في اللغة وفي الأدب العربي — وهو باب ذهب أكثر ما قيل فيه — تعبيرات كثيرة صاغها قائلوها في صورة مبتكرة وأحياناً غريبة — وقد انتقص اللغويون — على ما يظهر — كلمات وردت في بعض الاشعار على قلة ، ولم تكن مستعملة الا في قبائل معينة — ولكن رغماً عن هذا كله يجب أن نعتزف بأن معجم اللغة العربية غنيٌّ غنيٌّ رائعاً ، وسيدتي دائماً مرجعاً هاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات السامية الأخرى

وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً ، فجموع التكسير وأحياناً أسماء الأفعال كثيرة كثيرة زائدة عن الحاجة « اه باختصار ونحن نوافق في غنى اللغة العربية غني مفرطاً في الحدود التي ذكرناها من قبل وهي

الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنياء في الجبل وما اليه ، والصحراء وما فيها ،
والفاظ العواطف المحدودة التي تفيض في صدورهم — ولكن ليست غنية فيما خرج
عن هذه الحدود كالبحر وعالته ، ولا بأنواع الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ،
يعرفون القبيلة وما تفرع منها ويضعون لكل اسم لأن نظام القبيلة نظامهم ، ولكن
لا يعرفون نظام الحكومات ولا أنواع الدواوين فلم يضعوا لها بالضرورة اسماً ، فلما
عرفوا معنى الديوان أخذوا اسمه عمن يعرفه وهكذا ، ولم يكن يتطلب منهم في
الجاهلية أن يضعوا كلمات لما لم يمس حياتهم — فذلك محال — وحسب الأمة فضلاً
أن تسمى ما تشعر به الاسم والاسماء ، ولكن حسبها مذلة أن تتحضر وتتسع حياتها من
جميع نواحيها ثم لا تريد الا أن تبقى — من حيث اللغة — في حدود الدائرة الضيقة
التي رسمها لهم آباؤهم الأولون

كذلك مما لا شك فيه أن اللغة العربية غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع
صيغة فعلية لكل زمن ، والمستقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني
والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحياتها للبقاء
وللغة دلالة أخرى على الحياة العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر
ومثل وقصص وسيجعل ذلك في الفصول التالية

(ب) الشعر

يذهب بعض الباحثين^(١) الى أن الشعراء في الجاهلية كانوا « جم أهل المعرفة »
يعنون بذلك أن طبقة الشعراء في الجاهلية كانوا أعلم أهل زمانهم ، وليسوا يعنون
بالضرورة أى نوع من أنواع العلم المنظم . انما يعنون انهم أعلم بما يتطلبه نوع معيشتهم
كمعرفة الأنساب ومطالب القبيلة ومناقبها - وقد يساعد على هذا الرأى اشتقاق المادة
فشعر في الأصل معناها عليم تقول شعرت به علمت ، وليت شعري ما صنع فلان أى
ليت علمى يحيط بما صنع « وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » ما يدريكم .
وشعر بكذا فطن كما في اللسان ، فاللادة كلها معناها العلم أو المعرفة ، وعليه فيكون
الشاعر معناه العالم ، والشعراء العلماء ، ثم خصصوا الشعر بهذا الضرب من القول ،
قال في اللسان « والشعر منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والتافية وان كان
كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشرع » اهـ وربما ساعد على هذا أيضاً
ما جاء فيه « قال الأزهرى الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، واجمع أشعار ،
وقائله شاعر لأنه يشعُر ما لا يشعر غيره أى يعلم » اهـ ولكن يرى بعض المستشرقين
أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية ، ففيها « شير » بمعنى الترتيلة أو التسيحة
القدسية ، ويرجحون ذلك بأنه لم يرد في اللغة العربية شعر بمعنى ألف البيت أو
القصيدة ، وكل ما فيها شعر بمعنى قال الشعر ، وفرق بينهما

وبعد ، فهل حق أن الشعراء أعلم الطبقات في الجاهلية ؟ نحن نشك في هذا

(١) كالاستاذ بوور في كتابه « تاريخ الفلسفة في الاسلام »

كثيراً ، لانا نرى أنه كان في الجاهلية طبقة أخرى هي طبقة الحكماء ، وهؤلاء كانوا يحكمون بين الناس اذا تشاجروا في الفضل والنسب وغير ذلك ، وكان لكل قبيلة حاكم أو أكثر واشتهر منهم كثيرون كأبي كشم بن صيفي وحاجب بن زُرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظرب ، وما روى عنهم في كتب الأدب من أقوالهم وأحكامهم يدلنا على أنهم أرق عقلياً وأصدق رأياً من الشعراء ، وإن كان الشعراء أوسع خيالاً وأكثر في القول افتناناً

نعم إن الشعراء كانوا من أرق الطبقات عقلاً ، بدليل ما صدر عنهم من شعر ، وبدليل أحاديث مبعثرة نراها تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرق العقلي ، كالذي جاء في سيرة ابن هشام من أن الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سباع النبي حتى لا يتأثر بقوله ، قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمت ألا أسمع منه شيئاً . ثم قلت في نفسي : وانكَل أمي ! والله اني رجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من التبيح فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته »

أضف الى ذلك اننا نجد أكثر الشعراء في الجاهلية من أكرم الناس على قومهم ، لأن موقف الشاعر في قبيلته كان التنغي بمنابها ، ورتاء موتاها ، وهجاء أعدائها ، وقل أن تجد في أول أمرهم من كان صلوكاً يتخذ الشعر حرفة كما فعل الحطية بعد

ومع هذا فانا نرى أن الشعراء كانوا من أرق طبقاتهم عقلاً ولكن ليسوا أرقهم

دلالة الشعر على الحياة العقلية — قديماً قالوا « إن الشعر ديوان العرب » يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ، وديانتهم وعقليتهم ، وإن

سُت قتل انهم سجلوا فيه أنفسهم ، وقد يمتنع الأدباء بشعر العرب في الجاهلية فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم ، وعرفوا منه أخلاقهم التي يمدحونها والتي يهجونها ، واستدلوا به على جزيرة العرب وما فيها من بلاد وجبال وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون في الجن ، وما كانوا يعتقدون في الاصنام وانحرافات ، وألقوا في ذلك جميعه الكتب المختلفة

وكانت الطريقة المثلى للانتفاع بهذا « الديوان » أن يعنى العلماء بجمع ما صح عندهم من الشعر الجاهلى مع نقد السندِ والْمَنَ ، وابعاد ما لم يصح ، كما فعل المُحدِّثون في الحديث ، فليس لدينا مجموعة من الشعر الجاهلى ذُكِرَ سَنَدُهَا ، وعُنِيَ ببيان رجاها عناية تامة ، كالذى عندنا من صحيح البخارى ومسلم وغيرهما ، وكان يجب أن يعنى بالشعر الجاهلى هذه العناية متى عددناه « ديوانا » تسجل فيه الحوادث والعادات ، ونظرنا اليه كأنه وثائق تاريخية ، ولكن يظهر أن هذا النظر الى الشعر الجاهلى لم يكن سائداً عند الرواة والأدباء ، انما كان السائد عندهم أو عند أكثرهم النظر اليه كجادة لتعليم اللغة ، أو كأنه طُرْفَةٌ وَمَلْهَمَةٌ ومادة لحسن المحاضرة فلم يكن يعنى به هذه العناية التي بذلت في الحديث ، ولم ير من يتعمد الكذب فيه أن يتبوأ مقعده من النار - نعم أن بعض الأدباء سار في الأدب سيرة في الحديث فكان يروى الخبر مُعْتَمَناً ، ووضع بعضهم مصطلحات لرواية الأدب على نمط مصطلح الحديث ، ولكن يظهر لنا أنها كلها محاولات أولية لم تنضج ولم يسيروا فيها الى النهاية

كذلك أكثر ما روى لنا قد عنى فيه بالمختارات أكبر عناية ، وهم في هذا ينظرون نظرة الأديب لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التي لم يُحْكَمْ نَسَجُهَا ، ولم تهذب ألفاظها ولم يصح وزنها قد يعجب بها المؤرخ أكثر من إعجابه بالقصيدة الكاملة

من جميع نواحيها ، ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية أكثر من قصيدة راقية ، ولعل هذا هو السبب في أنا مع اعتقادنا في أن الشعر كان خاضعاً للنشوء والارتقاء قلَّ أن نرى فيما يُروى لنا منه المحاولات الأولية التي بدأ بها الشعراء شعرهم ثم تدرجوا منها الى ما وصل اليها من الرقى ، ذلك أن الأديب لم يكن يروقه ذلك فيهمله ، أو يستضعف وزنه فيصلحه ، وبذلك يضيع كثير من معالم التاريخ

لو كان عندنا هذه المجموعة التي لا يقصد فيها الى الاختيار ، ولكن يقصد فيها الى الصحة لكان لنا مادة صادقة للدلالة على أشياء كثيرة منها الحياة العقلية ومع هذا فما لدينا يمثل بعض الشيء* وان لم يكن وافياً — كما ذكرنا من قبل — وأشهر المجموعات التي لدينا مما نسب الى الجاهليين — عدا دواوين الشعراء — الملقات السبع ويقلب على الظن أن جامعها حماد الراوية و (٢) المفضليات وجامعها المفصل الضبِّي وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة ، (٣) ديوان الحناسة لأبي تمام وفيه مقطعات كثيرة صغيرة من الشعر الجاهلي ، (٤) ومثله حماسة البحري ، (٥) وفي كتاب الأغاني والشعر والشعراء لابن قتيبة أشعار ومقطعات كثيرة للجاهليين ، (٦) ومختارات ابن الشجري ، (٧) وجمهرة أشعار العرب لمن يسمى أبا زيد القرشي والشعر الذي وصل اليها عن الجاهلية لم يعد تاريخ أقدمه ١٥٠ سنة قبل البعثة — ونظرة عامة اليه تدلنا على أنه ليس متنوع الموضوعات كثيراً ، ولا غزير المعاني فما روى لنا من القصائد موسيقاه واحدة ، يوقع على نغمة واحدة ، والتشابه والاستعارات تكرر غالباً في أكثر القصائد — قلة في الابتكار وقلة في التنوع — ولنتعرض كثيراً منها فماذا نرى ؟

يتخيل الشاعر أنه راحل على جمل ومعه صاحب أو أكثر ، وقد يعرض له

في طريقه أثرُ أجرة رحلوا فيستوقف صحبه ويبكى معهم على رسم دارهم ، وينذ كرأياما
هنيئة قضاها معهم وأن العيش بعدهم لا يُحتمل ، ثم يصف محبوبته اجمالا أو تفصيلا
ويخرج من هذا الى وصف ناقته أو فرسه ، ويقارنها بالوعل أو النعامة أو الغزال ،
وقد يظفر من ذلك الى وصف الصيد ومنظره ومنازلته — وبعد هذا كله يتعرض
للموضوع الذي من أجله أنشأ القصيدة، فيتمدح بشجاعته أو يتغنى بفعال قبيلته، أو يعدد
محاسن ممدوحه ويصف كرمه، أو يفتخر بموقعة انتصر فيها قومه، أو يهجو قبيلة عدت
على قبيلته ، أو يحمل قومه على الأخذ بالثأر أو يرثى راحلا ، وهذه — تقريباً — كل
للموضوعات التي قيل فيها الشعر الجاهلي — وهي موضوعات كما ترى محدودة ضيقة ،
هي ظل حياة الصحراء . وصورة صادقة لعيشة البداوة ، والحق أنهم في البيان
واللعب بالألفاظ كانوا أقدر منهم على الابتكار وغزارة المعنى ، فترى المعنى الواحد
قد توارد عليه الشعراء فصاغوه في قوالب متعددة تستدعي الإعجاب ، ولكن
لا يستدعي إعجابنا خلقهم للمعاني وابتكارهم للموضوعات ، وقد عبر عنتره عن
ذلك بقوله :

هل غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِّ

وزهير إذ يقول :

مَا أَرَانَا نَقُولُ الْآ مَعَارَا أَوْ مُعَادَا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَا

ولكن ما أنصفوا ، فقد غادر الشعراء كثيراً ، والناس من قديم يشعرون ولا يزال
بجمل القول ذاسمة ، ولا يزال الخيال الخصب ينتج ويجدد ، ويخلق موضوعات
لم تكن ، ومعاني لم يسبق بها — ولكن ضيقوا على أنفسهم أو قل ضيقت عليهم
بيئتهم فلم يجدوا إلا أن يقولوا معاداً أو معاراً
للهم إلا آياتنا قليلة مبعثرة تشعر فيها بمعنى جديد ، وترى فيها أثر الابتكار

واضحاً ، والا شعراء نادرين كانت لهم مناح خاصة ، وشخصية واضحة ، وتسمع
لقولهم نعمة جديدة ، كالذي تراه في زهير ، فقد عنى باخلاقية قومه وعبر عنها
تعبيراً صادقاً

كذلك تشعر حين تقرأ الشعر الجاهلي غالباً أن شخصية الشاعر اندمجت في
قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وانك لتتبين هذا بجلاء في معلقة
عمرو بن كلثوم ، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر ووصف ما يشعر
به وجدانه ، وأظهر فيه أنه يحس لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته
ولما انتشرت اليهودية والنصرانية بين العرب ظهرت نعمة دينية جديدة ،
تراها في مثل شعر عدى بن زيد في الحيرة ثم في أمية بن أبي الصلت في الطائف
وخلاصة القول أن الشعر الجاهلي لا يدلنا على خيال واسع متنوع ولا على
غزارة في وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التعبير وحسن بيان
في القول

(ج) الامثال

يقول علماء اللغة العربية أن كلمة المثل مأخوذة من قولك هذا مثل الشيء ومثله كما تقول شبهه وشبيهه ، لأن الأصل فيه التشبيه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً ، ويرى غيرهم أن الكلمة مأخوذة عن العبرية ففيها كلمة « مثل » تدل على هذا المعنى وأوسع منه ، فهم يطلقونها على الحكمة السائرة وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الاساطير .

وعلى كل حال فسنبحث في الأمثال فقط من ناحية دلالتها العقلية ، فمن أمثال الأمة نستطيع أن نتفهم الدرجة التي وصلت إليها ، ونستطيع أن نعرف كثيراً من أخلاقها وعاداتها

وللأمثال من هذه الناحية ميزة على الشعر ، ذلك أن الشعر تعبير طبقة من الناس يعدّون في مستوى أرق من مستوى العامة ، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة التي ارتسمت في أذهانهم الراقية نوعاً من الرقى ، وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلاً يستوجبها الشعر ، أما الأمثال فكثيراً ما تتبع من أفراد الشعب نفسه ، وتعبّر عن عقلية العامة ، ولذلك تجد كثيراً منها غير مصقول ، أعنى أنه لم يُتخير لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين ، مثل قولهم « أوّل ما أطلع ضبّ ذنبه » وقولهم « أم قبّيس وأبو قبّيس كلامهما يخلط خلط الحيس » وربما كان هذا هو السبب في أن بعض الأمثال العربية يفهم معناها اجمالاً لا تفصيلاً ، قال أبو هلال العسكري في كتابه جمهرة الأمثال في شرح « بعين ما أرينك » « ان معناه « أعجل » وهو

من الكلام الذى قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه ، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكاملها ، وإن فيها أشياء لم تعرفها العلماء « اه وأنا أرى أنه يدلنا أيضاً على أن ما وصل إلينا من الشعر والخطابة ونحو ذلك هى لغة الأدباء المصقولة لا لغة الشعب والعامية ، ولم يصل إلينا من لغة العامة الا بعض الأمثال .

ولست أعنى أن كل الأمثال ساقطة التعبير ، غير مصقولة الألفاظ ، ولكن أعنى أنها تمثل الشعب بأجمعه ، فقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولاً ، وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك ، أما الشعر فلا ينبع الا من طبقة الشعراء ، وهم عادة أرقى من الشعب ، وهم ان فات بعضهم رقى المعنى فلن يفوته صقل اللفظ ، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن المثل بأنه « صوت الشعب » ، ومن أجل هذا أيضاً كانت دلالة الأمثال على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر

رأى الباحثون فى الأمثال أن هناك نوعاً منها يكاد يكون شاملاً بين الشعوب كلها ، ونوعاً آخر تختلف فيه الأمة عن الأخرى ، فالنوع الأول موضوع البحث : كيف اتفقت الأمم فى هذه الأمثال وخصوصاً فى اللغات ذات الأصل الواحد كاللغات السامية ، ففيها أمثلة متقاربة ، وفى بعض الأمثال العربية مشابهة قريبة لأمثال سليمان ، لا تختلف عنها الا فى صوغها فى القالب العربى وتحويرها تحويراً طفيفاً لتتنفق والنوع العربى — والنوع الثانى موضع البحث : لم كان كذلك فى هذه الامة وكان غير ذلك فى الأمة الأخرى ، فالأمة الزراعية لها أمثال مشتقة من زراعتها ، والتجارية لها أمثال مشتقة من تجارتها وهكذا وانك لتستطيع أن تطبق ذلك على العرب باستعراضك أمثالهم ، فقد أكثروا من الأمثال المتعلقة بالابل وشؤونها ، فقالوا « استنوقَ الجملُ » و « انما يجزى النقى ليسَ الجملُ » و « أَعْدَةُ كَفْلَةِ البَعِيرِ » وهكذا أمثالهم فى اللبن والجُزور ، وإن أنت استعرضت

« أمثال قريش رأيت فيها ما يدل على أنهم قبيلة تجارية كقولهم « لا في العير ولا في النغير » ونحو ذلك

وقد عاق عن الاستفادة من الأمثال العربية من هذه الناحية أمران ، (الأول)
الاختلاط الأمثال الجاهلية بأمثال الاسلام اختلاطاً كبيراً حتى ليصعب التفريق
بينهما ، وهذه أول خطوة يجب التحقق منها قبل الاستدلال بالأمثال على الحياة
العقلية — وقد رووا أن « علاقة الكلابي » جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية
« وقد كان هذا يفيدنا كثيراً لو وصل الينا ، اذ لا يكون قد ذكر فيه الأمثال الجاهلية
بوصدر الاسلام ، ولكنه لم يصل

نعم أن هناك دلائل تدانا أحياناً على مصدر المثل ، من طرق عدة
(١) أن هناك عدة أمثال قيلت في حوادث تاريخية كجزء سينمارة ،
ومواعيد عرقوب ، ولا في العير ولا في النغير ، وتسمع بالمعدي خير من أن تراه ،
وهذه دلالة صحيحة متى ثبت صحة الحادثة التاريخية التي قيل فيها المثل

(٢) الاستدلال من حياة الجاهلية الاجتماعية على أن المثل جاهلي ، كالذي
قالوا في « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فإن ذلك هو الخلق الجاهلي لا الاسلامي

(٣) ان كثيراً من الأمثال قد نص المؤلفون على قائلها عند ذكر مضرب
المثل ، فهم في كثير من الأحيان يذكرون القصة التي قيل فيها المثل ، فنستدل
بذلك — ولو على وجه التقريب — على زمنه ، ولكننا نشك في كثير من هذا
لأن القصة في كثير من الأحيان يبدو عليها أثر الصنعة ، وانها عملت فرساً ينطبق
عليه المثل ، بدليل أن المؤلفين كثيراً ما يذكرون قصصاً مختلفة متباينة لمضرب
المثل الواحد — أضف الى ذلك أن أكثر الأمثال في الأمم المختلفة يصعب تعيين
نقائلها ، حتى الأمثال قريية العهد ، لان الأمثال ليست الا جملاً قصيرة ، نتيجة

نجارب طويلاً ، وهى عند ما تقال لا تكون مثلاً ، وإنما يجعلها مثلاً شيوعها بعدُ ،
لموافقتها لنوع الجمهور ، ويفلب عندئذ أن يكون قد نسي قائلوها
(الأمر الثانى) من وجوه الصعوبة أن أكثر جامعى الأمثال رتبوها على
حسب حروف الهجاء ، فجعلوا ما أوله الف ، ثم ما أوله باء وهكذا ، ولم نر فيما نعلم
أحدًا رتبها على حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التى تتعلق بالغنى والفقير ،
وبالعمر وأطواره ، وبالزواج والأسرة ، وبالعمل والتجارة ، وبالحظ وما إليه ،
وبالأصدقاء والجيران ، وبالمرأة وأخلاقها ، وبالصحة والمرض ، الى نحو ذلك ،
ولو فعلوا ذلك — كما فعل بعض مؤلفى الفرنج فى أمثالهم — لافادونا فائدة كبرى من
ناحية موضوعنا

وقد شاع بين العرب فى الجاهلية ذكر لقمان ، واتخذوه شخصية هى مثال
الحكمة ، ينسبون إليه من الأمثال كثيراً مما لم يعرف قائله ، وسميت فى القرآن سورة
باسمه ، وزعم بعض الأدباء أن هناك لقمانين : لقمان الحكيم ، ولقمان عاد ، وإن لكلِّ
وردت أمثالا ، فقالوا عن الثانى ورد « إْحْدَى حُطَيَّاتِ لِقْمَانَ » و « آكَلُ مِنْ
لِقْمَانَ » ورووا للاول حكما كثيرة ، ويظهر أن حكمه كانت متداولة بين العرب لدرجة
كبيرة ، ذكر ابن هشام فى السيرة « أن سُوَيْدَ بن صامت قدم مكة حاجاً أو
مُعْتَمِراً ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لِحَدِّدِهِ وشرفه ونسبه ، . . .
فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام
فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم وما الذى معك ؟ قال : بِحِكْمَةِ لِقْمَانَ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
اعرضها علىّ فعرضها عليه ، فقال له ان هذا لكلام حسن ، والذى معى أفضل

من هذا ، قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه ، وقال ان هذا لقول حسن الخ ^(١)»

ولكن من لقمان هذا ؟ ما هُوِيَّتُهُ ؟ وما قومه ؟ وأية مدنية تمثلها حكته ؟ وفي أى عصر كان ؟ لم يصل العلم الى تحقيق ذلك بعد ، وقد اضطربت الأقوال فيه . اضطرابا كبيرا ، فقيل كان نوبيا من أهل أَيْلَةَ ، وقيل كان حَبَشِيًّا ، وقيل كان أسود من السودان مصر ، وزعم وهب بن مُنْبَهٍ أنه يهودى ، وأنه ابن أخت داود عليه السلام وقيل ابن خالته وكان في زمنه ، وفي تفسير البيضاوى « أنه لقمان بن باعورا من أولاد آزر بن أخت أيوب أو خالته ، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم » ، ويقول ياقوت في معجمه في مادة طبرية « وفي شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه ، وله في اليمن قبر والله أعلم بالصحيح منهما » اه ويروى بعضهم حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سادة السودان أربعة لقمان ، والنَجاشى وبلال ، ومَهْجَع » وظاهر أن كلمة السودان لا يراد بها السودان بالمعنى الذى نصلح عليه الآن إنما يراد بها الجنس الاسود

وعلى كل حال فالذى نستنتجه من هذا انهم مجمعون على أنه ليس عربيا ، وأنه أدخل على العرب حكمة أمة أخرى ، ويرجح بعضهم أنها العبرية ، ويزعمون أن كلمة لقمان تعريب من العرب لكلمة بَلَمَم ، وبلَمَمُ بْنُ باعورا يهودى معروف ، وقد ذكر الامام مالك في موطنه كثيرا من حكمه ، وجمعت له جملة أمثال قصصية فى كتاب اسمه « أمثال لقمان » ويدل ضعف أسلوبيه ، ونزول عبارته ، وكثرة الخلقا النحوى والصرفى فيه ، على أنه موضوع من عهد قريب ، ولم يرد ذكر هذا الكتاب فى كتب الأدب العربى القديمة فيما نعلم ، ورأى بعض الباحثين وجوه شبه

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦٥ ج ١ من شرح الروض والنف والمجلة معناها الصحيفة

بين بعض الأمثال المنسوبة للقرآن ، وقصص « إِرْزُوب » اليونانية ، وأخذوا يفترضون الفروض في منشأ ذلك مما ليس هذا محله

وبعد فإن نحن نظرنا الى أمثال العرب التي نسبت الى الجاهليين وجدنا بعضها سخيفاً ، يستخرج منك ابتسامة الاستهزاء ، كالذي ذكرنا من قبل من أقوال ساقطة التعبير ، وبعضها قبيح اللفظ في فحش ، وبعضها نظرات للحياة متناقضة مثل « سَمِّنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُ » و « سَمِّنْ كَلْبِكَ يَدْبَعُكَ » وكثير منها نتيجة تجربة صادقة ، ونظر هادئ حكيم مثل و « أَخُو الظُّلْمَاءِ عَشِي بَلِيلٌ » و « ان من الحُسْنِ شِقْوَةٌ » و « أم الصقر مِثْلَاتُ نَزُورٍ » و « تجوع الحرة ولا تأكل بتديها » و « التمرة الى التمرة تمر » و « التَّكَلَّى تحب التكلَّى » و « الحرب مائة » و « بَسَّ العوضُ مِنْ جَمَلٍ قَيْدُهُ » و « بَيْنَهُمْ دَاءُ الضَّرَائِرِ » و « ترى الفتيان كالنَّخْلِ ، وما يدريك ما الدَّخْلُ » الخ الخ

والعرب حقاً أجادوا في هذا النوع من الأدب ، وخلفوا لنا ما يدل على عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص ، ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلي ، وهو النظر الجزئى الموضوعى لا الكلى الشامل ، لأن المثل لا يستدعى احاطة بالعالم وشؤونه ، ولا يتطلب خيالاً واسعاً ولا بحثاً عميقاً ، إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة

تدلنا الأمثال على حياة العرب الاجتماعية التي أجملناها من قبل ، فنظرة الى مجموعة الأمثال التي قيلت في المرأة تدل على انحطاط منزلتها في نظرهم ، والتي قيلت في الحياة الاقتصادية تدل على فقر البلاد واجدادها ، ويطول بنا القول لو عرضنا لك كل الأمثال التي قيلت في كل باب وما يستنتج منها ، ولكننا نحيلك في ذلك على أمثال الميبدانى وجمهورة الأمثال لأبى هلال العسكري وأمثال المفضل الضبي

بعد أن أبنا لك وجهة نظرنا في كيفية بحثها
وهناك نوعان آخران يلحقتان بالأمثال ولهما قيمة كبيرة في الدلالة على الحياة
العقلية ، ولكن يظهر أن المؤلفين لم يُعْنُوا بهما العناية الكافية فلم يجمعوهما ويرتبوهما
كما فعلوا في الأمثال ، إنما تراهما منشورين مبعثرين في الكتب وهما
(الأول) الأحاجي أو الألغاز كالذي زعموا أنه اجتمع يوماً عبيدُ بن الأبرص
وامرؤ القيس ، ، فقال له عبيد : كيف معرّفتك بالأوابد ؟ فقال : قل ما شئت
تجدني كما أحببت : قال عبيد

ماحية ميته قامت بميتها درء ما أنبتت ناباً وأضراساً

فقال امرؤ القيس

تلك الشعيرة تُسقى في سناهلها قدأخرجت بعد طول الملكث أكداسا
فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لمن الناس تماسا
فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها روى بها من نحول الأرض أياسا
الى اخر القصة ، وهي طويلة

وكالذي زعموا أن امرأ القيس آلى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن
ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألن عن هذا قلن له أربعة عشر ،
فبينما هو يسير اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه فأعجبته ، فقال
لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنان فقالت أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة
فأخلافُ الناقة ، وأما اثنان فتدنيا المرأة ، فخطبها من أبيها الخ

ولم نسق هذين المثلين لاعتقادنا بصحتها فان أثر الصنعة الاسلامية واضح في

قوله : تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها وفي قوله بعد

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مقياسا
هذا فضلا عن صَعْفِ الشعر واسفاهه . وانما سقناهما للدلالة على ما نريد من
الألفاظ والأحاجي ، وترى كثيراً منها قد نثر في كتب الأدب كأمالى القالى والحيوان
للجاحظ والمثل السائر لابن الأثير وأمثال الميدانى لوجع وامتنحن ورتب لدلنا عن
ناحية خاصة من نواحى الخيال

(الثانى) قصص الحيوانات كالذى زعموا أن النعامة ذهبت تطلب قرنين ،
فرجعت بلا أذنين ، وفى ذلك يقول بشار

طَلَبَهَا قَلْبِي فَرَأَيْتُ بِهِ وَأَمَسَّكَ قَلْبِي مَعَ الدَّيْنِ
فَكُنْتُ كَالهَلِيقِل^(١) غدا يبتغى قَرْنَا فَلَمْ يَرِجِعْ بِأُذْنَيْنِ

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظلم — وكالذى زعموا أن الغراب ذهب يتبع مشية
القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل — وأن الضفدع كان بلا ذنب
لأن الضب سلبه اياه

وكانوا يقولون أن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها فجعلها على رأسه يطلب
موضعا ، فبقيت فى رأسه ، فالتفت زُرْعَةُ التى فى رأسه هى قبرها ، وانما انتنت ريحها
لذلك^(٢) وزعموا أن الهددِيلَ فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح فإ
من حمامة إلا وهى تبكيه وتدعوه فلا يجيبها قال بعضهم :

وما من تهتفين به لنصر بأسرع جابئة لك من هَدِيدِل

وقولنا فى هذا النوع كقولنا فى سابقه

(١) الهقل الفتى من النعام

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٨٠ طبع أوروبا

(٤) القصص

كان للعرب قصص . وهو باب كبير من أبواب أدبهم ، وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم ، وهذا القصص في الجاهلية أنواع ، منها

أماهم العرب : وهي تدور حول الوقائع الحريسة التي وقعت في الجاهلية بين القبائل ، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو بين بعض العرب ، وأمم أخرى كيوم ذي قار وكان بين بني شيبان والفرس ، وانتصر فيه العرب — وكانت هذه القصص موضوع العرب في سمرم في جاهليتهم وفي اسلامهم « قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال كنا تتناشد الشعر ، وتحدث باخبار جاهليتنا » وترى هذه الايام وأخبارها مجموعة في العقد الفريد وأمثال الميداني — وقد زاد القصص في بعضها وشوهوا بعض حقايقها ، كالذي تراه في أخبارهم التي حكوها في موت الزباء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا Zenobia ، فخير الزباء المروى في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي رواية خيالية موضوعة لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندرى هل أفسدها العرب في جاهليتهم أو أفسدها رواة الأدب في الاسلام

(أحاديث الهوى) وهذا كثير في كتب الأدب ، كالذي رواه من قصة المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان وما كان بينهما من علاقة وما قيل في ذلك من قصص وما روى من أشعار (١)

(٣) وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أمم أخرى وصاغوه في قالب

(١) أنظر الاغانى جزء ١٨ ص ١٥٤

يتفق وذوقهم ، كقصة شريك مع المنذر وأنه أتاه في يوم يؤسه رجل يقال له حنظلة فأراد قتله فطلب منه أن يؤجله سنة ، فقال ومن يكفلك ؟ فكفله شريك بن عمرو فلما كان من القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة فلم يأت ، فأمر بشريك فقرب ليقتله فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليه فتأملوه فإذا هو حنظلة ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما ، وأبطل تلك السنة^(١) الخ ، فان لهذه القصة أصلاً يونانياً معروفاً — وكقصة أنه كان لرجل من بني ضبة في الجاهلية بنون سبعة فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون فأووا إلى غار ، فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلما استراث أبوم أخبارهم اقتنر آثارهم حتى انتهى إلى الغار ، فانقطع عنه الأثر ، فأيقن بالشر فرجع وأنشد شعراً^(٢) فان لها شبهاً بقصة من قصص المسيحية الأولى .

وقد عرفت العرب في الجاهلية قصصاً كثيرة عن الفرس وكانوا يروونها ويتسامرون بها ، جاء في سيرة ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ قال ابن هشام وهو الذي قال فيما بلغني « سأُنزلُ مثلَ ما أنزلَ الله »^(٣)

ولعله بعد الذي ذكرنا من علاقات العرب بمن حولهم من الفرس والروم تجار يا

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٨٧ (٢) أمالي القالى جزء ١ ص ٦١

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ١٩٠ من الروض الأتف

وسياسياً ودينياً ، وما ذكرناه عن لقمان من أنه حبشى أو يهودى أو مصرى ، ومن
اجماعهم بأنه ليس بعربى ، وما كان من شبه بين أمثال سليمان والأمثال العربية ، وما
أشرنا إليه من وجوه الشبه بين بعض قصصهم وقصص الأمم الأخرى ، وما كانوا
يتحدثون به من أقاصيص الفرس — يتضح لك أن العرب لم يكونوا — كما يفهم
كثير من الناس — مستقلين عن غيرهم من الأمم استقلالاً تاماً ، لا فى وسائلهم
الاقتصادية ولا السياسية ولا الأدبية ، فلما جاء الاسلام كان الاتصال أتم ، وأثر
الامتزاج أكبر كما سيتضح ان شاء الله

مصادر هذا الباب

ذكرنا فى ثنايا البحث كثيراً من الكتب التى رجعنا إليها ونزید عليها أننا استفدنا أيضاً كثيراً
من الكتب الآتية :

(١) دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « عرب » و « حير » و « كهلان » وغير ذلك
من مواد أخرى مفرقة

(٢) كتاب « العرب قبل الاسلام » Arabia before Mohammad تأليف O'leary

(٣) دائرة المعارف البريطانية فى مادة اللغات السامية

(٤) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

(٥) أمثال الميدانى وأبى هلال السكرى والمفضل الضبي

البَابُ الثَّانِي

الاسلام

الفِصْلُ الأوَّلُ

بين الجاهلية والاسلام

كان للاسلام اثران كبيران في عقلية العرب من ناحيتين مختلفتين ، (الأولى) ناحية مباشرة وهي تعاليمه التي أتى بها مخالفاً عقائد العرب (الثانية) ناحية غير مباشرة وهي أن الاسلام مكّن العرب من فتح فارس ومستعمرات الروم ، وهما أمتان عظيمتان تحملان أرقى مدنية في ذلك العهد ، فكان من أثر الفتح وضع البلاد وما فيها من نظم وعلم وفلسفة تحت أعين العرب ، فتسربت مدينتهما الى المسلمين ، وتأثرت بهما عقليتهم — وستكلم كلمة عن كلتا الناحيتين

لفظ الاسلام ومعناه — اذا تتبعنا مادة س ل م ونشوء كلمة الاسلام رأينا أن معنى السلام المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، جاء في القرآن « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل به الى معرفة السبب في تسمية العهد الذي قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاهلية ، وعهده إسلاماً ، والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأفقة ، جاء في حديث الافك

« ولكن اجتهلته الحمية » أى حملته الأنفة والغضب على الجهل ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه « انك امرؤ فيك جاهلية » أى فيك روح الجاهلية ، وقريب من هذا المعنى استعماله استجهله الشيء أى استخفه ، ومنه قوله — وقاك الهوى واستجهلتك المنازل — وفى معلقة عمرو بن كلثوم

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

فترى من هذا كاه أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الاسلام ، فسمى العصر الجاهلية ، ويقابل هذه المعانى هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب وهى كلها نزعة سلام ، فعنى الآية كما فى الطبرى « أن عباد الله هم الذين يشون على الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم »

ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا وهو استعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والاتياد لما كان الخضوع ادعى الى السلام ، وفى هذا المعنى جاءت الآية « وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ » « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » — وقد أطلقها القرآن بهذا المعنى أحياناً على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ، ومنقادون له بحكم خلقهم ، رضوا أو كرهوا ، تسرى عليهم قوانين العالم ولا يستطيعون الخروج عليها « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه يُرْجَعُونَ » فكل من فى السموات والأرض مسلم بهذا المعنى ، أبى خاضع لأمر الله ، مطيع لما وُضع فى العالم من قوانين

ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكأن المسلم هو الذى رضى باطاعة الله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالارادة ، وقريب من هذا المعنى

قوله تعالى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » وبهذا المعنى تطلق كلمة « مسلم » على كل من خضع لله وأطاع أى نبي من الأنبياء ، فأتباع ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِنَّ الَّذِي أَلْغَىٰ إِلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ » « وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » وفي سورة يوسف « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » « فَلَمَّا أَحْسَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ آلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ »

ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَىٰ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »

فهذا الاسلام عماده الخضوع لله والاقبال له ، ولعل هذا الاسم أنسب اسم للرد

على العقلية الجاهلية ، عقلية الأئمة والحمة

تعاليم الاسلام : اذا نظرنا الى اصول الاسلام وجدناها تنقسم الى قسمين : عقائد وأعمال ، وقد تضمن أهم النوعين قوله تعالى « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »

ونحن نفضل ما جاء فيها بعض التفصيل فنقول

العقائد ، أم أصل من أصول الاسلام الاعتقاد بالله ، والاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة مبتدئية أو متحضرة من اعتقاد بالآه ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الآله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، والاسلام يصف الله بأوصاف نلخصها مما ورد في القرآن فهو ليس إله قبيلة ولا إله أمة العرب وحدهم ، ولا إله الناس وحدهم ، بل هو إله كل شئ « رَبُّ الْعَالَمِينَ » وكل شئ في الوجود مخلوقه ، وخاضع لأمره « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » « الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » « اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ »

وكل شئ من مظاهر الكون فعنه صدر « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ » « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا » « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »

قد أحاط علمه بكل شئ ، وأحاطت قدرته بكل شئ ، « وَعِنْدَهُ مَفَاحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسُ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ »

وهو إله واحد ، فليس هناك إله للخير وإله للشر ، وليس هناك إله للجمال وإله للرياح ، وليس هناك من يشاركه في ألوهيته « فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ » « وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ »

« وَاَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »

ليس لأى مخلوق ولا لأية طائفة سلطان على الناس فى عقائدهم ، ولا أية صفة من صفات الربوبية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » حتى الرسول نفسه ليس إلا مبلغاً « فَذَكَرْ لِلْإِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » وعلى الجملة فالله واحد بأتم معانى الوجدانية ، وأبسط أشكالها ، وليس يرضى الاسلام عن أى نوع من التعدد ، ولا أى رمز يشعر بالتعدد

قد اختار أفراداً من خلقه واتصل بهم بما يسمى « الوَحَى » ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ » والغرض من هذا الوحي تعليم الرسول للناس ما يعلمه الله له ، لهدايتهم الى الخير « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » « رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وهذا الوحي لم يكن عن طريق تجسد الله ، انما هو من طريق روحى لم نعلمه حق العلم « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ الْاَوْحِيَا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَكِنَّا جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدَى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » وأصول الأديان السماوية كلها واحدة وكلها تدعو الى توحيد الله وعدم الشرك به ، ثم دخل بعض تعاليمها التغيير والتبديل « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْدَأْشُرَ كَتَّ لِيَحْبِبُنَّ عَمَلُكَ »

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى ، ويومها يوم القيامة واليوم الآخر ويوم

الحساب ويوم الدين « ثُمَّ إِنَّكُمْ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » وهذا اليوم هو يوم الثبوتة على العمل الصالح، والعقوبة على العمل السيئ، وكل عمل أتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة « وَكُلٌّ لِّإِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقد جعل للمثوبة والعقوبة داران: دار المثوبة وهي الجنة ودار العقوبة وهي النار، وقد جعل في الجنة نوعان من الثواب نوع من اللذات الجسمية « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ونوع روحي وهو رضا الله والقرب منه « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ — وكذلك دار العقوبة نار حامية وسخط من الله وغضبه

وراء هذا العالم المادى عالم آخر روحي، وفيه نوعان من الأرواح، نوع خير يطيع الله ما أمره ويجذب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة، ونوع شرير يستغوى النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

الوعممال : هناك أعمال يجب على المسلم أداؤها، وهي أساسية كالعقائد، وهي الصلاة، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الاخلاص لله وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الاجلال له « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » — والزكاة — وهي أن يؤخذ من مال الغنى للفقير وللصالح العام، وقد أكد القرآن هذين الفرضين أكثر من توكيده سواهما وقرنهما ببعض في

أكثر المواضع - ثم صوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا

الافتقار - في القرآن من الأخلاق نوعان نوع هو تعليم لآداب اللياقة «وَأَذِّبْهُمْ لِيُذْهِبَ اللَّهُ مَنِئِمْ بِإِثْمِهِمْ غَيْرَ» و«لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق: وفاء بالوعد، وصبر في الشدائد، وعدل مع من أحببت أو كرهت، وعفو عند المقدرة، وعفة من غير غلو «وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِذَاءَ عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ»

هدم الاسلام الوحدة القبلية، والوحدة الجنسية، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس، وعلم ان معتنقي الاسلام كلهم كتلة واحدة، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» وفي الحديث «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَىٰ عَصِيَّةٍ أَوْ قَاتَلَ عَصِيَّةً»
حتم الطاعة لله والطاعة للرسول والطاعة لأولى الأمر في الأمة ما أطاع ولّى الأمر وأمر الله «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» وفي الحديث «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

«أُرْهِزْهُ التَّعَالِيمَ فِي الْعَرَبِ» لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلي للعرب الى درجة كبرى، فهذه الصفات التي وصف الاسلام بها الله تفتهم من عبادة

أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر ، الى عبادة إله وراه للمادة « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » ، كان الآلهة عند أكثرهم إله قبيلة وان اتسع سلطانه فالله قبائل ، أو إله العرب ، فأبانه الاسلام إله العالمين ومدبر الكون ، ويده كل شيء ، وعالما بكل شيء ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى الى فهم إله لا مادة له واسع السلطان واسع العلم — وأفهمهم الاسلام أن دينهم خير الأديان ، وأن العالم حولهم في ضلال ، وأن نبيهم هادي الناس ، جميعاً وأنهم ورثته في هداية الأمم، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم الى دينهم ، ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم — وكان العقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل نشر الدعوة « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

كان للاسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالامس — وقد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم صعوبات كبرى في نقلهم من عقليتهم الجاهلية الى عقليتهم الاسلامية، تجدها مبسطة في كتب السيرة ، كما احتمل المسلمون السابقون من العذاب كثيراً فعن ابن عباس « والله ان كان المشركون ليضربون أحدهم ويبيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آلات والعزى الهلك من دون الله فيقول نعم » الخ حتى اضطر كثير منهم بعد خمس

سنوات من الدعوة أن يهاجروا الى قطر نصراني وهو الحبشة يلجئون اليه ، فهاجر نحو مائة ممن أسلم وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم في مكة مع عدد قليل من أصحابه ، ولم ينتشر الاسلام وبعبارة أخرى لم تنتشر العقلية الجديدة الا بعد الهجرة الى المدينة وانهزم قريش حريباً - وحقاً أن هذا النزاع بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش أولاً ثم بين المدنيين والمكيين ثانياً ثم بين من دخلوا من العرب في الاسلام ومن لم يدخلوا انما هو نزاع بين عقليتين ، عقلية وثنية تباح فيها اللذائذ ، وتمنح فيها الحرية الى حد بعيد ، وتقدر فيها الأخلاق تقديراً خاصاً ، وعقلية أخرى موحدة تداس فيها الأصنام دوساً ، وتمتن بكل أنواع الامتهان ، وتكسر من غير هوادة ، ولا تباح فيها اللذائذ الا بمقدار وتدفع فيها الضرائب ليصرف منها للفقراء وللصالح العام ، وتقيد فيها الحرية بجملة قيود : عبادات في أوقات خاصة ، واحترام ملكية ، واحترام نفوس ، وتقلب فيها قيمة الأخلاق قلباً ، فالانتقام والأخذ بالنار لم يعد خير الخصال ، وهلم جرا ، وقد عبر خير تعبير عن الفرق بين الحالتين ما روى أن جعفر بن أبي طالب - وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة - قال للنجاشي وقد سأله عن حالهم « كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، وتقطع الأرحام ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاثوان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل

من الخباثت ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادنا» (١)

وهذه القصة وان كان يغلب على الظن انها موضوعة بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع الا بعد الهجرة الى الحبشة ، و بغير ذلك من الأدلة فهي تمثل النزاع بين العقليتين أصدق تمثيل .

وقد عقد الأستاذ « جولد زيهر » فصلا في نقط النزاع بين الاسلام والفضائل عند العرب في الجاهلية عنوانه « بالدين والروءة » وهو يتلخص في أن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان ، فالشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والأخذ بالثار ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية — أما في الاسلام فالخضوع لله والالتقاد لأمره والصبر ، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة ، هي المثل الأعلى للانسان في الحياة

وان شئت أن تقارن بين مارسمه الاسلام من مثل أعلى في الحياة وما رسمته الجاهلية من ذلك فاقرأ قوله تعالى

« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

البَّاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»

ثم اقرأ ماجاء في معلقة طرفة

إذا القوم قالوا من قتي؟ خلت أني
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت^(١)
فذالت كما ذالت وليدة معشري
ولستُ بحلال التلاع مخافة^(٢)
وان تبغى في حلقة اليوم تأنى
مقي تأتي أصحك كاساً روية^(٣)
وان تلتقي القوم الجميع تلافني
ندامى ييض كالنجوم وقينة^(٤)
عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلد
وقد خبَّ آل الأعمز المتوقد^(٥)
تُرى ربها أذيال سحلٍ ممدد^(٦)
ولكن متى يستفيد القوم أرفد^(٧)
وان تفتنصني في الحوانيت تصطد^(٨)
وان كنت عنها ذا غنى فاغن وأزدد^(٩)
الى ذروة البيت الرفيع المصمَد^(١٠)
تروح علينا بين بُردٍ ومجسد^(١١)

الى أن يقول

فلولا ثلاث هن من عيشة الفئى
فمنهن سبغى العاذلات بشربة^(١)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب^(٢)
وجدك لم أحفل متى قام عودى
كميت متى ما تمل بالماء تزبد^(٣)
ببهكنة تحم الخبياء المعمد^(٤)

(١) أحلت وثبت والقطيع السوط وأجذمت أسرع وخب ارتفع وآل السراب وقيل ما كان منه أول النهار ، والاعمز الارض الفليضة التي فيها حصى والتوقد المشتل يقول وثبت على نافي بالسوط فأسرعت وقد ارتفع آل هذه الصحراء

(٢) ذالت تبخرت ، والوليدة الفتية ، والسحل الثوب من القطن ، يقول أن نافته تبخرت في مشيتها كالفتاة تمشى أمام سيدها تبخرت وتجر أذيالها

(٣) التلاع هنا الاراضى المنخفضة وكفى بحلال التلاع عن البخيل لانه يسير حيث لا يراه أحد

(٤) يريد بمخلة القوم مجلس اشراقهم وبالحوانيت بيوت الحمارين

(٥) الندامى الاصحاب على الحجر والقبنة الجارية والبرد الابيض والمجسد المصبوغ بالجساد

وهو الزعفران

(٦) الدجن النيم ، والبهكنة الحساء الخلق

كَانَ الْبُرَيْنَ وَالِدَ مَالِيحٍ عَلَّقَتْ عَلَى عَشْرِ أَوْ خَرَوْعٍ لَمْ يُخْضِرْ (١)
وَكُرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحْنَبًا كَسِيدِ الْغَضَاذِي السُّورَةَ الْمَتُورِدَ (٢)

وهكذا المثل الأعلى للحياة الجاهلية ، فخر بالنجدة ، وفخر بالكرم ، وفخر
بمجالسة عليّة القوم وفي حانات الخمر ، وتمتع بالشراب حوله الندامى والقيان ، وهذا
كل شيء في الحياة

وبعد فالى أى حد تأثر العرب بالاسلام ؟ وهل امتحت تعاليم الجاهلية ونزعات
الجاهلية بمجرد دخولهم فى الاسلام ؟ الحق أن ليس كذلك ، وتاريخ الأديان والآراء
يأبى ذلك كل الآباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث
يستمر طويلا ، ويحل الجديد محل القديم تدريجاً وقل أن يتلاشى بتساتا ، وهذا
ما كان بين الجاهلية والاسلام ، فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين الى حين
وتحارب نزعات الاسلام ، وظل الشأن كذلك أمداً بعيداً ، ولنقص طرفاً من مظاهر
هذا النزاع

جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة ، والتعصب للجنس ، ويدعو الى
أن الناس جميعاً سواء « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » وفى الحديث
« المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم »
وخطب النبي صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « أيها الناس ان الله تعالى أذهب
عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى
على عجمى فضل إلا بالتقوى » وروى « مسلم » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) البرين الخلاخيل والحروع كل نبات قصيف ريان ولم يخضد لم يكسر

(٢) المضاف الملجأ والحنب النحنى من الهزال والسيد الذئب والغضا نوع من الشجر والسورة

الوثبة والمتورود الوارد

« من قاتل تحت رايةٍ عَمِيَّةٍ ^(١) يفضب لعصية أو يدعو الى عصية أو ينصر عصية فقتل قتل قِتْلَةَ جاهلية » وأخى رسول الله بين المهاجرين والانصار بعد ما كان بين المكيين والمدنيين من عدا.

ومع كل هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة اذا بدا ما يهيجها : انظر الى ما روى في غزوة بنى المصطلق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في جماعة من المهاجرين والانصار ، فَكَسَعَ ^(٢) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فكان بينهما قتال ، الى أن صرخ يامعشر الأنصار ، وصرخ المهاجر يامعشر المهاجرين ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما لكم ولدعوة الجاهلية ؟ فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها فإنها منتنة ، فقال عبد الله بن أبي بن سؤل « لئن رجعنا إلى المدينة ليخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » ^(٣)

أفلمت ترى أن نزاعا تافهاً لسبب تافه هيج النفوس ودعاهم الى النزعة الجاهلية وتذكر العصبية المكية والمدنية

ولما ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية الى حالها كما كانت في الجاهلية ، وكان بينهم وبين بنى هاشم في الاسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ، فخر الأمويون بالدهاء والحلم ، وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم يكاثرونهم في ذلك ، وكان جدالهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة في الجاهلية ^(٤) وعاد النزاع في الاسلام بين القحطانية والمدنانية ، فكان في كل قطر عداة وحروب بين النوعين ، واتخذوا

(١) العمية الضلالة

(٢) كسع الرجل ضربه بيده على ظهره أو نحو ذلك

(٣) تفسير الطبري جزء ٢٨ ص ٧٣

(٤) أنظر ما افتخر به كل في شرح ابن أبي الحديد جزء ٣ ص ٤٧٦ وما بعدها

في كل صقع أسامى مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزدِ وتميم ، والأولون
يمينيون والآخرون عدنانيون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والأولون
يمينيون والآخرون عدنانيون ، ومثل ذلك في الاندلس ، ومثل ذلك في العراق ، حكى
ابن أبي الحديد أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج
من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادى باسم قبيلته : يا لنتخع أو يا لكينة
فيتألب عليه فتیان القبيلة التي مر بها فينادون : يا تميم ويا لربيعة ، ويقبلون الى ذلك
الصالح فيضربونه ، فيمضى الى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة (١)
ويطول بنا القول لو أنا شرحنا ما كان من حروب بين القبائل يرجع أصلها الى
العصبية الجاهلية

وأنت اذا نظرت الى الشعراء في بنى أمية وجدت فيهم هذا المعنى واضحا جلياً
فالشعراء انحازوا الى قبائل ثم أخذوا يُشيدون بذكر قبائلهم ، ويهجون غيرهم ،
شأن شعراء الجاهلية ، ولعل أصدق مثل لذلك ما ترى في هجاء جرير والفرزدق
بوالأختل .

ليست ناحية العصبية هي وحدها ما يظهر لنا في عهد الاسلام من نزعات
جاهلية فهناك نزعات أخرى لا تقل عنها وضوحاً
من ذلك حروب الردة ، وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة
للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا اليها نظرم الى قبيلة تتسلط على أخرى
وتضرب عليها الاتاوة ، فانتهزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبروا عن شعورهم
الجاهلي برفض دفعها لأبي بكر ، وفي هذا يقول قرّة بن هبيّرة لعمرو بن العاص
« يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاتاوة ، فان أعفيتها موها من أخذ أموالها

فتسمع لكم وتطيع ، وان أيتم فلا تجتمع عليكم » وقد عجزوا عن أن ينظروا الى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصالح العام ، وهو ما يرمى اليه الاسلام أضف الى ذلك أن بعض المسلمين وخاصة من سكان البادية كانوا ينزعون في معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجرة وحمية وشراب ونحو ذلك . روى أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة لأنه كان يقول الهجر ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم ، ثم أطلقه ، فلما وكى ناداه فرجع ، فقال عمر كأنى بك يا حطيئة عند قتي من قريش قد بسط لك نمرقة^(١) وكسر لك أخرى ثم قال غننا يا حطيئة : فطقت تغنيه بأعراض الناس ، قال زيد بن أسلم ، ثم رأيت الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نمرقة وكسر له أخرى ثم قال تغنينا يا حطيئة وهو يغنيه ، قتلت يا حطيئة أما تذكر قول عمر ؟ ففزع وقال رحم الله ذلك المرء ، أما لو كان حياً ما فعلنا هذا

بل كثير من شبان بنى أمية وبعض شباب بنى هاشم كانوا يعيشون عيشة هي الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد بن معاوية وصحبه فقد حكى المسعودي « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب — وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله »

ان شئت فاقرا سيرة الوليد بن عقبة الأموي وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من فتيان قريش وشعراتهم وشجاعتهم وأجوادهم ، وولى الكوفة لعثمان ، تر حياة لم يؤثر فيها الاسلام كثيرا ، يتهتك في الشراب ، ويتخذ بيته ملجأ للمراق من أهل العراق ، الى غير ذلك من كرم جاهلي وعصبية جاهلية^(٢)

(١) النمرقة الوسادة

(٢) اقرأ سيرته في الجزء الرابع من الاغانى والسادس من كتاب الاصابة لابن حجر

بجانب هذا ترى قوما صبغهم الاسلام صبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين، كالذى ترى في سيرة أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة، ورع وزهد وتواضع والتزام شديد لأوامر الدين، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهلياً ينافي الاسلام، وتجد في خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الاسلام بَيِّنًا، حتى كأنهم خلقوا في الاسلام خلقاً جديداً

الحق أن النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية كان شديداً وكان عهده طويلاً، وان الاسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السواء، بل أن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار، أولئك وصل الدين الى أعماق نفوسهم، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره، فأما من أسلموا يوم الفتح— أو بعده— وظلوا على كفرهم وعتادهم حتى رأوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصر فلم يسعهم إلا الاسلام فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً «لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى» — وبحق قسم المؤرخون الصحابة الى طبقات حسب مراتبهم أوصلها بعضهم الى اثنتي عشر طبقة آخرهم من أسلم يوم الفتح (١)

كذلك كان سكان المدن والقرى بل من دخل في الاسلام بعدُ من الأمم الأخرى أكثر تديناً وأعرف بأحكام الاسلام من كثير من سكان البادية، جلس اعرابي الى زيد بن صوحان وهو يتحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم هَكَوْنَا فَقَالَ وَاللَّهِ إِنْ حَدِيثِكَ لِيَعْجِبُنِي وَأَنْ يَدُكَ لَتَرِيْنِي (يريد أنه يخشى أن تكون قد قطعت في سرقة) فقال زيد وما يرَيبك من يدي؟ أنها الشمال، فقال الاعرابي والله ما أدري آليين يقطعون أم الشمال فقال زيد بن صوحان صدق الله «الأعرابُ

(١) أنظر تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٦٣ وقد زاد عليها طبقة وهم الصبيان

أشدُّ كُفْرًا ونفاقًا وأجدرُّ ألاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ » ويقول الطبري في تفسيره هذه الآية « الاعراب (وهم من نزلوا البادية) أشد جحودًا لتوحيد الله وأشد نفاقًا من أهل الحضرة فى القرى والامصار ، وانما وصفهم جل ثناؤه بذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وقلة مشاهدتهم لأهل الخير ، فهم لذلك أفسى قلوبًا وأقل علمًا بحقوق الله »

فكثير من هؤلاء الاعراب كانت معرفتهم بالاسلام سطحية : كانوا يعكفون على الشراب ، ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، ويعقدون أوثيقهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم فى الاسلام كما كانوا يفعلون قبل الاسلام ، فأما الاسلام الحق والعقلية المسلمة فكانت أظهر فى المدن وخاصة فىمن أسلموا قبل الفتح ، وكانت كذلك فىمن أخلص للدين من أهل المدن التى فتحتها المسلمون

اذن كان فى العصور الاولى للاسلام نزعات جاهلية ونزعات اسلامية كانتا تسيران جنبًا الى جنب ، والذى يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت فى الأدب الأموى وخاصة الشعر أكبر أثر ، فالعانى الجاهلية والهجاء الجاهلى والقصر الجاهلى والحمية الجاهلية كلها واضحة أجلى ووضوح فى الشعر الأموى ، فأما النزعة الاسلامية فظهرت فى العلوم الشرعية ، فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمدون منهما الأحكام ، ويستخرجون المواعظ ، وهذا هو موضوعنا وهو ما سنبينه بعد ، وسندكر عند الكلام على الحركة العلمية أثر الاسلام فى العلم

الفصل الثاني

الفتح الاسلامي ، وعملية المزج بين الامم

ستجد الكلام على الفتح الاسلامي مفصلا في القسم الخاص بالحياة السياسية من كتابنا ، واما نعرض هنا في مسألة الفتح لما كان له اتصال بحياة المسلمين العقلية والدينية ، وبعبارة أخرى لما كان له تأثير في العلم أو في الدين من طريق مباشر أو غير مباشر

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتعد الاسلام جزيرة العرب ، وكان قد بدأ بدعوة الأمم المجاورة ومناوشتها ، ثم تتابعت الفتوح بعدُ ، ففتح العراق وكان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر ، وبعض من الفرس ، عداسكان البلاد الأصليين ، وكان منهم نصارى ومنهم مَزْدَكِيَّةٌ و زَرَادُشْتِيَّةٌ ، وانشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة ، أمر عمر بن الخطاب بانشاءهما « لما رأى أن مناخ المدائن والقادسية لم يوافق مزاج العرب ، فأمر أن يُرتاد موضع لا يفصله عن جزيرة العرب بر ولا بحر » ، وكان الفرض منهما أن يكونا معسكرين يشمّ منهما العرب هواء الصحراء ، ويتجنبون بهما وخم المدن ، فانشئت البصرة نحو سنة ١٥ هـ والكوفة سنة ١٧ هـ سنة ٦٣٨ م

وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس وقليل من اليهود وبعض الروم

« الرومانيين » الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية

وفتح الشام ، وكان — قديما — قد تداولت عليه الأمم المختلفة ، والمدنيات

المختلفة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ، وغزاه فراعنة مصر واليونان والرومان
وعرب غسان ، وأخيراً كانت أقلية رومانياً يتدقف بثقافة الرومانيين ، ويتدين
بالنصرانية دينهم ، ففتحه الاسلام وقد ورث كثيراً من مدينت الأُمم الغابرة
وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح السوربون — أهل البلاد — والأرمن
واليهود وبعض من (الروم) الرومان وبعض قبائل عربية ، وكان من أشهر هذه
القبائل غسان وَلَحْمٌ وَجُدَامٌ وَكَلْبٌ وَقُضَاعَةٌ وَطَائِفَةٌ مِنْ تَعَلَبٍ ، وكأوا في القسم
الجنوبي من الشام أكثر منهم في القسم الشمالي ، بحكم الجوار لبلادهم ، وكان هؤلاء
العرب يتكلمون لغة هي مزيج من الآرامية والعربية ، وكانوا يعدون أنفسهم شاميين
لا تربطهم بعرب الحجاز الا العلاقات التجارية ، وقد وقفوا بجانب الرومان في محاربة
المسلمين عند الفتح» (١)

وفتحت مصر مهد المدينة القديمة ، والوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان
والرومان ، وبها الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية وملتقى الآراء
الشرقية والغربية — وكان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ،
وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش الى مضيق جبل طارق
وكانت كذلك في يد الرومان

وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند و بخرى و خوارزم و سمرقند الى
كاشغر ، وفتحت كذلك الاندلس ولكن لم يظهر أثر فتحها في عصرنا الذي
اخترناه لبحثنا

سبب فتح العرب لهذه الممالك عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم
المتوحدة ، مزج في الدم ومزج في النظم الاجتماعية ، ومزج في الآراء العقلية ، ومزج

(١) دائرة المعارف الاسلامية في مادة الشام

في العقائد الدينية ، وقد عمل على هذا المزج جملة أمور أهمها :

(١) تعاليم الاسلام في الفتح (٢) دخول كثير من أهل البلاد المفتوحة في الاسلام (٣) الاختلاط بين العرب وغيرهم في سكنى البلاد ، وسنقول كلمة مختصرة عن كل منها

تعاليم الاسلام في الفتح : تقتضى تعاليم الاسلام بأنه اذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم — أولاً — أن يدعو أهله الى الدخول في الاسلام ، فان أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ، جاء في الحديث « أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله » وان لم يُسلموا دعومهم الى أن يُسلموا ببلادهم للمسلمين يحكونها ، ويبقوا على دينهم إن شاءوا ، ويدفعوا الجزية ^(١) فان قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ، ومن أجل هذا يسمون « أهل الذمة » ^(٢) — وان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا ، وفي أثناء القتال يحل للمسلمين أن يقتلوا المحاربين أو من يعين على الحرب ، فأما المرأة والطفل والشيخ الفاني والأعمى والمقعّد ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، ما لم يكن أحدهم ذا رأى في الحرب يُؤلَّب على المسلمين ، كما فعل رسول الله بدرِّيد بن الصَّمَّة فقد قتله يوم حُنين وهو شيخ كبير ضرير لأنه كان

(١) يراد بالجزية ضريبة على الرأس يدفعها غير العرب الوثنيين من نصارى ويهود ومجوس وصابئة يدفعها الرجال فقط لا النساء ولا الصبيان ولا من في حكمهم ، وتدفع تهاداً أو متاعاً كسياب ونحوه ، وقد كانت الجزية المعتادة ديناراً عن كل شخص في السنة أو ١٢ درهما ثم صار هذا بعد هو الحد الأدنى فكانوا يأخذون دينارين أو ٢٤ درهما وأحياناً على الغنى ٤ دنانير واذا لم يدفع الجزية جوزى بالحبس — أما الضريبة على الارض فتسمى الخراج

(٢) هذا في غير عبدة الاوثان من العرب أو المرتدين عن الاسلام فهؤلاء لا تهبل منهم

الجزية بل يخبرون بين الاسلام والقتال فقط

يدبر لقومه ويؤلبهم على المسلمين — وان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجبوا إليه متى رأى الامام ذلك « وان جَنَحُوا لِّلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لها » ووجب اذ ذلك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا ، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب ، وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب ، فأما الأسرى فانا نجد أنه ورد فيهم في القرآن « حَتَّى إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » وهي تدل على أن ليس للامام في الاسرى الا أن يمن عليهم ويطلقهم ، أو يأخذ منهم مالا فدية لهم ، أو يشتدى الرجل المحارب بالرجل المسلم — ولكننا نجد من ناحية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل أحد هذين الأمرين أحيانا ، وكان يقتل الأسير أحيانا ، ويسترق أحيانا ، ففي يوم بدر قتل عقبة بن أبي معيط وقد أتى به أسيراً ، وقتل بنى قُرَيْظَةَ وقد نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة من المسلمين أسارى للمشركين الذين أسروا بيذر ، ومن على عمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده ، واسترق ذراري نبي قُرَيْظَةَ ، واسترق نساء هوازن وذراريهم — كل هذا جعل أئمة الفقهاء يختلفون في حكم الأسرى ، والذي يظهر لى أن هذه الأمور الأربعة متروكة للامام يتصرف في كل حالة حسب ما يحيط بها من ظروف مشددة أو مخففة — روى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز قال ما رأيت عمر رحمه الله قتل أسيراً إلا واحداً من الترك ، كان جيء بأسارى من الترك فأمر بهم أن يسترقوا فقال رجل ممن جاء بهم يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا — يشير الى أحدهم — وهو يقتل المسلمين لكثير بكاؤك عليهم ، فقال عمر فدونك فاقتله ، فقام اليه فقتله (١)

وأما أهل البلد المفتوح غير المحاربين فالامام مخير بين استرقاقهم وتركهم

أحراراً يدفعون الجزية ، ولكن عمر— واليه المرجع في كثير من هذه المسائل — ترك أهل سواد العراق أحراراً ، وفرض على كل شخص من الموسرين في العام ثمانية وأربعين درهما وعلى غير الموسرين أربعة وعشرين^(١)

وإذا استُرِقَ الاسرى أو أهل البلد المفتوح وزعت توزيع الغنائم ، فُتخَمَسَ ، ومعنى التخميس أن يعطى خمسها لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس تعطى للغائبين ، للراجل سهم وللفارس سهمان

فترى من هذا أن الفتح الاسلامي كان يستتبع رقاً ، وهذا الرق هو الذي كان له الأثر الأكبر في عملية المزج ، ولهذا كان لا بد فيه من كلمة خاصة

كان الرق نظاماً شامعاً في العالم ، وكل ما كانت تحتلف فيه الأمم حسن معاملة الرقيق أو سوءها ، فكان اليهود يسترِقون ، وقد أمرت الديانة اليهودية بحسن معاملة الرقيق ، وحددت زمن الاسترقاق بسبع سنين يصبح الرقيق بعدها حراً ، واسترق اليونان في تاريخ يطول شرحه ، واسترق الرومان ، وقد منح القانون الروماني للمالك الحق في اماتة عبده أو استحياؤه ، وجعله مستبداً غير مسئول عن تصرفه في عبده ، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية يبلغون في العدد ثلاثة أمثال الاحرار ، وأخذت أحوال الارقاء تتعدل من حيث المعاملة ومن حيث القانون من القرن الثاني للمسيح

وكان العرب في جاهليتهم يغزو بعضهم بعضاً ، ويستولون على رجال بعضهم ونسائهم فيكونون أرقاء ، وكان لهم أسواق يباع فيه الرقيق ، جاء في « أسد الغابة » أن زيد بن حارثة مولى رسول الله كان من قضاة ، وأمه من طيء ، أصابه سبب في الجاهلية لأن أمه خرجت تزور قومها « بنى معن » فأغارت عليهم خيل « بنى القين

(١) أنظر في هذا المبسوط والام وفتح القدير وتاريخ الطبري

ابن جَسْر « فأخذوا زيدا فقدموا به سوق عُكاظ ، فأشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وهي وهبته لرسول الله فأعتقه » الى آخر ما ذكره
وفي الحديث عن علي رضي الله عنه قال « خرج عبدان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّة قبل الصلح ، فكتب اليهم مواليهم يقولون يا محمد والله ما اخرجوا اليك رغبة في دينك ، وانما هربوا من الرق ، فقال ناس رُدِّم اليهم ، فغضب صلى الله عليه وسلم من ذلك . . . وأبى أن يردم »^(١) - وكان هؤلاء الارقاء في الجاهلية وعلى عهد رسول الله منهم عرب كما بينا ، ومنهم غير ذلك سود وبيض ، وكان هؤلاء البيض من الممالك التي حول جزيرة العرب ، وكثير من الصحابة جرى عليهم الرق كبلال وكان حبشياً ، وسلمان وكان فارسياً ، وصُهَيْب وكان يلقب بالرومي « لأن الروم أسرته من الأيالة ونشأ بالروم » الخ وأهدى رسول الله حسان بن ثابت « سيرين » وكانت أمه قبطية فولدت عبد الرحمن بن حسان «
وقد اتبع نظام الاسترقاق في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكان من أسرف في الغزوات يجوز استرقاقه ، كالذي كان في غزوة بني المصطلق ، جاء في سيرة ابن هشام « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم (من بني المصطلق وهم عرب من خزاعة) سبباً كثيراً فشا قسمه في المسلمين

ولما انتشر الاسلام لم يعد يقبل من العربي الا الاسلام أو القتال ، فأصبح غير محل للاسترقاق ، حتى لو وقع أسيراً فأما أن يسلم وأما أن يقتل
ولما كثرت الفتوح كثرت الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة ، ووُزِع المسترقون رجالاً ونساء وذراري على العرب الفاتحين ، حتى يروى المسعودي أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة

(١) أخرجه أبو داود والترمذي

وهذا الرقيق يعد مملوكا للسيد كالمتاع له الحق في بيعه وهبته وإذا كان أمةً جاز
للسيد أن يستمتع بها

ولا يقيد الملك بعدد ، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد ، كما يصح
أن يكون في بيته عدد من الأماء ، وإذا ولدت الأمة من سيدها فالولد ابنه وتسمى
هي « أم ولد » له ، وتبقى ملكا له بعد ولادتها يستمتع بها ، ولكن لا يجوز له أن يبيعهما
أو يهبها ، وإذا مات عنها فهي حرة

وقد أوجب الاسلام حسن معاملة الرقيق ، وجبب الى المالك العتق ، وجعله
كفارة عن كثير من الجرائم

وللمالك أن يعتق عبده أو أمته أى أن يرد له حرية ولكن تبقى هناك صلة
بين المعتق والمعتق وهذه الصلة تسمى « الولاء » ويظل المعتق يُنسب الى من
أعتقه فيقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله أى عتيقه وان كانت أثنى فهي مولاته
والجمع موالٍ ، وإذا كان المعتق من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون
مولى بنى هاشم ، أو مولى كعيف ، وأحيانا يعبرون عن ذلك بقولهم الهاشمى بالولاء ،
أو الأموى بالولاء ، وهكذا ، ويظهر أثر هذه الصلة فيما إذا مات المعتق من غير وارث
فإن المعتق يرثه

وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق وإنما سببه أن يسلم رجل على يد
رجل آخر ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له (١)

(١) هذه المعاني التي ذكرناها هي المعاني الدقيقة لكلمة مولى ، وقد يطلق بمعنى أوسع من
ذلك ، فكثير من كتب الادب والتاريخ في كثير من المواضع تطلق كلمة الموالى على كل من دخل في
الاسلام من غير العرب سواء استرق أو لم يسترق ، بل ورد هذا الاستعمال نفسه في كتب الفقه
أيضاً ، جاء في الزيلعي « وسمى المعجم موالى لان بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب ، وكان للعرب
استرقاقهم فإذا تركوهم أحراراً فكأنهم أعتقوهم ، والموالى هم المعتقون »

هذا هو نظام الولاء من الوجهة القانونية ، أما تاريخياً فيظهر أن الولاء لم يكن له هذا المعنى عند العرب في الجاهلية وإنما كان يطلق « موالى الرجل » على خلفائه وعلى ورثته من بنى عمه وأخوته وسائر عصبته ، جاء في تفسير الطبري « قال ابن زيد في قوله تعالى « ولكلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ » قال الموالى العصبه ، هم كانوا في الجاهلية الموالى ، فلما دخلت المعجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً فقال تبارك وتعالى « فإن لم تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » فسموا الموالى ، قال والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهو لاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث فهو لاء العتاقة » فظاهر من قوله أن اطلاق الموالى على هذه الأعاجم معنى مستحدث في الاسلام ، والظاهر أنه استعمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى ، فقد كانوا يطلقون على زيد بن حارثة مولى رسول الله ، ووردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى مثل « نهى رسول الله عن بيع الولاء » « والولاء لُحْمَةٌ كَلْحَمَةِ النِّسْبِ » الخ فلما كثرت الرق والعتق كثرت استعمال الموالى بمعنى المعتقين — وقد تأثر الموالى بالعصبية العربية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون إليها ، ويحاربون معها ، ويستخدمون في شؤونها ، ومع أن الاسلام يدعو الى أن المسلمين كلهم سواء فقد كان العرب وخاصة في السوله الأموية ينظرون اليهم نظرة فيها شيء من الازدراء ، مما أدى الى كراهية الموالى للامويين وتكوين عصبية لهم ، جاء في تاريخ الطبري في ثورة المختار « التقى أشراف الناس بالكوفة فأرجفوا بالمختار ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا ، فغلمهم على الدواب وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ، فَحَرَبَ ^(١) بذلك أيتامنا وأراملنا . . . ثم قال أنهم بعثوا اليه سَبْتٌ بن رِبْعِيٍّ فقال له عمدت الى موالينا وهم في أفاءه الله علينا وهذه

البلاد جميعاً ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاء في فيئنا » الخ ولعل هذه القصة أصدق ما يرينا نظرة العربي اذ ذاك الى مواليه ، وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد أن معاوية قال انى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى من الفرس والروم) قد كثرت . . . وكأنى أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيتُ أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق . . . ثم عدل عن ذلك (١)

هذا النظام الذى ذكرت من رِق وولاء كان له أكبر الأثر في الحياة العقلية ، فكثير من رجال البلاد المفتوحة ونسائهم وزعوا — كأنهم غنائم — على الجيش العربى ، فكان لكل جندى تقريباً عبيد وأماء يستخدمهم فى حوائجهم ، ويستولد الاماء ان شاء ، فنتج من هذا أن البيت العربى دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية ، فلم يعد البيت العربى بيتاً عربياً بل بيتاً مختلطاً ورب البيت هو العربى — أضف الى هذا أن هؤلاء الأماكن يلدن أولاداً يحملون الدمين معاً ، الدم العربى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم ، وكان عدد هذا النوع كثيراً لكثرة الفتوح التى فتحتها المسلمون فى عهد عمر ومن بعده ، وكثير من هذه البلاد فتحت عنوة فكان أهلها وغزاتها عرضة للاسر والسبي ، حتى أكبر الاسر وأعظمها جاهها ، ذكر « الزمخشري » فى كتابه « ربيع الأبرار » « أن الصحابة رضى الله عنهم لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد (ملك الفرس) فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً فقال له على بن أبى طالب : أن بنات الملوك لا يعامكن معاملة غيرهن من بنات

السُّوقَة ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن ؟ قال يُقَوِّمُن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فُقُوِّمُن ، فأخذهن على بن أبي طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله ولده سالمًا ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وأمهاتهم بنات يزجرد « ويشك بعض الباحثين في نسبة هؤلاء البنات الى يزجرد ، ولكن يظهر أن ليس هناك شك في أنهن من خيرة بنات الفرس ، جاء في كتاب الكامل للبرد « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا فرغب الناس في السَّراري »

هؤلاء الأرقاء والموالي أنتجوا في الجيل الثاني لعهد الفتح عددًا عديدًا ، منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين ، ومن حملة لواء العلم في الاسلام ، وسنبين ذلك عند الكلام على الحركة العلمية

دخول البصرة المفتوحة في الموسم : هذا هو العامل الثاني من عوامل المزيج ، فقد دخل في الاسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة ، وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم ، جاء في فتوح البلدان للبلاذري « أن أبر ويز كان وجه الى الديلم فأتى بأربعة آلاف ، وكانوا خدمه وخاصته ، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده ، وشهدوا القادسية مع رستم ، فلما قتل وانهزم الجوس اعتزلوا ، وقالوا ما نحن كهؤلاء ، ولا لنا ملجأ ، وأترُّنا عندهم غير جميل ، والرأى لنا أن ندخل معهم في دينهم ، فنَعَزَّ بهم ، فاعتزلوا فقال سعد ما هؤلاء ؟ فاتاهم المغيرة بن شعبية فسألهم عن أمرهم ، فأخبروه بخبرهم ، وقالوا ندخل في دينكم ، فرجع الى سعد فأخبره فأمنتهم ، فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جُلُولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع

المسلمين»^(١) الى كثير من أمثال ذلك ، وقد كان الباعث للناس على الدخول في الاسلام مختلفا ، فمنهم من دخل فيه مؤمناً بحسن مبادئه وصدقها ، وساعد على ذلك بساطة العقيدة الاسلامية وسهولة فهمها ، ومنهم من دخل فيه فراراً من الجزية ، لما علمت أن من رضى أن يبقى على دينه تضرب عليه الجزية ، فاذا أسلم رفعت عنه ، حتى لقد هال بعض الأمراء دخول الناس في الاسلام فراراً من الجزية وكتبُ عمال الحجاج اليه « أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار » فأخذ الحجاج منهم الجزية مع اسلامهم ، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون^(٢) — ومنهم من كان يسلم فراراً مما يشعر به من المهانة ، فالاسلام هو دين الحكام والولاة ورجال الدولة ، وهو الدين الذى يعتز به من اتسب اليه وغيره من الأديان كان مكروهاً ممتوتاً في الدولة ، وأن أبيع لمعتنقيه أن يأتوا بشعائره ، أضف الى ذلك أن بعض الولاة لم يكن يرعى تعاليم الدين وتسامحه في الذميين ، فكان يسومهم سوء العذاب ، فاضطروا أن يفروا من دينهم الى الاسلام

الامتزاج في السكنى : هذا هو العامل الثالث في الامتزاج — بعد الفتح

صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعاً ، واشتركوا في الحركة الاجتماعية والاقتصادية ، يقول « ولِهَوْسِنُ Wellhausen » أن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ثم دخلوا في الاسلام ثم اعتنقهم مالكوم العرب ، فكانوا موالى لهم ، وبذلك صاروا أحراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية ساداتهم ، فهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب » وكذلك سائر البلاد أصبح فيها العنصر العربى والعنصر الأجنبى متمزجين

(١) فتوح البلدان ص ٢٨٠ طبع أوروبا (٢) ابن الامير جزء ٤ ص ١٧٩

تمام الامتزاج ، في فارس والشام ومصر والمغرب ، حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب ، بل صارت جزيرة المسلمين جميعاً ، فقد كانت « المدينة » مقر الخلافة في عهد الفتوح الكبرى — عهد عمر — فكان يقصدها الرسل وذوو الحاجات من الأمم الأخرى . ويأتى إليها الأسرى ، لأن تعاليم عمر كانت تقضى ألا توزع الغنائم والسبي في البلاد المفتوحة ، انما يؤتى بها الى مقر الخلافة ثم توزع ، فامتلات المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية ، وكانت مكيدة قتل عمر مدبرة من بعض سكانها من الفرس ، ومنفذهها أبو لؤلؤة الفارسى ، أضف الى هذا أن مكة والمدينة كانتا مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين في الاسلام من بقاع الأرض — وهذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين ، تختلط فيها العناصر المختلفة ، وشأنها في ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة ، وليس من فارق الا أن العنصر العربي في جزيرة العرب أكثر والعنصر الاجنبى في الممالك المفتوحة أعظم

كل هذه العوامل التي ذكرناها كان لها أثرها في الامتزاج ، فالعادات الفارسية والرومانية امتزجت بالعادات العربية ، وقانون الفرس والقانون الرومانى امتزج بالأحكام التي أوضحها القرآن والسنة ، وحكم الفرس وفلسفة الروم امتزجت بحكم العرب ، ونمط الحكم الفارسى ونمط الحكم الرومانى امتزج بنمط الحكم العربى ، وبالأجمال كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية تأثرت تأثراً كبيراً بهذا الامتزاج

واذ كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظماً اجتماعية كان من الطبيعى أن تسود مدينتهم وحضارتهم ونظمهم ، واذا كان العرب هم العنصر القوى الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، فسادت في البلاد المفتوحة

النُّظْمُ التي كانت متبعة من قبل الفتح ، كنظام الدواوين ونحوه ، وأُقرَّ على ما كان عليه حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وليس موضوعنا هنا هذه النظم الاجتماعية والسياسية وانما موضوعنا « الحياة العقلية » وكان شأنها شأن النظم ، فهذا الامتزاج كان لِقَاحًا بين العقل العربي والعقل الأجنبي أنتج بعد قليل من الزمان

دخل كثير من هؤلاء المغلوبين في الاسلام ولم حكمة وأمثال وشعر وأدب ، وبعضهم لهم علوم مدونة وكتب مطولة ، قد مروا على تدوين العلوم والبحث العلمي فلما استقروا في الاسلام واطمأنوا اليه أخذواهم وأبناءؤهم يطبقون منهاجهم العلمي الذي ألفوه وألفه آباؤهم كما سنوضحه بعد

حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من تأثر بهذا الامتزاج . أتظن أن الفارسي أو السورى النصراني أو الروماني أو القبطي اذا دخل في الاسلام انحصت منه كل العقائد التي ورثها من آبائه وأجداده قرونا ، وفهم الاسلام كما يريد الاسلام من تعاليمه ؟ كلا . لا يمكن أن يكون ذلك وعلم النفس يأباه كل الاءاء ، فللفارسي صورة للاله غير صورة النصراني الروماني وهما غير صورة النصراني المصري وللألفاظ المستعملة في الديانات كجهنم والجنة وابليس والملائكة والآخرة والنبي ونحو ذلك معان عند كل من هؤلاء تحالف المعاني التي يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام من الأمم الأخرى فهموه بخدافيره كما فهمه العربي ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الاسلام ، انما فهمه كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وفهموا ألفاظه قريبة من الألفاظ التي كانت تستعمل في دياناتهم ، والشواهد على ذلك ، كثيرة كالذي رواه الأزدي في كتابه فتوح الشام من أن رجلا من مسلمي الشام تصالح مع آخر على أن يرعى له غنمه في نظير أن يهبه زوجته تبيت عنده ، وقد

دعاها عمر بن الخطاب فأقرا بأن ليس عندهما علم بحجرة ذلك ، وكللتى ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد من تشدد الموالى فى الدين تشدداً لا يعرفه عرب البادية — وقد ظهر تأثير هؤلاء القوم فى أواخر القرن الأول للهجرة بظهور المذاهب المختلفة كما سنبين ذلك إن شاء الله — ولعل هذا المعنى هو الذى أخاف عمر بن الخطاب عند الفتح ، فقد روى أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال « أن المسلمين أصابوا يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط ، وسبوا سبياً كثيراً من بنات أحرار فارس ، فذكروا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات ، فأدرك أبنائهن قتال صيفين » ثم انه استعاذ بالله وحق له أن يستعيز منهم ومن كل الموالى ونسلهم ، فقد كانت لهم عصبية سياسية غير العصبية العربية وضدها ، ولها تقاليد دينية لا بد أن ينزعوا إليها ويخالقوا بهذه النزعة الاسلام العربى فى بساطته

الحق أن الامتزاج كان قوياً شديداً ، وأن الموالى وأشباههم كان لهم أثر فى كل مرافق الحياة ، وانه كانت هناك حروب فى المسائل الاجتماعية كالحروب البدنية بين الجنود ، ولكن لم يعن المؤرخون بتفصيلها وهى أولى بالعناية ، فقد كانت حرب بين الاسلام والديانات الأخرى ، وكانت حرب بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، وكانت حرب بين الآمال العربية وآمال الأمم الأخرى ، وكانت حرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية ، ولئن كانت الحروب البدنية قد اتهمت تقريباً بفتحوح أبى بكر وعمر وعثمان ، فان الحروب الأخرى ظلت قائمة

(١) العقد جزء ٢ ص ٩١

(٢) العقد جزء ٢ ص ٩٠

بعد ذلك طويلا ، وأصبحت المملكة الاسلامية مجالا فسيحاً لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال ، فرس يحنون الى مملكتهم القديمة ويعتقدون أنهم أرقى من العرب ، وروم كذلك ، والمغرب ومصر يودون الاستقلال ، كما أن النظم السياسية فيها متضاربة ، فرس لم ينظم خاص وروم لم ينظم مغاير ، وقانون روماني كان يسود المستعمرات الرومانية ، وقانون فارسي كان يسود المملكة الفارسية ، واسلام يستمد منه قانون يوافقهما أحيانا ويخالفهما أحيانا ، وفرس مجوس ظلوا مجوساً ، وفرس أسلموا ، وروم نصارى ، وروم أسلموا ، ومصريون نصارى ، ومصريون أسلموا ، ويهود في هذه البلاد ظلوا يهوداً ، ويهود أسلموا ، ولغة عربية وفارسية وقبطية ويونانية وعبرية — كل هذه النزعات واللهجات كانت في حروب مستمرة ، وكانت المملكة الاسلامية كلها هي موطن القتال ، ولم يصلنا مع الاسف من وقائعها إلا النزر اليسير ، فلم تعد الأمة الاسلامية أمة عربية ، لغتها واحدة ، ودينها واحد ، وخالها واحد ، كما كان الشأن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانت الأمة الاسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب ، وكانت الحرب سجالاً ، فقد ينتصر الفرس وقد ينتصر العرب وقد ينتصر الروم

والحق أن العرب وان اتخذوا في النظم السياسية والاجتماعية وما اليها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك فقد انتصروا في شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فأما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها ، وانهمزت أمامها اللغات الأصلية للبلاد ، وصارت هي لغة السياسة وهي لغة العلم ، وظل هذا الانتصار حليف العرب في أكثر هذه الممالك الى اليوم ، وكذلك الدين ، فقد ساد هذه الأقطار واعتنقوه وقل من بقي من سكان هذه البلاد على دينه الأصلي — ومع انتصار هذين المرفقين — اللغة والدين — فقد تأثر كل منهما أثناء هذه الحروب ، فاللغة لم تعد سليقة وفشا فيها اللحن ، حتى

احتاجت الى قوانين تضبطها ، قال أبو عبيدة « مر عبد الله بن الأهمم بقوم من الموالى وهم يتداكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده ، قال أبو عبيدة ليته سمع لحن صفوان و خاقان وموئل بن خاقان »^(١) وكذلك غلبت على اللغة كلمات أعجمية وتراكيب أعجمية و خيال أعجمي ومعان أعجمية ، وقل مثل ذلك في الدين فهو وان انتصر فقد تأثر ، فتفرق المسلمون فرقا ، ووضعت المذاهب المختلفة ، وشرح القرآن نفسه بما ورد في الكتب الأخرى من أقاصيص بدء الخليقة وما الى ذلك ، وظلت هذه الفرق تتجادل بالقول أحيانا وبالسيف أحيانا

والآن نريد أن نتعرض بشئ من التفصيل لبيان ما يتصل بموضوعنا من هذه الحركات وهى الحركة العقلية — بأوسع معانيها من علم ودين — لقد كان للفرس دين وكان لهم حكمة ، وكان لهم عقلية ، وكان للروم دين وعلم وعقلية ، وقد أثر هذان العاملان أثرا كبيرا في الأمة الاسلامية فلنشرحهما ونبين أثرهما

(١) العقد الفريد جزء ٢

مصادر هذا الباب

اعتمدنا في الفصل الاول من هذا الباب على :

(١) القرآن

(٢) تاريخ الطبرى جزء ٢ ، ٣

(٣) Spirit of Islam للسيد أمير على

(٤) Literary History of Persia للاستاذ برون

عدا ما ذكرناه من الكتب أثناء البحث

وفي الفصل الثاني على

- (١) كثير من كتب الفقه أهمها الام للامام الشافعي والمبسوط للسرخسي وفتح القدير في باب السير، والاحكام السلطانية
 - (٢) دائرة المعارف الاسلامية في مادة عبد
 - (٣) فتوح البلدان للبلاذري
 - (٤) الاخبار الطوال للدينوري
- عدا ما أشرنا اليه في ثنايا الفصل من الكتب
-

الباب الثالث

الفرس وأثرهم

الفصل الأول

دين الفرس

ضاع استقلال فارس بالفتح الاسلامي كما أسلفنا ، وأصبحت ولاية إسلامية ، ووقع كثير من الفرس في أيدي العرب أسرى ، واستُرِق بعضهم ، ووُزِعَ على العرب ودخل كثير من الفرس في الاسلام ، وتعلم كثير منهم العربية ، حتى كان منهم في الجيل الثاني من يتكلم العربية كأحد أبنائها ، ولكنهم رغم هذا كله لم يصبوا في جملتهم كالعرب في عقيدتهم ، ولا كالعرب في مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم ، ولا كالعرب في عقليتهم ، بل اعتنقوا الاسلام فصبغوه بصبغتهم الفارسية ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا الاسلام بالقدر الذي يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه ، كذلك تعلم كثير منهم العربية ولكن لم يترك خياله الفارسي ، ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمة — كان من أثر ذلك طبيعياً أن تدخل تعاليم في الاسلام جديدة ، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها في الاسلام التشيع والتصوف — وكان من أثر ذلك أيضاً طبيعياً أن يُغمر الأدب العربي بالحكم الفارسية والقصص الفارسية والخيال الفارسي اذن كان للفرس دين ذو أثر ، وأدب ذو أثر ، فلندرس باختصار دينهم وأدبهم

لنستطيع بعد أن نفهم أثر ذلك، ولسنا ندرس دينهم منذ نشأتهم ، ولا نعرض لأصل أديهم وتدرجه في الرقي ، فذلك ما لايهمنا كثيراً ، إنما نتعرض لدينهم وطرف من أديهم في الدولة الساسانية التي حكمت الفرس قبل الاسلام ، واستمروا في الحكم من سنة ٢٢٦ م الى سنة ٦٥١ م حين تسلمها العرب من أيديهم وحكوها بولايتهم ، فهذه الدولة الساسانية هي التي كان لها الأثر المباشر في المسلمين من الناحية الدينية والأدبية جميعاً

ديوس الفرسى : اشتهر الفرس - والجنس الآرى عامة - بأنهم ميالون الى عبادة المظاهر الطبيعية ، فالسما الصافية ، والضوء والنار والهواء ، والماء ينزل من السماء ، جذبت أنظارهم ، وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية ، حتى سموا الشمس « عين الله » والضوء « ابن الله » كما أن الظلمة والجذب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة

ومن أول أمرهم وقفوا الانسان أمام آلهة الخير يستمد منهم المعونة ، ويصلى لهم ، ويسبح بحمدهم ، ويقدم الضحايا اليهم

ورأوا أن آلهة الخير في نزاع دائم مع آلهة الشر ، وأعمال الانسان من صلاة ونحوها تعين آلهة الخير في منازلها آلهة الشر ، واتخذوا النار رمزاً للضوء وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير ، يشعلونها في معابدهم ، وينفخونها بأمدادهم ، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها ، وقد كانت هذه النار منبعاً عندهم لخيال شعري خصب

زرادشت (Zoroaster) ثم جاء بعد زرادشت - نبي الفرس فدعا الى

تعاليم جديدة أسست على العناية القديمة بعد اصلاحها

وقد كان وجود زرادشت نفسه موضع شك عند كثيرين ، وموضوع جدل طويل بين النافين والمثبتين ، واختلف المثبتون في تاريخ وجوده على أقوال تتردد

بين سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد ، و ٦٠٠ ق م ، وقد الف الأستاذ جاكسون Jackson كتاباً قياً في حياته^(١) كان له أثر كبير في ترجيح كفة المثبتين لوجوده ، وقد وصل في بحثه الى أن زرادشت شخص تاريخي لا خرافي ، وأنه كان من قبيلة ميديا (في الجزء الغربي الشمالي من فارس) ، وأنه ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق م بعد أن عمر ٧٧ سنة ، وإن موطنه كان أذربيجان ولكن أول نجاح ناله كان في بلخ ، وعلى أثر دخول الملك « يُشتاسب »^(٢) في دينه ، وإن دينه انتشر من بلخ الى فارس كلها

ومع هذا فلا تزال بعض هذه النتائج التي وصل اليها جاكسون مجالاً للبحث و يروى أهل دينه كثيراً عما صحب ولادته من المعجزات وخوارق العادات والاشارات ، وأنه انقطع منذ صباه الى التفكير ، ومال الى العزلة ، وأنه في أثناء ذلك رأى سبع رؤى ، ثم أعلن رسالته فكان يقول أنه رسول الله بعنه ليزيل ما علق بالدين من الضلال ، وليهدى الى الحق ، وقد ظل يدعو الناس سنين طوالاً فلم يستجب لدعوته الا القليل ، فأوحى اليه أن يهاجر الى بلخ ، فنشر دعوته في بلاط الملك ، فاستجاب له أولاً أبناء الوزير ثم الملكة نفسها ، وقاومه رجال البلاط وجادلوه ولكنه انتصر عليهم بدخول الملك نفسه — وهو يُشتاسب — في دينه وقد تحمس الملك لهذا الدين الجديد فتتابع الناس للدخول فيه أفواجا

تعليحهم: نلاحظ فيما ذكرنا أن الفرس قبل زرادشت بنوا دينهم على أساسين (١) أن لهذا العالم قانوناً يسير عليه وأن له ظواهر طبيعية ثابتة (٢) وأن هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة ، بين النور والظلمة ، والخصب والجذب ، الخ فجاءت

(١) اسمه Life of Zoroaster

(٢) ورد اسمه في الشهامة جشتاسب

تعالم زرادشت مبنية على هذين الأساسين أيضاً إلا أن من قبله كانوا يعبدون الأرواح الخيِّرة وهي كثيرة ، فوحدها زرادشت في إله واحد هو « أهورا مزدا » وكذلك فعل في قوى الشر فخصرها في شيء واحد سمي « دَرُوچْ أَهْرِمَنْ » وبذلك كانت عنده قوتان فقط : قوة الخير وقوة الشر

ولزادشت كتاب مقدس يسمى « وستا » Avesta وعليه شرح يسمى « وستازند » قال المسعودي « واسم هذا الكتاب « الأيستا » وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل « الأيستا »^(١) وعدد سوره احدى وعشرون سورة تقع كل سورة في مائتي ورقة.. وأنه كتب باللغة الفارسية الأولى، وأن أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وإنما نقل لهم الى هذه الفارسية شيء من السور في أيديهم يقرءونها في صلواتهم ، في بعضها الخبر عن مبتدأ العالم ومنتهاه وفي بعضها مواضع » اه مختصراً

وأصل الوستا ومؤلفو سوره لا يزال موضع جدال بين الباحثين ، كما هو الشأن في زرادشت نفسه ، ويقول « البرسيون » « أن الوستا كان في عهد الدولة الساسانية مؤلفاً من احدى وعشرين سورة لم يبق منها في عهدنا الاسورة كاملة وبعض آيات من سور مختلفة » وهذا الذي وصل اليها لا يحتوي الا على مقطعات في الشعائر الدينية ، وفي قوانين المعابد الزرادشتية

وقد عاملهم المسلمون في الفتح معاملة أهل الكتاب وعدوا كتبهم كأنه كتاب منزل وجرى عمر على ذلك لما روي له الحديث « سنوا بهم سنة أهل الكتاب الخ » والمشهور من تعاليمه أنه كان يقول أن للعالم أصليين أو إلهين — أصل الخير وهو « أهورا » أو « أهورا مزدا » وأصل الشر وهو « أهْرِمَنْ »^(٢) وهما في نزاع دائم

(١) هكذا ورد بالياء والظاهر أن الباء في ايستاق تصحيف وصوابه باء لانه في اللغة الفارسية تنقل الباء باء عادة فيكون صواب كتابته الايستاق

(٢) يسمى أيضاً إله الخير يزدان وفي ذلك يقول ابى العلاء المعرى

ولكل من هذين الاصلين قدرة الخلق ، فاصل الخير هو النور وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع ، فخلق النظام وخلق الحق وخلق النور وكتب الحراسة والديك ونحو ذلك من الحيوانات النافعة ، والواجب على المؤمن العناية بها - وأصل الشر هو الظلمة وقد خلق كل ما هو شر في العالم ، فخلق الحيوانات المفترسة والحيات والأفاعى والحشرات والهوام ، وعلى المؤمن قتلها - والحرب بين هذين الروحين سجّال ، ولكن الفوز النهائى لروح الخير - والناس في الحرب ينحازون الى الروحين فمنهم من ينصر « أهورا » ومنهم من ينصر « أهرمن » وليس الروحان يبشران الحرب بأنفسهما بل بمخلوقاتهما .

وكان الانسان موضع نزاع بين الروحين ، لأنه مخلوقٌ مرّداً ، ولكنه خلقه حر الارادة ، فكان في الامكان أن يخضع للقوى الشريرة ، والانسان في حياته تتجاذبه القوتان ، فان هو اعتنق ديناً حقاً ، وعمل عملاً صالحاً ، وطهر بدنه ونفسه ، فقد أخزى روح الشر ، ونصر روح الخير ، واستحق الثواب من « مزدا » ، والا قوتى روح الشر ، واسخط عليه « مزدا »

كذلك من أهم مبادئه أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية ، فحب الى الناس أن يزرعوا وان يعيشوا مع ماشيتهم ، وان يجتدوا ويعملوا ، حتى حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل ، وهو يريدهم أقوياء عاملين . وعلم أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجس ، وكان من مظاهر هذا تقديس النار واتخاذها رمزاً ، وتحريم تنجيس الماء الجارى وتحريم دفن الموتى في الارض ونحو ذلك

قال أناس - باطل زعمهم فراقبوا الله ولا ترمين -
فصكر يزدان على غرة فصيح من تكفيره اهرمن

وللإنسان حياتان : حياة أولى في الدنيا ، وحياة أخرى بعد الموت ، ونصيبه في حياته الآخرة نتيجة لأعماله في حياته الأولى — قد أحصيت أعماله في كتاب وعدت سيئاته ديونا عليه ، وفي الأيام الثلاثة التي تعقب الموت تُحَلَّقُ نفس الإنسان فوق جسده وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله ، ومن أجل هذا تقام الشعائر الدينية في هذه الأيام الإناساً للنفس — وعند الحساب تمر النفس على صراط ممدود على شفير جهنم ، وهو المؤمن عريض سهل المجاز ، وللكافر أحد من الشعرة ، فمن آمن وعمل صالحاً جاز الصراط بسلام ، ولقى « أهورا » فأحسن لقاءه وأنزله منزلاً كريماً ، والا سقط في الجحيم وصار عبداً لأهراً من — وإن تعادلت سيئاته وحسناته ذهب الروح الى الاعراف الى يوم الفصل

وقد غيَّب على الإنسان في حياته الدنيا ما أعد له بعد موته ، ولم يعلم الخير من الشر ، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولا يهدى به الناس ، وفي الأساطير الزرادشتية أن النبوة نزلت أولاً على جَمَشِيد ملك الفرس ولكن لم يستطع حملها فحملها زرادشت ، فكان الله يكلمه وينزل عليه الوحي

ويعلم زرادشت أن يوم القيامة قريب ، وأن نهاية هذه الحياة ليست بعيدة ، وسيستجمع «مزدا» قوته ويضرب إله الشر ضربة قاضية، ويعذبه بالجحيم هو ومن أطاعه **فلسفته** — بجانب هذه التعاليم الدينية نرى للديانة الزرادشتية إبحاناً فيما وراء المادة ، ولكن لم يكن بحتم فيها شاملاً كالذي كان عند اليونان ولكن كان بحثاً جزئياً مفروقاً — كذلك نرى لهم في هذا خاصية تشبه التي كانت للعرب بعد الاسلام . وهي امتزاج أبحاثهم فيما وراء المادة بالدين والتوفيق بينهما ، ولم يبحثوا فيها بحثاً مستقلاً كما فعل اليونان مثلاً

فن أبحاثهم الفلسفية بحتم في النفس ، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس الإنسان

قد خلقها الله بعد أن لم تكن ، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة اذا حاربت الشرور في العالم الأرضي ، وقد منحها الله حرية الارادة فهي تستطيع أن تختار الخير أو الشر - وللنفس الانسانية قوى مختلفة (١) الضمير أو الوجدان (٢) القوة الحيوية (٣) القوة العقلية (٤) القوة الروحية (٥) القوة الواقية الخ
وبعدُ فهل دين زرادشت ثنوي يرى أن العالم يحكمه آلهان إله الخير وإله الشر وان لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أو هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد وأن مافي العالم من خير وشر وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا إلا مظهرين أو أئزيم لآله واحد ؟ اختلف الباحثون في الاجابة على هذا السؤال : فيرى كثيرون أنه ثنوي كما يدل عليه ظاهر كلامه وقد ذهب الى هذا الرأي بعض كتّاب الفرنج ومنهم من كتب في دائرة المعارف البريطانية مادة زرادشت ، ومنهم من يرى أنه موحد والى ذلك ذهب الشهرستاني والقلقشندي في صبح الأعشى وغيرهما، ويقول الأستاذ هوج Haug « أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنويًا » ولعله يريد من قوله هذا أنه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى أن للعالم إلهًا واحدًا ، ولكن إذا تعرض لشرح فلسفة العالم وما فيه من خير وشر يتطاحنان وما الى ذلك فهو ثنوي يرى أن في العالم قوتين

والديانة الزرادشتية كانت هي الديانة السائدة في فارس وما حولها في عهد الكيانيين Achaemenian ، فلما انتصر الاسكندر سنة ٣٣١ ق م . كان ذلك ضربة ل هذه الأسرة ولديانتها ، ثم انتعشت في عهد الأسرة الساسانية التي بدأت حكمها سنة ٢٢٦م وظلت هي ديانة الفرس الى الفتح الاسلامي فاعتنق كثير منهم الاسلام ، وفر بعضهم أولا الى جزائر في الخليج الفارسي ثم الى الهند ، ولا تزال منهم طائفة في

بمباي يسمون بالقرسيين Parsees يتمسكون بهذا الدين الى اليوم — وبقيت طائفة في فارس تستمسك بدينها بعد الفتح ، واستمرت معابد النار قائمة في كل ولاية من ولايات فارس تقريباً في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح^(١)

ولعلك من قراءة مذهبهم تشعر بما كان لهم من أثر كبير في المسلمين ، وسيتضح ذلك تمام الوضوح عند الكلام على المذاهب الدينية ، الا أنه يصح لنا أن نذكر هنا اجمالاً أن عقيدة العامة من المسلمين في الصراط بهذا النظم الذي يحكيه زرادشت ، وفي الاعراف على هذا الوجه ، وتحليق الروح على الجسد ، واقامة الشعائر لذلك ثلاثة أيام ، كل هذه عقائد تشبه مشابهة تامة مافي الديانة الزرادشتية ، وقول المعتزلة في الجبر والاختيار وقول الصوفية في أقسام النفس كله مأخوذ عن هذه الديانة ، وسنعرض لهذا الموضوع في موضعه ان شاء الله

ماني والمانوية^(٢) — من أشهر المذاهب الدينية التي كثر أتباعها المانوية وقد ولد ماني — مؤسسها — حسبما يقول البيروني في كتابه « الآثار الباقية » سنة

(١) وفي نهاية القرن الثامن الميلادي أسلم ساسان أمير بلخ وكان زرادشتياً ، وأسس مملكة اسلامية هي الدولة السامانية وفي سنة ٨٧٣ م دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين في الاسلام على يد ناصر الحق أبي محمد ، وفي سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن علي من الاسرة العلوية — التي كانت تحكم العاطلي الجنوي لبحر قزوين — أهل الديلم وطبرستان الى الاسلام فأجاب أكثرهم وكان بعضهم وثنيين وبعضهم زرادشتيين ، وفي سنة ١٠٠٣ م = ٣٩٤ هـ دخل الشاعر المشهور مهيار الديلمي في الاسلام على يد المريف الرضي وكان من عبدة النار وقبله في أوائل القرن الثامن للميلاد خرج من الزرادشتية الى الاسلام عبد الله بن المقفع — وقد بق بعض الزرادشتيين في فارس الى اليوم وقد قدر بعضهم عبدة النار فيها من عهد قريب بنحو ٨٥٠٠

(٢) يلاحظ أنهم تارة ينسبون الى ماني مئانية وتارة ينسبون اليه مانوية وهذه الاخيرة هي التي استعملها المتني اذ يقول

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

٢١٥ أو سنة ٢١٦م ، وعاش مذهبه رغم ما لقي من اضطهاد الى القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان له أتباع كثيرون فى آسيا وفى أوروبا ، وكان له أثر كبير فى الآراء الدينية ، وكانت تعاليمه مزيجاً من الديانة النصرانية والزرادشتية وهى — كما يقول الأستاذ « برُون » « أن تُعدَّ زرادشتية مُنصَّرة أقرب من أن تعد نصرانية مُرَدَّسة » — وقد كتبت عنه مصادر عربية وأخرى أوروبية ، وقد وثق الأستاذ برون المصادر العربية وقال انها أقرب الى الصحة — وأهم المصادر العربية فى هذا « الفصل فى الملل والنحل لابن حزم والمَلل والنحل للشهرستانى وفهرست ابن النديم وتاريخ اليعقوبى والآثار الباقية للبيرونى وسرَح العيون لابن نباتة

وخلاصة مذهبه أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصلين : وهما النور والظلمة ، وعن النور نشأ كل خير ، وعن الظلمة نشأ كل شر ، والنور لا يقدر على الشر ، والظلمة لا تقدر على الخير ، وما يصدر عن الانسان من خير فصدره إله الخير ، وما يصدر من شر فصدره إله الشر ، فان هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور ، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة ، وكذلك جميع الحواس — وقد امتزج الخير والشر فى هذا العالم امتزاجاً تاماً ، وقد أطل الخو وأحجابه فى كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات

وهو فى هذا لا يخرج كثيراً عن تعاليم زرادشت — كما ترى — ولكن يخالفه بعد فى أمر جوهرى : وهو أن زرادشت كان يرى أن هذا العالم الحاضر عالم خير ، لما فيه من مظاهر نصرة الخير على الشر ، فى حين أن ماني يرى أن نفس الامتزاج شر يجب الخلاص منه ، وزرادشت يرى أن يعيش الانسان عيشة طبيعية فيتزوج وينسل ويعنى بزراعة ولسله وماشيته ويقوى بدنه ولا يصوم ، وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر ، أما ماني فنزع منزعا آخر هو أشبه ما يكون بالرهبنة — وقد كان

ماني - كما يقولون - راهباً بحرّان ، فرأى أن امتزاج النور بالظلمة في هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد وشرع الصيام سبعة أيام أبداً في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ويستقبل الشمس قائماً ثم يقوم ويسجد وهكذا ، اثنتا عشرة سجدة ، يقول في كل سجدة منها دعاء - ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام ، وأقر بنبوة عيسى وزرادشت وقال أنه (ماني) النبي الذي بشر به عيسى

وقد ذكروا أن هرْمُزُ ملك الفرس اعتنق مذهبه وأيده ، وأنه دخل في دينه كثير من الناس ، فلما مات هرمز وخلفه بهرام الأول لم يرتح الى تعاليمه وقتله وشرّد أصحابه ، ولكن لم تمت تعاليمه ، وكان لدينه أئمة يتعاقبون ، وكان مركز الامام أولاً في بابل ثم تحول الى سمرقند وقد قال ابن النديم « انه لما انتشر أمر الفرس وقوى أمر العرب عادوا الى هذه البلاد ، ولا سيما في فتنة الفرس ، وفي أيام ملوك بني أمية ، فإن خالد بن عبد الله القسري كان يُعنى بهم ، وآخر ما انجلوا في أيام المقتدر ، فانهم لحقوا بخراسان خوفاً على نفوسهم ، ومن بقي منهم ستر أمره ، وقد قلوا في المواضع الاسلامية ، فأما مدينة السلام فكنت أعرف منهم أيام معز الدولة نحو ثلثائة ، وأما في وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة أنفس ، ثم عد بعضاً من رؤسائهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ، فعند منهم الجعد بن درهم ، وكان مؤدباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . وكان خالد بن عبد الله القسري يرمي بالزندقة ، وصالح ابن عبد القدوس وشار بن بُرد وسلم الخاسر ، وقال « قيل أن البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت تُرمى بالزندقة ، وقرأت بخط بعض أهل المذهب ان المأمون كان منهم وكذب في ذلك ، وقد أصبحت رياستهم الآن في سمرقند »

وكذلك انتشرت في أوروبا الى فرنسا الجنوبية ، وقد ذكروا أن سانت

أوغسطين St Augustine ظل مانوياً عهداً طويلاً قبل أن يعتنق النصرانية وكان للمانووية حركة أدبية في التأليف ، وأثاروا كثيراً من المسائل جادلوا فيها من يوم نشأتهم ، فقد حكوا أن موبذ موبذان (قاضي القضاة) ناظر ماني فقال. الموبذ أنت الذي تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم ؟ فقال ماني واجب أن يمان النور على خلاصه بقطع النسل ، فقال الموبذ فمن الحق الواجب أن يجعل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه ، وتعان على ابطال هذا الامتزاج للذموم ، فهبت ماني فأمر بهرام به قتل — كذلك حكوا أن المأمون ناظر أحد المانووية فقال هل ندم مسيء على اساءته ؟ قال بلى ، قد ندم كثير ، قال فخبرني عن الندم على الاساءة اساءة هو أم احسان ؟ قال احسان ، قال فالذي ندم هو الذي أساء ؟ قال نعم . قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم أن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال فأزعم أن الذي أساء غير الذي ندم ، قال فندم على شيء كان من غيره أو على شيء كان منه ؟ فقطعه بهذه الحجة وقد شغلت تعاليمهم جزءاً غير قليل من علم الكلام عند المسلمين ، يذكرون آرائهم ويعنون بالرد عليها ، فضلا عن أن هؤلاء المانووية أثاروا مسائل كثيرة كالبحث في المعاد هل هو بالاجسام أو بالارواح. أخذ المسلمون يتجادلون فيها وينحازون الى طوائف

وهنا مسألتان جديرتان بالبحث

(الاولى) لم اضطهدت المانووية قبل الاسلام وفي الاسلام ؟

وقد أشرنا الى الجواب عنها فيما تقدم ، فالذي دعا بهرام الى قتله هو وأصحابه الناحية العملية ، فقد كان زرادشت يدعو الى العمل وكان في تعاليمه مؤيداً للقومية والنزعة الحربية ، مما يتفق وميول فارس اذ ذاك ، وعلى العكس من ذلك تعاليم

حاني ، فهي أميل الى الزهد والرغبة عن ملاذّ الحياة واستعجال الفناء وهي -
ولا شك - في منتهى الخطورة لمملكة حرية كفارس ، ويؤيد هذا ما جاء في
الآثار الباقية « ان بهرام قال - ان هذا خرج داعياً الى تخريب العالم فالواجب
أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده » - أضف الى ذلك
أنهم فوق تعاليمهم هذه كانوا على ما يظهر جادّين في الدعوة الى مذهبهم يتسترون
بِالاسلام أو النصرانية ليتسنى لهم الدعوة ، ويكونوا بآمن من الاضطهاد

المسألة (الثانية) أنا نرى كلمة الزندقة كثيراً ما يوصف بها اتباع ماني فهل
هي خاصة بهم ؟

الظاهر من عبارات ابن النديم أن الزنادقة كلمة تطلق على أصحاب ماني ومعتنقي
مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد ، ونرى الخياط المعتزلي في
كتابه « الانتصار » يستعملها للدلالة على فرقة خاصة قرينة لليهود والنصارى ،
فيقول مثلاً « قال ابن الراوندي : وزعم ثُمّامة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس
والزنادقة والذهرية يصيرون في القيامة تراباً ولا يدخلون الجنة الخ » . وقد استعمل
الخياط هذه الكلمة في كتابه نحو خمس مرات كلها في مثل هذا التعبير

ويقول ابن قتيبة في كتابه « المعارف » عند كلامه على أديان العرب في
الجاهلية « كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قُضاة ، وكانت اليهودية في
حَمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم منهم
زُرارة وحاجب بن زُرارة ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة
في قریش ، أخذوها من الحيرة » وظاهر من تعبيره هذا أن الزندقة التي يعنىها دين
خاص من دين الفرس بدليل قوله أنهم أخذوها من الحيرة ، والحيرة كانت تحت
حكم الفرس كما علمت ، وقريب من هذا ما قاله الجوهري في الصحاح « الزنديق

من الثنوية وهو معرّب ، والجمع الزنادقة ، وقد ترندق والاسم الزندقة « فظاهر من هذا أن الزندقة مذهب خاص كاليهودية والنصرانية ، وإن استعماله في معنى الإلحاد على العموم إنما هو معنى حدث بعد . جاء في لسان العرب « الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسي معرب زَنَدَ كَرَأى يقول بقاء الدهر ، وقال احمد بن يحيى ليس في كلام العرب زنديق ، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا مُلْجِدٌ وَدَهْرِيٌّ » ولكن هل هو يطلق على كل الثنوية أو على مذهب خاص من الثنوية كالمانيوية فقط ؟ الظاهر من كلام ابن قتيبة أنه يطلق على مذهب خاص بدليل أنه قابلها في كلامه بالمجوسى ، فذكر أن تيميا تمجست ، وقريشاً ترندقت ، ولو كان يريد من الزندقة الثنوية على العموم لما كان هناك معنى للمقابلة ، ويؤيده ما في الصحاح « الزنديق من الثنوية » ولم يقل « الزنادقة الثنوية » ولكن هل يطلق اللفظ على المانيوية فقط ؟ حكى الألوسى عن ابن الكمال « أنه يطلق على المزدكية ، وأن مزدك ألف كتاباً اسمه زند وإن المزدكية غير المانيوية » وهذا خطأ فإن مزدك لم يضع زنداً وإنما هو شرح كتاب الأوستا لزدشت

ويقول بعضهم أن زنديق في الأصل معناها بالفارسية الذى يتبع زَند ثم أطلق على المانيوية لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل ، ويقول الأستاذ « ييثان » اناترى من كلام الفهرست والبيرونى أن المانيوية يطلقون كلمة « السَّمَّاعِينَ » على من لم يرقوا الى الدرجة العليا من المانيوية ولم يلتزموا أن يؤدوا كل الواجبات التى تفرضها الديانة من رهبانية وزهد الخ ويقابلهم « الصَّدِّيقُونَ » وهم الراقون الملتزمون بأداء تلك الواجبات ، يفضلون الفقر على الغنى ، ويزهدون فى العالم وشؤونه ، وكلمة صديق عربية ولها أصل آرامى وهو صديقى Saddiqai ، وقد أخذها الفارسية فحوروها الى زنديق

فوضعوا ند nd موضع dd كما قالوا شنباذ Shanbath في سبّاذ Sabbath^(١) وعلى قوله تكون الكلمة وضعت لطائفة خاصة من المانوية ثم استعملت في المانوية جميعا ، ثم استعملت في الألحاد على العموم كالذى روى عن أبي يوسف أنه قال ثلاثة لا يسلون من ثلاثة ، من طلب النجوم لم يسل من الزندقة ومن طلب الكيمياء لم يسل من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسل من الكذب^(٢)

(ح) مزدك — حول نحو سنة ٤٨٧ م ظهر في فارس مزدك ويقول الطبرى أنه من أهل نيسابور ودعا الى مذهب ثنوى جديد ، فكان يقول أيضاً بالنور والظلمة ، ولكن أكبر ما امتاز به تعاليمه « الاشتراكية » ، فكان يرى أن الناس ولما كانوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء ، قال الشهرستاني « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلام » وقال الطبرى « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتأسي ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من الكثيرين على القليلين ، وان من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره ، فانبرص السفة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوه ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وجملوا « قُبَاد » على تزوين ذلك وتوعده بخلمه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسرع به » وقال في موضع آخر « وكان مما أمر به الناس وزينته لهم وخطهم عليه التآسي في

١ (٧) النظر برون. ٢ (٢) التفتذ الفريد مجزء ٢ ص ١٢٩ .

أموالهم وأهلبيهم ، وذكر أن ذلك من البر الذي يرضاه الله ويشيب عليه أحسن الثواب ، وأنه لو لم يكن الذي أمرهم به وحثهم عليه من الدين كان مكرمة في الفعال ورضى في التفاوض الخ^(١)

فترى من هذا أن تعاليمه اشتراكية من أسبق الاشتراكيات في العالم ، ويقول الأستاذ « نولدكه » « ان الذي يميز مزدك عن الاشتراكية الحديثة ما لتعاليمه من الصبغة الدينية » - وكانت له تعاليم روحية أخرى ، فقد كان يعلم القناعة والزهد وحرمة الحيوان فلا يذبح

وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس ولكن قباز نكل به وقومه ، ودبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣ م كاد يستأصلهم بها

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه حتى الى ما بعد الاسلام ، وذكر الاصلطخرى وابن حوقل أن سكان بعض قرى كرمان كانوا يعتنقون المزدكية طول عهد الدولة الأموية

ونلمح وجه شبه بين رأى أبي ذرّ الغفارى وبين رأى مزّك في الناحية المالية فقط ، فالطبرى يحدثنا أن أبا ذر « قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء ، وأسوأ الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكوا من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجويوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس » ثم بعث به معاوية الى عثمان بن عفان بالمدينة حتى لا يفسد عليه أهل الشام ، ولما سأله عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذرّ بك ؟ قال لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فترى من هذا أن رأيه قريب جداً من رأى مزدك في الأموال . ولكن من أين أتاه هذا

(١) أنظر تاريخ الطبرى جزء ٢ ص ٨٨ وما بعدها

الرأى ؟ يتحدثنا الطبرى أيضاً عن جواب هذا السؤال فيقول : أن ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز اليه بذلك ، وأن ابن السوداء ، هذا أتى أبا الرداء وعبادة ابن الصامت فلما يسمعا لقوله وأخذ عبادته الى معاوية وقال له هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر (١) —
ويجن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب يلقب به عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من صنعاء أظهر الاسلام فى عهد عثمان ، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة قد نعرض لها فيما بعد ، وكان قد طوف فى بلاد كثيرة ، فى الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر — فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها ، وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح اليها نفسه ، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا وكان من الشخصيات المحبوبة التى أثرت فى الصوفية

ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية وكان له أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح منه ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبيلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة — وهو معنى يشبه ما عرف فى أوربا بنظرية « الحق الإلهى — Divine right » وسادت فيها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويقول الأستاذ « برُون » « لم تعتنق نظرية الحق الإلهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية » وقد كان الاكسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى — ويستدل الأستاذ « نولدكه » على اعتناق الفرس لهذه النظرية بحكاية وردت فى كتاب

(١) أنظر الطبرى جزء ٥ ص ٦٦ وما بعدها

الأخبار الطوال « وهى أن « بهرام جوين » (ولم يكن من بيت الملك ، وقد طلب الملك وحارب كسرى برويز فهزمه كسرى فهرب) مر فى طريقه بقرية ، فنزلها فى أصحاب له ، ونزلوا فى بيت عجوز ، فأخرجوا طعاماً لهم فمتعشوا ، وأطعموا فضلته العجوز ثم أخرجوا شراباً ، فقال بهرام للعجوز : أما عندك شىء نشرب فيه ؟ قالت عندى قرعة صغيرة ، فأتهم بها فجبوا رأسها وجعلوا يشربون فيها ، ثم أخرجوا تُللاً ، وقالوا للعجوز : أما عندك شىء يجعل عليه النقل ؟ فأتتهم بمنسَف^(١) فألقوا فيه ذلك النقل ، فأمر بهرام فسقيت العجوز ، ثم قال لها : ما عندك من الخبز أيتها العجوز ؟ قالت الخبز عندى أن كسرى أقبل بجيش من الروم فحارب بهرام فقلبه واسترد منه ملكه ، قال فما قولك فى بهرام ؟ قالت : جاهل احمق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة ؟ قال بهرام : فمن أجل ذلك يشرب فى القرع ، ويتنقل من المنسف ، فجرى مثلاً فى العجم يتمثلون به » اه

وهو استدلال ليس بالقوى فيما نرى ، فان كل أسرة مالكة متى استمرت فى الحكم أجيالاً أكسبها ذلك الحق فى الملك عند عامة الناس فى كل أمة وان لم يقدسوا ملوكها

وربما كان خيراً من هذا فى تأييد هذا الرأى ما جاء فى كتاب « التاج » من أن ملوك آل ساسان لم يُكننَّها أحد من رعاياها قط ، ولا سهاها فى شعر ولا خطبة ولا تفرظ ولا غيره ، وانما حدث هذا فى ملوك الحيرة^(٢) »

فالظاهر من هذا أن هؤلاء الملوك ترفعوا ورفعهم الشعب حتى لم يكن من الأدب أن يجرى على لسانهم اسمه ولا كنيته حتى ولا فى الشعر

هذه مذاهب الفرس الدينية ، وقد ذابت في المملكة الإسلامية بعد الفتح ، وكثير منهم أسلموا ولم يتجددوا من كل عقائدهم التي توارثوها أجيالا ، وبمرور الزمان صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية ، فنظرة الشيعة في عليّ وأبنائه هي نظرة آباؤهم الأولين في الملوك الساسانيين ، وثنوية الفرس كانوا منبعاً يستقى منه « الرافضة » في الإسلام ، فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة وأمثالهم ، أضف الى ذلك أن تعاليم زرادشت وماتى ومزدك كانت تظهر من حين لآخر بين المسلمين في أشكال شتى في أواخر السولة الأموية والسولة العباسية ، واضطر المسلمون أن يجادلوه ويدفعوا حججهم ويؤيدوا دينهم بالمنطق والبرهان — وكانت اثاره هذه المسائل أحيانا تقسم المسلمين أنفسهم الى فرق فينحازون الى مذاهب ويتجادلون فيما بينهم ، بما أدى الى نشأة علم الكلام في الإسلام كما سنبينه بعد

الفصل الثاني

الادب الفارسي

كانت لغة الفرس في عهد الدولة الساسانية هي اللغة الفهلوية ، « و زَنَد »
الذي هو شرح للأوستا مكتوب بهذه اللغة - وكان لهذا الكتاب الديني أثر في
حفظها - ولكن لم يصل الى عصرنا هذا كثير من ثروة الفرس الأدبية الفهلوية التي
كانت منتشرة في الدولة الساسانية وصدر الاسلام ، والسبب في ذلك أن دين
الاسلام ظفر بدين زرادشت وحل محله ، كما حلت اللغة العربية والحروف العربية
محل اللغة الفهلوية والحروف الفهلوية ، فذهاب الحكومة الفارسية ودينها ، وحكمها
بالعرب ، وتحولها من مملكة الى ولايات اسلامية ، ودخول كثير من الفرس في
الاسلام ، واضطرارهم الى تعرف اللغة العربية ، للدين أو للدنيا أو لها معاً ، وازدراء
المسلمين لبيوت النيران التي هي شعائر الثنوية، كل هذا عرض الديانة الفارسية واللغة
الفهلوية للاضمحلال ثم الفناء

ومع هذا فقد وصلت الينا بقية قليلة من اللغة الفهلوية ، فهناك أحجار صخرية
عليها نقوش فهلوية تتضمن أسماء ملوك ونبنا من تاريخ حياتهم ، يرجع عهدها الى
أوائل الملوك الساسانيين - وهناك كتب فهلوية فرّ بها الأبرسيون الى الهند عند
الفتح الاسلامي كما أسلفنا ، وأكثرها ديني وهذا هو السر في بقائها في يدهم
وكذلك بقي من غير الكتب الدينية قطعة كبيرة من قانون فارس في عهد

الدولة الساسانية ، تتضمن الكلام على الأحوال الشخصية كالزواج وعلى الملكية وعلى الرق وغير ذلك ، وكتاب في صناعة تحرير المراسلات وما يحسن في بدنها وفي ختامها ، وآداب المراسلات الرسمية ، ومعجم للغة الفهلوية القديمة ، وتاريخ خيالى للشطرنج ، وسير لبعض ملوك الفرس

ولم يصل الينا شيء من شعر الدولة الساسانية على عظمة كثير من ملوكها وحاجتهم الى من يتغنى بمدائحهم ، فهل اكتفى الفن بتعبيراته بالحفر والنقش والبناء والغناء ، أو عبر أيضاً بالشعر ولكن عدا عليه الشعر العربي فقتله ؟ نحن الى الثانى أميل ومع قلة ما وصل الينا من الأدب الفارسى فالظاهر أنه وصل الى المسلمين فى العصور الأولى الاسلامية كتب كثيرة فارسية ، فكثيراً ما يقول ابن قُتَيْبَةَ فى كتابه عيون الأخبار « وفى كتب العجم كذا » و (قرأت فى كتاب « إِبْرَوِيْز » الى ابنه « شيرويه » وهو فى حبسه » وكثيراً ما ينقل صاحب كتاب التاج فى أخلاق الملوك عن الفرس وآدابهم وكتبهم

وقد أثر الأدب الفارسى فى الأدب العربى من وجوه :

(الأول) أن كثيراً ممن دخلوا الاسلام اضطروا — كما أسلفنا — الى تعلم اللغة العربية ، وسرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم شعراء ، وقد ظهر منهم فى الدولة الأموية عدد ليس بالقليل ، من أشهرهم « زِيَادُ الأعْجَم » وأصله ومولده ومنشؤه بأصْبِهَان ثم انتقل الى خُرَّاسان ولم يزل بها حتى مات (١) وكان شاعراً جزل الشعر وسمى الأعجم لهذا الذى ذكره فى الأغاني وهو أنه كان يجرى على لغة أهل بلاده ، ولم يكن يطاوعه لسانه أن ينطق بالحروف العربية ، فكان يقول « ما كنت تستأ » فى « ما كنت تصنع — واذا كان يقول الشعر عن تعلم لا عن سليقة فقد

(١) هناك رأى آخر يخالف فى كونه أعجبياً وانظر الاقوال فى ذلك وترجمته فى جزء ١٤

كان كثير اللحن في شعره كقوله :

إِذَا قُلْتُ قَدْ أَقْبَلْتُ أَدْبَرَ تَ كَمَنْ لَيْسَ غَادٍ وَلَا رَاحٍ

وكان ينبغي أن يقول غاديا ولا راحاً^(١)

ومن أشهر هؤلاء الشعراء الفرس أيضاً أسرة بن يسار النسائي^(٢) ، فهي أسرة فارسية شاعرة اشتهر منها اسماعيل بن يسار ومحمد وإبراهيم وللثلاثة شعر يعنى به ، وكلهم ذو نزعة فارسية يتعصب للعجم ، وينقم من العرب

ومنهم أبو العباس الأعمى ، وأصله من أذربيجان ، وموسى شهوات وأصله كذلك من أذربيجان ، الى كثير غيرهم

هؤلاء وأمثالهم نشأوا نشأة فارسية ، وتأدبوا بالأدب الفارسي ، ثم صاغوا أدبهم في القالب العربي فأحكموا التقليد ، فألفاظهم عربية وتراكيبهم عربية وأوزانهم عربية ، ولكن هذا لا يمنع أن بعض المعاني الفارسية والخيال الفارسي ، والروح الفارسي ، كان يتسرب الى نفوسهم ثم الى شعرهم ، ولو انا عثرنا على نماذج من الأدب والشعر الساساني لأمكن بوضوح المقارنة بين الأديين ، وشرح الاقتباس كيف كان ، ولكن مع فقد الأدب الفارسي فانا نلمح في شعر هؤلاء الذين سميناهم معاني جديدة ، ونزعات جديدة نذكر لك أمثلة منها ، فقد سجدت حمامة بجانب زياد فقال :

تَعَيَّ ، أَنْتَ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةِ وَالِدِي أَنْ لَمْ تُطَارِي
وَبَيْتِكَ أَصْلِحِيهِ وَلَا تَخَافِي عَلَى صُفْرِ مُزْغَبَةٍ صِغَارِ
فَأَنَّكَ كُلَّمَا غَنَيْتِ صَوْتًا ذَكَرْتُ أَحَبَّتِي وَذَكَرْتُ دَارِي

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢) سمي يسار بالنسائي لانه كان يصنع طعام العرس ويبيعه فيشتره منه من اراد ذلك ممن لم تبلغ حاله صنع ذلك في بيته فنسب للنساء

فَأَمَّا يَسْتَلُوكَ طَلَبْتُ نَارًا لَهُ نَبَأًا لِأَنَّكَ فِي جِوَارِي
 وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد
 عليه المهلب فحك له بديهة جارته ، أفلست ترى معنى أن هذا الشعور (١) على هذا
 النحو جديد ، لم أعرفه للعرب قبل ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان
 وقد أسلفنا أن ابن يسار واخوته كانوا شعوبيين يقول أبو الفرج في اسماعيل
 ابن يسار « أنه كان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً
 محروماً مطروداً » فخليق بمثل هذه الأسرة أن تتعصب أيضاً للادب الفارسي كما كانت
 تنزع النزعة الفارسية فن قول اسماعيل يفتخر على العرب

رُبَّ خَالٍ مُتَوَجِّحٍ لِي وَعَمَّ	ماجدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ
لِإِمَّا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرِّ	سِ مِضَاهَاةَ رِفْعَةِ الْأَنْسَابِ
فَاتْرُكِي الْفَخْرَ يَا أَمَامُ عَلَيْنَا	وَاتْرُكِي الْجَوْرَ وَأَنْطِقِي بِالصَّوَابِ
وَأَسْأَلِي - إِنْ جَهَلْتِ - عَنَا وَعَنْكَ	كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّ	وَنَ سِفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي الثَّرَابِ

ولاسماعيل هذا قصيدة طويلة لطيفة تقرأ فيها روح القصص الفارسي ، وجودة

التسلسل للنطق مطلعها

كَلَّمْتُمْ أَنْتِ الْهَمُّ يَا كَلَّمْتُمْ	وَأَنْتُمْوُ ذَانِي الَّذِي أَكَلَّمْتُمْ
أَكَلَّمْتُمِ النَّاسَ هُوِي شَفِي	وَبَعْضُ كِتَابِنِ الْهُوِي أَحْزَمُ
قَدْ لُمْتِنِي ظُلْمًا بِلَا ظَنَنَةٍ	وَأَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا أَلْوَمُ

(١) لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لانه في جواره اذ يظهر ان هذا كان عند العرب في الجاهلية ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالى يطلب الدية

وفيها يقول :

لا تَنْزُكِيْنِي هَكَذَا مِيْتًا لا أُمْنَحُ الْوَدَّ وَلَا أُصْرَمُ
أَوْفِي بِمَا قُلْتِ وَلَا تَنْدَمِي انَّ الْوَفَى الْقَوْلِ لَا يَنْدَمُ

ثم يقول :

أَخَافَتُ الْمَشَى حِذَارَ الْعِدَى وَاللَّيْلُ دَاجٍ حَالِكٌ مُظْلِمٌ
وَدُونَ مَا حَاوَلْتُ إِذْ زُرْتُكُمْ أَخُوْكَ وَالْحَالُ مَعًا وَالْحَمُّ
وَلَيْسَ إِلَّا اللهُ لِي صَاحِبٌ إِلَيْكُمْ وَالصَّارِمُ اللَّهُمُّ
حَتَّى دَخَلْتُ الْبَيْتَ فَاسْتَدْرَفْتُ مِنْ شَفَقِ عَيْنَاكِ لِي تَسْجِمُ
ثُمَّ انْجَلَى الْحُزْنُ وَرَوَّعَانُهُ وَغَيْبَ الْكَاشِحِ وَالْمُبْرِمِ

الى آخر الأبيات ^(١) ولأبراهيم أخيه كذلك شعر يعترف فيه بالعجم ويفخر به

على العرب

أضف الى هذا أن كثيراً من الشعراء والأدباء من العرب كانوا ينزلون فارس أو العراق ويخالطون أهلهم ، ويرون مدينتهم ، فيكون لها الأثر في شاعريتهم ، فكان ينزل العراق الطرمي مآح والكميت وأبو النجم الراجز وجبر والقرزديق ، وكان ينزل خراسان نهار بن توسعة وثابت قطنه وابن مفرغ الحميري والمغيرة بن حبان وغيرهم ، ولا يخفى ما للبيئة من تأثير في النفس والخيال

(الثاني) الوجه الثاني من وجوه تأثير الأدب الفارسي الناحية اللغوية ، فقد علمت أن العرب في جاهليتها كانت غنية في شؤون الحياة البدوية وما يتصل بها ، فلما فتحوا فارس وكثيراً من بلاد الروم رأوا من أدوات الزينة والترف ما لم يكونوا

(١) تمجد هذه القصيدة في الاغانى جزء ٤ ص ١٢١ و١٢٢

قد رأوا ، ورأوا من الحرف الدقيقة والفنون الجميلة ما لم يعهده ، كما رأوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يكن يخطر لهم على بال ، — فاضطروا أن يقتبسوا من الأمم المفتوحة ألفاظاً يدخلونها في لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب منبع يستمدون منه ما يحتاجون إليه ، فأخذوا منهم الكوز والجرة والابريق والطنست والخوان والطبق والقصعة والخز والديباج والسندس والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوج واللوزينج والفلفل والزنجبيل والقرفة والزرجس والنسرین والسوسن والمسك والعنبر والكافور والصنل والقرنفل والبستان والارجوان والقرمز والسرراويل والاستبرق والتنور والجوز واللوز والدولاب والميزاب والزئبق والباشق والجاموس والطيلسان والمنطيس والمارستان والصك وصنجة الميزان والصولجان والكوسج ونوافج المسك والفرسخ والبند وهو العلم الكبير والزمرد والآجر والجوهر والسكر والطنبور^(١) الخ ونظرة عامة الى هذه الأسماء تريك أن العرب اضطروا الى أخذ كلمات فارسية في كل مرفق من مرافق الحياة ، ولا بد أن يكونوا قد أخذوا منهم تراكيب للجمال جديدة ومعاني جديدة وخيالاً جديداً ، ولكن من العسير تعيين ما أخذوه من هذا النوع بالدقة لأن المعاني والخيال وما إليها مما يُسرق وقل أن يضبط ، ولم تسجل أمة معانيها وخيالها كما تسجل ألفاظها

(الثالث) الحكيم — كان للفرس أثر كبير في الأخلاق الإسلامية والآداب من ناحية حكمهم ، ذلك أن الأخلاق الإسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات أولها التعاليم الدينية كالتى وردت في القرآن « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » « اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » « لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » « يَا أَيُّهَا

(١) أنظر فقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطي والمخصص في الطعوم وآلات الغناء

الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» الى كثير من أمثال ذلك ، وكالتى وردت فى الأحاديث « أَحِبَّ لِأُحِيكَ كَمَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ » وكما روى من تعاليم السيانات السابقة كالتوراة والانجيل وأمثال سليمان ونحو ذلك ، — ثانيها — فلسفة اليونان وذلك بما نقل منها فى العصر العباسى ، ومن الأمثلة على ذلك ما تقرأه فى كتاب ابن مسكويه من شرح نظرية أرسطو فى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، ومن نظرية أفلاطون فى أسس الفضائل الأربعة وهى الحكمة والفة والشجاعة والعدل ونحو ذلك — ثالثها — وهو الذى يهمننا هنا — نوع من الحكم والجل القصيرة تصاغ صوغ الأمثال ، أو حكايات تنقل فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم والحكام فى زمنهم وما جرى على ألسنتهم ، وهذا النوع غمر كتب الأدب ، وتأثرت به الأخلاق فى الاسلام أكثر من تأثرها بالفلسفة اليونانية ، ذلك لأنه أقرب الى العقل العربى ، فقد أبنت لك قبل أن العقل العربى لا يميل كثيراً الى البحث المنظم المفصل ، ويفضل أن تركز تجارب السنين الطويلة فى الكلمات القصيرة. وتؤلف من ذلك جمل ، كل جملة فى معنى خاص ، فكلمة فى الشجاعة وكلمة فى الكرم وثالثة فى الوفاء ، فأما أن تذكر الشجاعة وتفضل وينظر اليها من جميع نواحيها وفى الأسباب الباعثة عليها ونحو ذلك فهذا بعيد عن النوق العربى والعقل العربى وهو بالعقل اليونانى أشبه — من أجل هذا لما عثر العربى على هذا النوع من الحكم أعجب به ونقله وأضافه الى ما كان له فى الجاهلية ، وكان للفرس فى ذلك الشئ الكثير ، اما مبتكر من عند أنفسهم ، أو منقول من الهند عن طريقهم ، وأوضح مثل لذلك الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع الفارسى ، هذا فى العصر العباسى ، وقبله فى العصر الأموى كانت هذه الحكم تنقل ويتداولها العلماء ويتأدب بها الناس كما ترى فى كثير من كلمات الحسن البصرى الفارسى ، وتجد كثيراً منها فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة وسراج

الملوك للطرطوشى والتاج والعقد الفريد

ومما يلاحظ هنا أن الذوق العربى فى هذا النوع من الحكم يشبه مشابهة تامة الذوق الفارسى ، فالحكم التى تنسب لأكثم بن صيفى فى الجاهلية والامام على فى الاسلام والتى تنسب لسادات العرب كالأحنف بن قيس وروح بن زنباع تشبه فى قولها وصيغها واتجاه النظر فيها ما يروى فى كتب الأدب عن بزرجهر وإبرويز ومويذ موبدان ونجوم حتى لقد عقد ابن عبد ربه فصلا فى كتابه العقد الفريد تحت عنوان « أمثال أكثم بن صيفى وبزرجهر » ولم يبين مالكل منهما فكان من الصعب التمييز فى أكثرها بين ما هو لأكثم وما هو لبزرجهر (١)

والآن أقص عليك نموذجا صغيراً من هذه الحكم الفارسية :

(١) قال بزرجهر « اذا اشتبه عليك أمران فلم تدر فى أيهما الصواب فانظر

أقربهما الى هواك فاجتنبه »

(٢) كتب إبرويز الى ابنه شيرويه « اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك على الكثير منها ، فاذا لم يُطعم منك فى الصغير لم يُجترأ عليك فى الكبير . وأبرد البريد فى درهم ينقص من الخراج ، ولا تعاقبن على شئ كعقوبتك على كسره ، ولا ترزقن على شئ كرزقك على أرجائه ، واجعل أعظم رزقك فيه وأحسن ثوابك عليه حقن دم العزجى وتوفير ماله من غير أن يعلم انك أحمدت أمره حين عفا واعتصم من أن يهلك »

(٣) قال كسرى لبيوشت المغنى وقد قتل فهلوذ (فى رواية الأغاى فهليذ) حين فاقه وكان تلميذه « كنت أستريح منه اليك ومنك اليه فأذهب شيطرا تسمى خسدك ونقل صدرك » ثم أمر أن يلقى تحت أرجل الفيلة فقال « أيها الملك اذا

قتلتُ أنا شطر طربك وأبطلته وقتلت أنت شطره الآخر وأبطلته أليست تكون
جنايتك على طربك كجنايتي عليه؟ قال كسرى دعوه ما دله على هذا الكلام الا
ما جعل له من طول المدة»

(٤) قال كسرى «احذروا صولة الكريم اذا جاع واللثيم اذا شبع»

(٥) قال أردشير بن بابك، ان للاذان حجة والقلوب مللا ففرقوا بين الحكمتين

(٦) «في سير العجم أن رجلا وشى برجل الى الاسكندر فقال أحب أن

تقبل منه عليك ومنك عليه؟ قال لا، قال فكف الشتر فكف عنك الشر»

الى كثير من أمثال ذلك شحنت بها كتب الأدب

(الرابع) هناك أمر آخر فارسي كان له أثر كبير في حياة الأدب العربي ذلك

هو الغناء فالظاهر أن العرب أخذوا كثيراً من النغمات الفارسية ووقعوا عليها شعرهم

العربي، قال أبو الفرج في كتابه الأغاني

سعيد بن مسجح . . . مولى بنى مُجَحَّح . . . مكىَّ أسود مغن متقدم من فحول

المغنين وأكابرهم، وأول من صنع الغناء منهم، ونقل غناء الفرس الى غناء العرب

ثم رحل الى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والاسطوخوسية وانقلب الى فارس،

فأخذ بها غناء كثيراً وتعلم الضرب ثم قدم الى الحجاز، وقد أخذ محاسن تلك النغم»

والتقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم

خارجة عن غناء العرب، وغنى على هذا المذهب فكان أول من أثبت ذلك ولحنه

وتبعه الناس بعده»

وحكى رواية أخرى «وهي أن ابن مسجح مر بالفرس وهم يبنون المسجدي

الحرام فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه في شعر عربي —

ألميم على طلك عفا متقاديم — الإبيات

وحكى أن مولى ابن مسجح سمعه يتغنى ، فسأله أنى لك هذا ؟ قال سمعت هذه الاعاجم تتغنى بالفارسية فتثقتها وقلبتها فى هذا الشعر قال له فأنت حر لوجه الله فلم يمولاه وكثر أدبه ، واتسع فى غنائه ومهر بمكة »

وفى رواية ثالثة عن صفوان الجمُحى عن أبيه قال « أول من نقل الغناء الفارسى الى الغناء العربى سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم — وذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما بنى دوره . . . جعل لها بنائين فرُسا من العراق فكانوا يبنونها بالجنس والآجر ، وكان سعيد بن مسجح يأتهم فيسمع من غنائهم على بنياتهم ، فاستحسن من ألحانهم أخذه ونقله الى الشعر العربى ثم صاغ على نحو ذلك »^(١)

وذكر فى موضع آخر « أن ابن محرز كان أبوه من سدنة الكعبة ، أصله من الفرس ، وكان أصغر أجنى طويلا — وكان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فاذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عزّة الميلاء ، ثم يرجع الى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص الى فارس فيتعلم ألحان الفرس ، ثم صار الى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم ، فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ، وأخذ محاسنها فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع بمثله ، وكان يقال له صنّاج العرب وهو أول من غنى بزواج من الشعر بعمل ذلك بعده المغنون اقتداء به ، وكان يقول الأفراد لا تتم بها الألحان وذكر أنه لأول ما أخذ الغناء أخذَه عن ابن مسجح »^(٢)

« وقال ابن خرداذبه كان عبد الله بن عامر اشترى اماء نائحات ، وأتى يهن الى المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن ثم قدم رجل فارسى يعرف بنسب فغنى ، فأعجب عبد الله بن جعفر به ، فقال له « سائب

(١) الاغاني جزء ٣ ص ٨١ وما بعدها (٢) الاغاني جزء ١ ص ١٤٥

خَاتِرٍ « (وهو مولى أيضاً من فء كسرى) أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى وقد صنع — لِمَنِ الدِّيَارُ رُسُومَهَا قَفْرُ — قال ابن الكلبي وهو أول صوت غنى في الاسلام من الغناء العربي »^(١)

ترى من هذا كيف كان للفارس أتركبير في النغمات العربية وفي التوقيع ، وليس هذا يهمننا كثيراً الآن لأنه ألصق بالقرن ، ولكن الذي يهمننا فوق هذا أن العرب نقلوا أيضاً عن الفارس صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه ، فكانت — عدا أنها مجالس للغناء — مجالس للأدب ، يُصَفَّى لها الشعر ويُرَقَّق حتى يتفق والنزوق الموسيقى ، أضف الى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالس من محاضرات أدبية ، وقصص جميل ، وفكاهات رائقة ، وتنازُر ممتع ، وتسابق بين الشعراء والادباء للظهور فيها ، ونيل الخطوة وناهيك بما كان لهذه المنتديات الأدبية من فضل على الأدب ، ومباراة في تهذيبه وتجديده

ودليلنا على نقل هذه المجالس عن الفارس ومحاكاة العرب لهم ما ذكره صاحب التاج (أخلاق الملوك) من حديث طويل يقتصر منه على ما يهمننا ، فقد عقد باباً سماه باب المندامة قال فيه « ولنبداً بملوك الأعاجم اذ كانوا هم الأوَّل في ذلك ، وعندهم أخذنا قوانين الملوك والملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية والزام كل طبقة حظها ، والاقترار على جديلتها (شاكلتها) » ثم ذكر ما كان يفعله ملوك العجم مع الندماء من تقسيمهم الى طبقات ومراتب ، وبجلس كل طبقة من هؤلاء — وقال « وكانت ملوك الأعاجم من لند أردشير بن بابك الى يز دجر د تحتجب عن الندماء بستارة ، فكان يكون بينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعاً ، لأن الستار من الملك على عشرة أذرع ، والستار من الطبقة الأولى على عشرة أذرع

وكان يأتيهم الأمر من الملك بما يفعلون وما يغنون » ثم قال
« قلت لاسحاق بن ابراهيم : هل كانت الخلفاء من بنى أمية تظهر للندماء
والمغنيين قال « أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد
فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله
الخليفة اذا طرب للمغنى والتدّه ، حتى ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد
حيث لا يراه الا خواص جواريه ، الا أنه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت
أو نغيز طرب ، أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة حسبك
يا جارية كفى . انتهى . أقصرى . يوم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى ،
فأما الباقون من خلفاء بنى أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا
عراة بمحضرة الندماء والمغنيين » ^(١) وقد ذكر بعد مجالس الخلفاء العباسيين مما ليس
من موضوعنا

اذن كان للخلفاء مجالس الغناء واللهو ، وثبت أن هذه المجالس أخذت عن
الفرس ، وأنت اذا قرأت في كتاب الأغاني رأيت أن الولاة وعظماء الدولة كانت
لم كمثل مجالس هي صورة مصغرة لمجالس الخلفاء ، بل تفوقها في حرية القائمين
والمغنيين والسامعين ، واطلاق كل منهم القول على سجيته — وأترك لك تقدير ما
لهذا من تأثير في الأدب والفن

(الخامس) يظهر لنا أنه في أواخر عهد الدولة الأموية حوّل الفرس الكتابة
العربية الى نمط آخر لم يكن يعرفه العرب ، وهو نوع الكتابة التي اشتهر بها عبد الحميد
الكاتب ومدربته ، فقد كان عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية
ويقول صاحب المقدم « أنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ثم لم يزل كاتباً لخلفاء

(١) التاج ص ٢١ وما بعدها

بنى أمية حتى انقضت دولتهم » ويقول ابن خلكان « انه كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب اماماً . . . وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . . . وهو أول من أطلال الرسائل واستعمل التحديدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده »^(١) وقال الشَّريشي في شرح المقامات « انه أول من فتق أحكام البلاغة ، وأسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر » ووصيته للكتاب — ان صححت — تدلنا على أنه كان الآخذ بزمامهم والراسم لهم طريقهم

ودليلنا على أن منحاه في الكتابة ذو صبغة فارسية ما حكاه ابن خلكان « من أن عبد الحميد من الموالى وأصله من الأنبار »^(٢) وحكى أيضاً « أنه أخذ الكتاب عن سالم مولى هشام بن عبد الملك » وأصرح من هذا في الدلالة ما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني »^(٣) قال « فمن تعلم البلاغة بلمغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخراج أمثلة الكتابة — التي رسمها — من اللسان الفارسي فحوها الى اللسان العربي — ويدل ذلك على هذا أيضاً أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها ، وللفرس أمثال مثل أمثال العرب معنى وصنعة وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي » اهـ ثم ذكر أمثالا بنصها الفارسي وما يقابلها في اللغة العربية وفاضل بينها

فلعلك تقرأ معي في هذا أن الأدب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة ، وربما كان أدق من ذلك أن تقول أنهما « تفاعلا »

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٣٥

(٢) الانبار مدينة على الشاطيء الايسر للفرات في العمال الشرقى من العراق

(٣) من نسخة خطية بدار الكتب

هذا مختصر للنواحي التي كان لها أثر للفرس في حياة العرب الأدبية ، أما أترم
في تدوين العلوم وما نبغ منهم من علماء في الفروع المختلفة فسنعرض له في
موضع آخر

مصادر هذا الباب

اعتمدنا في الفصل الاول — عدا ما ذكر من الكتب العربية أثناء البحث على :

- 1 Browne, A Literary History of Persia
- 2 Sykes, A History of Persia
- 3 Levy, Persian Literature
- 4 Iqbal, The Development of Metaphysics in Persia

(٥) دائرة المعارف البريطانية في مادة Zoroaster وما في ومزدك

Every man, Encyclopaedia (٦)

وفي الفصل الثاني اعتمدنا على ما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث

الباب الرابع

التأثير اليونانى — الـ ومانى

افصيل الأول

النصرانية

فتح المسلمون البلاد وهى مملوءة بالنصارى فى مصر و بلاد المغرب والاندلس والشام ومصر ، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة الى جملة طوائف ، أشهرها فى الشرق ثلاثة : اليعاقبة — وكانت منتشرة فى مصر والنوبة والحبشة ، والنساطرة^(١) وكانت منتشرة فى الموصل والعراق وفارس و — المَلْكَانِيَّةَ — وكانت منتشرة فى بلاد المغرب وصقلية والأندلس والشام — وكان بين هذه المذاهب جدال فى العقائد الدينية ، فاليعاقبة كانوا يرون أن المسيح هو الله ، وأن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، والملكانية والنساطرة قالوا ان للمسيح طبيعتين متميزتين الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية ، — وان اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك من التفاصيل — وقد استمر الخلاف بين هذه الفرق فى : هل اللاهوتية وما للناسوتية من ارادة وفعل متحدتان فى المسيح أو مختلفتان ؟ قالت اليعاقبة بالأول ،

(١) هم أتباع لسطور وقد كان بطريقاً للقسطنطينية فى بعض أيامه ومات فى منفاه حول سنة ٤٥٠ م وليس كما زعم الصهرستاقى أنه ظهر فى عصر المأمون

وقالت النساطرة ان للمسيح ناسوتية لها ارادة ولها فعل يختلف كل الاختلاف عن
العنصر اللاهوتي (١) - واختلفوا في تصوير اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فقال
اليعاقبة كاتحاد الماء يلقي في الحتر فيصيران شيئاً واحداً ، وقالت النسطورية كاتحاد
الماء يلقي في الزيت فكل واحد منهما باق بحسبه ، وقالت الملكانية كاتحاد النار في
الصفحة المحماة (٢)

وقد سقنا هذا لنبين أن الفرق النصرانية المنتشرة في البلاد التي فتحها المسلمون
كانت مختلفة ، وكانت تتجادل في العقيدة في الله جدالاً شديداً ، والقرآن نفسه
حكى شيئاً عن بعض أقوال هذه الفرق وردّ عليها ، فقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ » وقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَاثَةٍ » وقال يخاطب عيسى عليه السلام « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ »

ولم يقتصر النزاع بين النصارى على العقيدة في الله بل اختلفوا في مسائل أخرى
كثيرة : هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة أولاً ينزل ؟ وهل الحشر يكون
للارواح والأبدان أوللارواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله أو هي هي ؟
ومن النسطورية من كان يقول بالقدر خيره وشره ، الى غير ذلك من أقوال تسرب
منها الى المسلمين كثير وأثار بينهم الجدل ، وحق قول النبي صلى الله عليه وسلم
« لَتَرَكِبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ » وسترى أثر ذلك واضحاً
في الفرق الاسلامية

وقد لجأت النصرانية الى الفلسفة اليونانية لتستعين بها على الجدل . ولتؤيد

(١) أنظر Boer في الفلسفة الاسلامية ص ١٢

(٢) ابن حزم في الملل والنحل جزء ١ ص ٥٣

تعالمها وعقائدها أمام الوثنيين — أولاً — ثم أمام المسلمين أخيراً ، فكان كثير من رجال الدين فلاسفة كالأب أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) « وكانت الاسكندرية هي المركز الجغرافي لمزج الدين بالفلسفة ، فبعد أن كانت مدينة المتحف ، والمدينة المعروفة عن أهلها النقد وسعة الاطلاع أصبحت مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم ، متباينة مذاهبهم ، تبادلوا فيها الآراء كما كانت تُتبادل السلع ، فانتسعت دائرة الفكر ، وقورن بين الآراء المختلفة ، وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد أسس على مبدأين متناقضين متميزين : أحدهما الشك والنقد ، والثاني سرعة التصديق ، تقابلت في الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين « اليونان » ، فامتزج روح اليونان بروح المشاركة ، فأنتجا عقائد ونظماً دينية متأثرة بتأمل الأوابين والحلم الآخرين ، بما لليونان من علم ، وما للمشاركة من أساطير ، جاء الروح اليوناني بما له من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين فأصابته شرارة من الشرق أشعلته وأحيتة ، كذلك أخرج الروح الشرقى — الذى من خصائصه الطموح الى ما وراء عالم الشهادة — نظاماً ملتبساً ونظريات مرتبة لم يكن ليخرجها لولا مساعدة العلم اليوناني له — فانه رتب مآثور الشرقيين ، وحل من عقدة لسانهم ، فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي بلغت الذروة في مذاهب الفنونسطية والأفلاطونية الحديثة ، ويهودية فيلون ، ومذهب الاشراك الذى وضعه يولييان الصابى . ان الشرقى بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات ، وما فى طبيعته من تصوف وتدين ، واليوناني بما له من فخص دقيق وبحث عميق ، وان شئت فقل ان ما للاول من شعور وما للثانى من تحليل منطقي ، امتزجا وبتج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الاولى لليلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين ، صبغة الكاليين والصوفيين

وصبغة أهل البحث العلمي ، ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة الى الدين وميل الدين الى الفلسفة « (١)

الفصل الثاني

الفلسفة اليونانية

في العصور الأولى للمسيح ظهر في الاسكندرية المذهب المعروف « بالأفلاطونية الحديثة » — وكان لهذا المذهب أثر كبير في فلاسفة المسلمين وعلماء الكلام وخاصة المعتزلة والصوفية

مؤسس هذا المذهب « أمْنِيُوسُ سَكَّاس » كان أول أمره حَمَلاً ثم صار معلم فلسفة في الاسكندرية ، وقد ولد من أبوين نصرانيين ، ولكنه صبأ الى الدين اليوناني القديم ، وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم أفلاطون وارسطو ، ولم يؤثر عنه أى كتاب ، ولذلك كانت معلوماتنا عن تعاليمه قليلة ، ومات سنة ٢٤٢ م ، ويُعد تلميذه « أفْلُوطِين » منظم هذا المذهب ، وأكبر مؤيديه والمدافعين عنه بل ربما عدّه هو مؤسسه ، وقد ولد سنة ٢٠٥ م في ليكو بوليس Lycopolis (أسيوط) وتعلم في الاسكندرية ولازم أمْنِيُوس نحو احدى عشرة سنة ، وقد التحق بحملة سارت لغزو فارس ليتعرف علوم الفرس والهنود ، وسافر الى رومة سنة ٢٤٥ م وأسس بها مدرسة للفلسفة ومات سنة ٢٧٠ م والعرب لم تعرف كثيراً عن أفلوطين هذا ، ولكن تعرف مدرسته وتطلق عليها « مذهب

(١) كتاب مبادئ الفلسفة — تعريبي

الاسكندرانيين» ويطلق عليه الشهرستاني «الشيخ اليوناني» وقد نقلت اليهم كثير من فلسفته معزوة خطأ الى غيره — وقد ألف أفلوطين كتباً كثيرة حفظت عنه، ويطلق عليها عادة اسم (التاسوعات) «إنيد» Enneads، — وتفرع مذهبه الى فروع كثيرة فكان منه فرع في الاسكندرية، وفرع في الشام وفرع في أثينا— وله آراء في الطبيعة لا تهمننا الآن، وله آراء في الالهيات نذكر طرفاً منها يقول ان هذا العالم كثير الظواهر، دائم التغير، وهو لم يوجد بنفسه، بل لا بد لوجوده من علة سابقة عليه هي السبب في وجوده، وهذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد، لا تدركه العقول ولا تصل الى كنهه الأفكار، لا يحده حد، وهو أزل. أبدى قائم بنفسه، فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني، خلق الخلق ولم يَحْلُ فيما خلق، بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه، ليس ذاتاً وليس صفة، هو الارادة المطلقة، لا يخرج شيء عن ارادته، هو علة العلل ولا علة له، وهو في كل مكان ولا مكان له

كيف نشأ عنه العالم؟ وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذي لا يلحقه تغير؟ كان هذا العالم غير موجود ثم وجد فهل يمكن أن يصدر عن الخالق ذلك من غير أن يحصل تغير في ذاته؟ كيف يصدر هذا العالم القاني من الله غير القاني؟ هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير أو من غير روية؟ ولم وجد الشر في العالم؟ ما النفس وأين كانت قبل حلولها بالبدن وأين تكون بعد فراقه؟

هذه المسائل وأشباهاها كانت من أهم المسائل التي شغلت أفلوطين ومدرسته. وثار حولها الجدل وذهبوا فيها مذاهب يخرج بنا شرحها عما رسمنا، وانما أشرنا اليها لنبين فيم كان هذا العالم العلمي يبحث ولستطيع بعد أن نعرف أثرهم

وكان هذا المذهب الاسكندري في أول أمره يميل الى البحث والتفكير العقلي المحض ، ثم أخذ ينصر الوثنية اليونانية ، ويقاوم النصرانية ، ثم انحدر الى أن اقتصر على الشغف بالاطلاع على المغيبات ، وخوارق العادات ، والاعتناء بالسحر ، والتصرف بالأسماء ، والطلاسم والكهانة والتنجيم والدعوات والعزائم ونحو ذلك

ولما انتصرت النصرانية وجاء « جوستنيان » أغلق مدارس الفلسفة في أثينا ، واضطهد الفلاسفة ، فذهب من فر (ومن هؤلاء سبعة سافروا الى فارس فاستقبلهم كسرى أنوشيروان واحتفى بهم وأرزم منزلًا كريمًا ، وجعل من شروط الصلح مع جوستنيان أن يُعنى بهم — وكان هؤلاء السبعة من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة) ومنهم من تنصر ، وبعض المنتصرين أخرجوا كتبًا في الأفلاطونية الحديثة مصبوغة بالصيغة النصرانية ، ككتاب ديونيسيوس ألفه أفلوطيني مجهول في منتصف القرن السادس للمسيح باسم ديونيسيوس ادعى أنه من تلاميذ پولس الحواري ، وقد شرح أسرار الرابوية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الافلوطيني فصار من ذلك الوقت عمدة للنصارى في ذلك ^(١) — ثم دخل هذا المذهب في الاسلام عن طريق فريق من المعتزلة والحكماء والصوفية ، ومنهم أخذت جل أفكارهم جماعة اخوان الصفا وغيرهم

السريانيون — قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة في العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية الى

(١) قد طبع في برلين كتاب اسمه « أولوجيا » أرسططاليس سنة ١٨٨٢ وهو في الاهيات ، تفسير فوفوريوس الصوري ، نقله الى العربية عند المسيح الحمصي ابن الناعمي وأصلحه يعقوب الكندي — والحق أنه ليس على مذهب ارسطو وإنما هو على مذهب أفلوطين فان فورفوروريوس هذا تلميذ أفلوطين وتوفى سنة ٣٠٤ م وألف هذا الكتاب على مذهبه

لغتهم السريانية ، وهي إحدى اللغات الآرامية ، انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها ، وكان من أهم مراكزها الرها (Edessa) ونصيبين — وفوق هذا كانت هي لغة الأدب والعلم لجميع كتّاب النصرانية في أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس ، وأنشئت في هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلم فيها اللغة السريانية واليونانية جميعاً في الرها وفي نصيبين وفي جنديسابور

بل كانت اللغة السريانية أيضاً لغة الوثنية وآدابها ، وأشهر مراكز الوثنية السريانية مدينة حرّان (في جنوبي الرها) وقد ظلت هذه المدينة مركزاً للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى ما بعد الاسلام ، فكانوا بعد الفتح الاسلامي يدرسون الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطوني ، وهم الذين تسموا بعد ذلك في القرن التاسع والعاشر الميلادي بالصّابئين ، وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة بعدُ

وقد عاشت الآداب السريانية من القرن الثالث الميلادي الى القرن الرابع عشر ، ولكن حياتها بعد الفتح الاسلامي كانت حياة ضعيفة لغزو اللغة العربية لها وغلبتها ، وبقي لنا من الأدب السرياني مجموعة في مختلف أنواع الكتابة ، ولكن الذي بقي منها انما هو من المدرسة النصرانية لا الوثنية ، فهناك كتب في الصلوات والادعية الدينية ، والأقاويص التاريخية ، والتاريخ العام ، والفلسفة والعلوم ، وكلها مصبوغ بالصبغة الدينية لأن أكثر الكتّاب كانوا قسيسين ورهباناً — وهناك قليل من الآثار الأدبية نظماً ونثراً

وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا أكثر مما ألفوا ، فلم ينتكروا كثيراً وحفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها ، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هي الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم ، وقد كانت الترجمة السريانية في عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً ثم تحرر الكتّاب المتأخرون من حرفية الترجمة

وكان هؤلاء السريانيون يناقون العلوم اليونانية بدقة وأمانة فيما لم يمس الدين ، كالنطق والطب والرياضة ، أما الالهيات ونحوها فكانت تعدل بما يتفق والمسيحية ، حتى لقد حوّلوا أفلاطون في كتابتهم الى زاهب شرقى ، فقالوا انه بنى لنفسه معبداً في برية بعيداً عن الناس وظل يتعبد فيه سنين — وهذه هي الطريقة التي سلكها المسلمون بعد ، فقد أغفلوا من الالهيات كثيراً مما يخالف تعاليم الاسلام ولم يقتصر السريانيون على الترجمة من اليونان بل ترجموا كذلك من الفهلوية فترجموا منها تاريخ الاسكندر ، نقله الفرس عن اليونانية ثم نقله السريانيون من الفهلوية ، وكذلك ترجموا كلية ودمنة الى السريانية في القرن السادس الميلادى وقصة السندباد في القرن الثامن

ومن أشهر رجال الدين والأدب من السريانيين الذين يعرفهم المسلمون بآرديسان أو ابن ديسان Bardaisan (مات سنة ٢٢٢م) وديسان اسم نهر نسب اليه وله مذهب ديني مزج فيه الوثنية بالنصرانية كإفعل مانى ، وكان ينكر بعث الأجسام ، ويقول ان جسد المسيح لم يكن جسماً حقيقياً بل صورة شُهِت للناس أرسلها الله تعالى ، وله تعاليم كثيرة بقيت بعد ظهور الاسلام ، ومنها استمد الرافضة بعض أقوالهم ، واتسب اليه بعضهم كأبي شاعر الديصاني ، وأخذ علماء الكلام في الرد عليهم ، وهم يكتبون عن أتباعه تحت اسم « الديصانية »

ومن أشهرهم أيضاً سِرْجِيسُ الرَّسَعَنِيّ من مدينة «رأس عين» وقد مات سنة ٥٣٦ م ، وهو من أشهر المتأديين بالأدب اليونانية ، وترجم منها الى السريانية كتباً كثيرة بعضها محفوظ الى عهدنا في المتحف البريطاني ، منها رسائل لارسطو ولفورفُورِيُوس ، وجليانوس ، وألف رسالة في المنطق ليست كاملة تبحت في المقولات العشر ، والإيجاب والسلب ، والجنس والفصل الخ وألف رسالة أخرى في تأثير القمر وفي حركة الشمس - وقد انتشرت كتبه بين اليعاقبة والنساطرة وعدّوه عمدتهم في المنطق والطب

وألف غير سرجيس كثير من - في هذا العصر - في النفس والقضاء والقدر والنحو وفي أن الانسان عالم صغير وفي تركيب الانسان من جسم وروح الخ ولما فتح المسلمون هذه البلاد في القرن السابع الميلادي أسلم بعض السريانيين وظل بعضهم محافظاً على دينه يدفع الجزية ، ولكن الأدب السريانية على الجملة أخذت في الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم في العصر الأموي والعباسي ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة في عهد السولة الأموية كما كانت ، ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون في شؤونهم الا عند ما يحتدم النزاع الديني بينهم فيلجأ بعضهم الى الولاة يستنصرهم

واشتهر من هؤلاء ، في العصر الأموي يعقوب الرُّهَّاءَوِيّ (٦٤٠ - ٧٠٨ م تقريباً) وقد ترجم كثيراً من كتب الالهيات اليونانية ، ويعقوب هذا أثر كبير الدلالة ، فقد أُثِرَ عنه أنه أفقَى رجال الدين من النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراق - - وهذه الفتوى تدل من غير شك على اقبال بعض المسلمين في ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم وتردد النصارى أولاً في تعليمهم ولما جاء دور نقل الفلسفة والعلوم الى العربية في العهد العباسي كان هؤلاء

السريانيين الفضل الأكبر في الترجمة أمثال حنين بن اسحاق وابنه اسحاق وابن أخته حبيش مما نعرض اليه في موضعه ان شاء الله

الآن نستطيع أن نفهم أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق والشام والاسكندرية ، وان المدارس انتشرت فيها على يد السريانيين — وان هذه المدارس وهذه التعاليم أصبحت تحت حكم المسلمين ، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على النحو الذي شرحته ، فكان من نتائج هذا أن تشعبت هذه التعاليم في المملكة الاسلامية ، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة ، فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربية أو الاسلامية ، ونتاجت المذاهب الدينية والفلسفة الاسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية

والعرب أنفسهم اتصلوا بهذه الثقافات من قديم ، فالقنطري في كتابه أخبار الحكماء يحدثنا « أن الحارث بن كعدة كان من تقيف من أهل الطائف ، رحل الى أهل فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية وقبل الاسلام ، وأجاد في هذه الصناعة ، وطب بأرض فارس ، وعالج وشهد أهل بلد فارس ممن رآه بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته ، وسمي مولاه هي أم زياد بن أبيه » اه

وابن أبي أصيبعة يقول في كتابه « طبقات الاطباء » أن النضر بن الحارث بن كعدة ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم سافر البلاد كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأبحار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جلييلة القدر ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان

يعلمه من الطب وغيره ، وكان النصر يؤتى أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم . . . واعتقد النصر أنه بمعلوماته وفضائله يستطيع أن يقاوم النبوة ، وأين الثريا من الثرى » اه

وبعد الاسلام استمر هذا الاتصال ، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية « كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس المذكور (كندا) الرومي ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ماجرى له مع مريانس المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها »^(١) ويقول ابن النديم أن خالداً عنى باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتاب الحرات — كتاب الصحيفة الكبير — كتاب الصحيفة الصغير — كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة »^(٢) ومات خالد سنة ٨٥ هـ أو ٧٠٤ م

من هذا جميعه نرى أن الثقافة اليونانية — كالثقافة الفارسية كانت مبثوثة بين المسلمين في البلدان المختلفة ، وكان منالها منهم قريباً ، وأنهم أخذوا يستفيدون منها ويتعلمونها على المثقفين بها ، ولو لم يكونوا على دينهم ، كما تدلنا عليه فتوى يعقوب الزهاوى

أضف الى هذا أنه في ذلك العصر وجد الاحتكاك الديني بين المسلمين والنصارى فأخذوا يتجادلون ويتحاجون في العقائد ، ويدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين في

(١) ابن خلكان

(٢) فهرست ابن النديم ص ٣٥٤

هذا العصر واسمه يحيى اللمشقي ألف رسالة على هذا النمط « اذا قال لك العربي
كذا فأجبه بكذا »

اذن فن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعاً كانوا بمعزل
عن حوهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسي ، وأن آراءهم وأدابهم وعلومهم
نبنت وحدها من عقول عربية من غير أن تُعَدَّى بغيرها ، فقد رأينا أنهم حتى في
جاهليتهم لم يكونوا بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام أكثر اتصالاً ، ولا يقدح هذا
في أية أمة ، فالعلم ملك شائع ، ومرفق مباح ، يعترف منه الناس جميعاً ، وليس له
حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية ، انما الذي يقدح في الأمة حقاً أن تغمض
عيونها وتسد آذانها عما حو لها من نظريات وأفكار ، أو أن يدفعها التعصب الأعمى
أن تنسب لأمتها ما ليس لها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق وابتداع ما لم تبتدع

الفصل الثالث

الأدب اليوناني الروماني

كان لليونان أدب غزير المادة متنوع الموضوع ، فقصص خرافية عن آلهتهم الأقدمين ، وشعر وصفي قصصي يصف حروبهم وأبطالهم يسمى شعر الملآم Epic كالإلياذة والأوديسة

وشعر غنائي Lyric يصفون فيه مشاعرهم ويتعرضون فيه للمدح والنفخ والحماسة والغزل والرتاء ونحو ذلك مما تعرض له الشعر العربي

وشعر تمثيلي Dramatic يتخيلون فيه وقعة حربية أو نحوها كما يتخيلون رجالها ثم يعمدون الى تصوير الحوادث ، ويضعون على لسان رجالها ما يتناسب مع شخصياتهم

ولهم في هذه الأنواع كلها الشيء الكثير الذي أثر في الأدب الغربي قديمه وحديثه ، ونبغ منهم شعراء عدة في بلادهم وفي مستعمراتهم ، وبقى من شعرهم الى يومنا هذا ما يكفي لتصوير ذلك كله تصويراً بديعاً

ولهم غير الشعر كتابة راقية وخطابة ، وأبحاث وافية منظمة في الكتابة والخطابة وعلم البيان كالذي ترى في أبحاث أرسطو — ولهم مؤرخون أمثال هيرودوتس وتوسيديد كتبوا التاريخ ونظموه بالقدر الذي يسمح به عصرهم

ولما ذهب سلطانهم وأصبحوا أقلية رومانياً ضعفت آدابهم ، ولكن ظل أهم ما وصلوا اليه محفوظاً يتغذى به الرومانيون على نحو ما كان بين الفرس والعرب ، وظهر في هذا العصر أدباء ومؤرخون أمثال بلوتارك ولوسيد

ولكن هل تأثر العرب والمسلمون بهذه الآداب في هذا العصر — أعنى العصر الأموى — كما تأثروا بالفلسفة اليونانية . . . يظهر لنا أن التأثير الأدبى كان ضعيفاً ، فإنا نرى الشعر العربى فى العصر الأموى ظل حافظاً لكيسانه ؛ يترسم الطريق الذى خطه له الشعر الجاهلى فى بحوره وفى قافيته حتى فى موضوعاته — كانوا مقصرين فى الجاهلية فى شعر الملاحم وفى الشعر التمثيلى فظلوا كذلك حتى فى العصر العباسى

ومن العسير العثور على معان يونانية وردت فى شعرهم ، ونقتس فى هذا العصر عن شاعر أصله يونانى أو رومانى تعلم العربية وشعر بها فلا نجد ، مع انا وجدنا كثيراً فيما سبق من أصل فارسى أصبحوا شعراء فى العربية ، ونجد مؤرخى المسلمين فى ذلك العهد تأثروا فى طريقة تدوين الحوادث بالخط الفارسى لا بالخط اليونانى ، ويتجلى ضعف التأثير اليونانى فى العرب بضعف معلومات المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية حتى فى العصر العباسى ، فتاريخ اليونان عندهم يبتدىء بالاسكندر الأكبر أو قبله بقليل ، مع امتلائه بالأساطير الخرافية ، ولم يسمعوا كثيراً بتوسيد ، وقد سمعوا قليلا عن هوميروس ، واستشهدوا منه بشيء قليل مقتضب مضطرب كالذى تراه فى الشهرستانى والكشكول لهما ، الدين العاملى

وعلى الجملة يظهر لنا أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية ، — وعلة ذلك — على ما يبدو لنا — أن العرب وهم العنصر الحاكم كانوا متعصبين جد التعصب لشعرهم ، لا يسمحون فيه بابتكار أو تحوير فى الأساس ، فنظّم البيت ، وبجر الشعر ، وقافية القصيدة ، ونحو ذلك أشياء مقدسة لا يصح أن تمس بسوء ، بل الموضوعات التى يقال فيها الشعر كذلك ، فتحرير القافية من قيودها الثقيلة ، وزيادة بحور على البحور التى قال فيها الجاهليون

مها كانت موسيقى البحور الجديدة مطربة ، والقول في موضوعات جديدة لم تُؤَلَّفَ ، كل هذه كانت في نظرهم انتهاكا لحزمة الأدب ، بل هم كانوا حريصين في تقاليدهم على ما دون ذلك ، ولعل خير ما يمثل هذا ما جاء في طبقات الشعراء لابن قتيبة « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي على مشهد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفها لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى المدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة^(١) والعرار ، قال خلف الأحمر قال لى شيخ من أهل الكوفة أما عجبت من الشاعر قال — أَنْبَتَ قَيْصُومًا وَجَشَّجَانًا — فاحتَمِلَ له وقلت أنا — أَنْبَتَ إِجَاصًا وَتَفَاحًا — فلم يُحْتَمَلْ لى — وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا قال الخليل بن احمد أنشدنى رجل

— تَرَأَفَ العَرِ بِنَا فَارْفَنَعَا — فَقُلْتُ لَيْسَ هَذَا شَيْئًا ، فقال كيف جاز للعجاج أن يقول — تَقَاعَسَ العَرِ بِنَا فَاقْعُنَسَا — ولا يجوز لى « (٢) اه

فترى من هذا الى أى حد وصل العرب في المحافظة على تقاليد من قبلهم ، حتى يلجئهم ذلك الى أن يصفوا ناقة وبعيراً وهم انما يركبون بغلا وحماراً ، ويدعوا أن الأرض أنبتت قيصوماً وجشجاناً وهى انما أنبتت اجاصاً وتفاحاً ، ولا يبديحوا لأنفسهم أن يشتقوا كلمة قياساً على اشتقاق مثلها ، فهو لاء لا يكون لهم من الحرية ما يسمح لهم بأن يدخلوا ملاحم لم يكن يعرفها آبائهم ، أو شعراً تمثلياً ينبوعه ذوقهم — والفرس انما أثروا بشيء من معانيهم وخيالاتهم لأنهم هم الذين انتقلوا للعربية ولم

(١) الحنوة نوع من النبات له نور أحمر طيب الرائحة (٢) ابن قتيبة ص ١٦ طبع أوروبا

تنتقل العربية اليهم ، واذ كان اليونان والرومان لم يفتقلوا الى العربية كما أسلفنا لم يكن أثرهم فيهم كبيراً —

وسبب آخر دعا الى تأثرهم بالفارسية أكثر من اليونانية — ذلك أن دولة الفرس ذابت في المملكة العربية ، وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً من أدبهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب ولم تكن تحت أعينهم لينظروها ، ألمة تحالف كل المخالفة تعاليم دينهم ، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها ، وأنواع من اللهو لم يألوهها — والأدب كما علمت انما هو صورة منعكسة للمعيشة الاجتماعية ، فكان لزاماً ألا يتذوق العرب الأدب اليوناني ويتأثروا به

ولا يفوتنا — مع هذا — أن نشير الى أشياء ثلاثة يونانية كان لها أثر في الأدب العربي

(الأول) كلمات أخذها العرب من اليونانية كالفردوس والتسلس (الميزان) والسَّجَنْجَل (المرأة) والبطاقة (الرقعة) والتسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج (مرض) ورووا أن علياً رضي الله عنه سأل شريحاً مسألة فأجابته ، فقال له قالون أي أصبت بالرومية «^(١) الى غير ذلك من الالفاظ (الثاني) ما كان من أثر في الشعر لشعراء النصرانية في الاسلام أمثال الأخطل والقطامي ، وحتى هؤلاء أثر النصرانية في شعرهم قليل حتى يقول الاب لامانس نفسه « ان أثر النصرانية في ديوان الأخطل أثر ضعيف ، ونصرانيته نصرانية سطحية ككحل العقائد الدينية بين البدو »

(الثالث) وهو أكثرها تأثيراً الحكم اليونانية ، وهذا النوع غنى به السريان

(١) التعاليم في فقه اللغة

من قبل العرب ، فنقلوا منه عن اليونانية الشيء الكثير ، ثم أخذه العرب لما كان يتفق وذوقهم الأدبي، فنقل الى العرب حكم نسبت لسقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم ، بعضها تصح نسبتها اليهم وبعضها ليست من أقوالهم عزيز اليهم ، كالذي روي عن أفلاطون أنه قال « اذا أقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات » وقال « من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد ، كما يخدمك في سائر الأشياء ، وإنما تخدمه بنفسك ، ولا يستطيع أحد أن يسلبه اياك كما يسلبك غيره من المقتنيات » وقال « لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة » الخ . وقال ارسطو « اعلم أنه ليس شئ ، أصح للناس من أولى الأمر اذا صلحوا ، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم اذا فسدوا ، فالوالى من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذى لا حياة له الا بها » وقال « لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من اخوانه » وقال سقراط « النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب والنفس الشريرة لا ينجع فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها » وقال « العقول مواهب والعلوم مكاسب »

وروي أن أوميروس جاءه رجل وقال له اهجنى لأفتخر بهجائك اذ لم أكن أهلا لمديحك، فقال له لست فاعلا، قال فاني أمضى الى رؤساء اليونان فأشعرهم بنكولك ، قال أوميروس مرتجلا : بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص فامتنع عليه أنفة منه ، فقال له الكلب اننى أمضى فأشعر السباع بضعفك، قال له الأسد لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إلى من أن ألوث شاربي بدمك . . . الخ الخ وزاد هذا النقل من حكم اليونان على توالى الأيام حتى أفردت لها الكتب كما فعل ابن هندو في كتابه ، ورأيت رسالة طبعت في الجوائب جمعت فيها حكم نسبت لأفلاطون لم يذكر مؤلفها ، وذكر أنها نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٥٨٩٣

وكتب الأدب مشحونة بضروب من هذه الأمثال

الخلاصة

عقلية عربية لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها ، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم ، ودين اسلامي أتى بتعاليم جديدة ، ورسم للحياة مثلاً أعلى يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية ، وفتح اسلامي مدسلطانه على فارس وما حولها وعلى مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم ، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم في المملكة الاسلامية جميعها ، وكوّنَ منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر — كل هذه الأشياء التي عدناها كانت أسباباً لها نتائجها ، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية في ذلك العصر أعنى العصر الذي ينتهي باتهاء الدولة الأموية فهو الذي يعيننا الآن — واذ كنا قد شرحنا بإيجاز هذه الأسباب فلنشرح بإيجاز كذلك هذه النتائج ولنقسمها الى قسمين الحركة العلمية وحركة العقائد الدينية

مصادر هذا الباب

اعتمدنا في هذا الباب على :

- 1 Boer, History of philosophy in Islam.
- 2 Dresser, History of Ancient and medieval philosophy.
- 3 Macdonald, Development of Muslim Theology.
- 4 O'leary, Arabic Thought.

(٥) دائرة المعارف البريطانية في مادة « الآداب السريانية »

(٦) محاضرات الاستاذ سانتلانا في الجامعة المصرية

عدا ما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث

الباب الخامس

الحركة العلمية

وصفها ومراكزها

الفصل الأول

وصف الحركة العلمية اجمالاً

نستعمل هنا الحركة العلمية بأوسع معانيها ، ونعني بها كل ماعنى المسلمون بالتفكير فيه تفكيراً منظماً نوعاً ما ، من تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسير وما الى ذلك ، ولسنا نستثنى الا حركة العقائد الدينية ، وسنفرد لها باباً خاصاً ، والحركة الأدبية وقد كتب فيها جزء خاص — والآن ننظر نظرة عامة في الحركة العلمية من عهد الاسلام الى سقوط الدولة الأموية

الاصية — تركنا العرب في الجاهلية وليس لهم علم ولا فلسفة ، ولم يكن من بينهم من يصح أن يسمى عالماً الا قليل ، وعلى تجوز في اطلاق كلمة عالم ، كالذي حكينا عن الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث

وقد كان الجهل فاشياً فيهم ، والأمنية شائعة بينهم خصوصاً في الأقطار البدوية لما قدمنا من أن الكتابة والعلم انما يكثران حيث يكثر العمران ، ويقول ابن خلدون « ان أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، وهؤلاء تعلموها من الحميريين »

وسواء صح هذا أو لم يصح فالحجازيون والمصريون عموماً كانوا أشد بدواة وأكثر أمية ، حتى يروى لنا البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » « أن الاسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب ، عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وحويطب بن عبد العزى العامري ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت ، ومن خلفاء قريش العلاء بن الحضرمي »^(١) وقليل من نسائهم كن يكتبن كحفصة وأم كلثوم من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم والشفاء بنت عبد الله العدوية ، وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب^(٢) وكذلك أم سلمة ، فإذا كانت قريش — شأنها في الحجاز ما بيننا قبل من تقدمها في الشؤون التجارية — ليس فيها الا سبعة عشر كاتباً كان الكتّابون في غيرها من القبائل المصرية أندر ، ويروى البلاذري أيضاً « أن الكتّاب (يريد الكتابة) بالعربية في الأوس والخزرج كان قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول لجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون وقد عددهم فكانوا أحد عشر^(٣) — ولندرة الكتابة كانوا يلتقبون من جمع بين معرفة الكتابة والرعى والعموم « الكامل » فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عبادة وأسيد بن حضير وعبد الله بن أبي^(٤) وقد رأيت فيما قبل أنه في الجاهلية لُقّب به سويد بن الصامت

(١) فتوح البلدان طبع أوروبا ص ٤٧١ وما بعدها

(٤) ص ٤٧٤

(٣) ص ٤٧٣

(٢) المصدر نفسه

فلما جاء الاسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن ، « فكان أول من كتب له مقدمه المدينة أبي بن كعب الانصارى — فكان أبي اذا لم يحضر دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصارى فكتب له ، فكان أبي وزيد يكتبان الوحي بين يديه وكتبه الى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك — وأول من كتب له من قریش عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم ارتد الخ » (١) ثم كتب له صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وشرحبيل بن حسنه وأبان بن سعيد وخالد بن سعيد والعلاء الحضرمي ومعاوية بن أبي سفيان ، ويروى الواقدي أن حنظلة بن الربيع كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فسمى حنظلة الكاتب

وحق هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة ، ولا كتابتهم سائرة على نخط واحد ، ولا خاضعة لقوانين الاملاء ، فكتبوا « لا أدبجنه بزيادة ألف » ، وكذلك « لا أوضعوا » وكتبوا « بأبيد » يساءين ، وكتبوا « امرأت فرعون » « وقرت عين لي ولك » بناء مفتوحة ، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويهما في نظر الاملاء ، وسبب ذلك كما يعلله ابن خلدون ضعفهم في صناعة الخط ، وأنهم لم يبلغوا حد الأجادة فيها

أُرسلوا في الحركة العلمية — وجاء الاسلام فأفاد الحركة العلمية

من وجوه

(الأول) ان نشر الدين كان يستتبع الحاجة الى القارئ الكاتبين فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لم يعرف ، وقد جاء في حديث اسلام عمر أنه « عمد الى أخته وختنه وعندهما خباب ابن الأرت

معه صحيفة فيها « طه » يُقرُّهُمَا ايها « فكان طبيعياً أن يشجع النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة ، وقد ورد أنه في غزوة بدر « كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة » ، ورأى بعض المسلمين أنهم في حاجة الى الكتابة ليعرفوا دينهم على الوجه الأكمل

بل حث النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الاسلام ، ففي « البخارى » عن زيد بن ثابت قال أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم مَقْدَمَةَ المدينة ، فقيل هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، فقال تَعَلَّمْ كِتَابَ (كتابه) يهود فأتى ما آمنهم على كتابى ، ففعلتُ فما مضى لى نصف شهر حتى حذقتُهُ ، فكنت أكتب له اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له « وفي حديث آخر « عن زيد بن ثابت قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم انى أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا علىّ أو ينقصوا ، فتعلمم السريانية ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً »

ولما فتحت البلاد كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم ، فكان لا بد له أن يتعلم وأن يقرأ ويكتب ، فكثرت القراءة والكتابة وخاصة فى عهد التابعين كذلك هؤلاء الداخولون فى الاسلام من غير العرب اضطروا الى تعلم العربية لديهم ولدنياهم ، حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لاصلاح لغتهم كما قلنا ذلك عن أبى عبيدة

أضف الى ذلك أن الفتح الاسلامى استتبع الحضارة ، فبنيت فى عهد عثمان ومن بعده الدور والقصور وشيدت بالكس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، ككازير بن العوام وعبد الرحمن بن

عوف وسعد بن أبي وقاص والمقداد ، وهذا من غير شك يستتبع رقى الصناعة ومنها الكتابة

(الثاني) مما أثر به الاسلام في الحركة العلمية انه نشر بين العرب كثيراً من التعاليم التي أنبأها من قبل ، فرفعت مستويهم العقلي ، كما نشر بينهم كثيراً من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها باطنياً وأحياناً وبإيجاز أحياناً حسبما يدعو اليه موقف العظة ، فقص علينا قصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام وشيئاً من أخبار أمهم في أسلوب جذاب هيج النفوس الى الاستزادة وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها - كاليهود والنصارى - فكان في ذلك نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسع مداركهم

ثم شرع أحكاماً في الزواج والطلاق والشؤون المدنية والجنايية كانت قانوناً نظم أمور المسلمين في معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية ، واتخذه الفقهاء والمرجعون مرجعهم يستنبطون منه الأحكام ، ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيتهم ، فكان ذلك أساساً لحركة تشريعية واسعة تعرض لوصفها فيما بعد ذلك عدا ما له من أثر لغوي ولساني موضعه قسم آخر من الكتاب

(الثالث) وشيء آخر للاسلام كان له أثر كبير في الحياة العقلية وهو أنه سلك في دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحداية مسلكا يثير العقل وهو الدعوة الى النظر الى ما في العالم من ظواهر « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَقَاكِبَةً وَأَبَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا

اللَّيْلِ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلِّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ» «إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ» « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْوَالِدَاتُ وَأَلْوَانِنَهُنَّ» الى كثير من أمثال هذا

هذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر في الكون وكان له أثر في نمو

الحياة العقلية

ولعل هذا أعنى النظر في الكون للاستدلال منه على الله وصفاته هو الذى كان
يطلق عليه القرآن الحكمة — فقد قال تعالى « وَكَلَّمْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ » ونحن
إذا قرأنا ما ورد في القرآن من أقوال لقمان وجدناها من هذا النوع ، وقال « يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وسمى موضع
العبارة حكمة « وَكَلَّمْنَا جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مَزْدَجٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي
النُّذُرُ » وسمى ما أوحى الله به الى محمد حكمة لهذا فقال « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » الخ وقد سئل مالك ما الحكمة قال المعرفة بالدين والفقه فيه
والاتباع له^(١)

وكذلك لفظ العلم فالقرآن لم يستعمل الكلمة بالمعنى الذى استعمل بعد حين
تقول « علم النحو » أو « علم الفقه » وهو ما يقابل كلمة Science وإنما استعمله —
على ما يظهر — بمعنى المعرفة بأوسع معانيها « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » « وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا »
وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان قارون « قَالَ

(١) ويفسر الطبرى الحكمة بالاصابة في القول والفعل

إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ (أى المال) عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (أى معرفة بطرق كسب المال، ولكن أكثر ما تستعمل فى هذا النوع من المعرفة الذى يوصل الى الهداية كأنه هو المعرفة التى يعتمد الله بها، فهو فى هذا قريب من معنى الحكمة الذى ذكرنا « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا « وَكَانَ آتِبِعَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » الخ

وصف الحركات العلمية وأشهر القاميين بها — اذا نظرنا الى الحركات العلمية فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية — وجدناها اتجهت ثلاثة اتجاهات حركة دينية ونعى بها البحث فى الشؤون الدينية من تفسير للقرآن وحديث وتشريع وما الى ذلك، وحركة فى التاريخ والقصص والسير ونحوها، وحركة فلسفية فى منطق وكيمياء وطب وما اليها — ونعيد هنا ما ذكرنا قبل من أننا اذا قلنا حركة علمية فلسفنا نعى علوماً منظمة لها أبواب وفصول فذلك ما لم يصل اليه هذا العصر، وانما نعى النواة التى تكونت حولها العلوم بعد وسنصف هذه الحركات الثلاث وصفاً اجمالياً

الحركة الدينية — كانت هذه الحركة أكبر الحركات وأوسعها نطاقاً، فقد أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه، ويفسرون آياته، ويستنبطون منه الأحكام وكذلك فعلوا فى الحديث

وقد بدأت هذه الحركة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت فى الاتساع بعده وقام أصحابه بقسط وافر منها

وبديهى أن أصحاب رسول الله كانوا مختلفين اختلافاً كبيراً فى درجتهم العلمية كاختلافهم فى الفضائل الأخرى، فكان بعضهم أشجع من بعض، وبعضهم أكرم من بعض، كذلك كان بعضهم أعلم من بعض، جاء فى الحديث « أن

رسول الله قال « ان مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ الخ »^(١)

ويقول مسروق (وهو من التابعين) لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ^(٢) فالإخاذ يُروى الرجل والإخاذ يروى الرجلين والإخاذ يروى العشرة والإخاذ يروى المائة والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم^(٣)

واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة أئمة والطبقة الأولى في العلم، يختلف العادون في بعضهم فيضعون واحداً مكان آخر وهم عمر وعليّ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة — وهؤلاء كلهم من قریش، ما عدا ابن مسعود فإنه همداني، وزيد بن ثابت فهو من الأنصار، ويقول مسروق « شامت أصحاب رسول الله^(٤) فوجدت عليهم انتهى إلى ستة إلى عمر وعليّ وعبد الله (ابن مسعود) ومعاذ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت فشامت هؤلاء الستة فوجدت عليهم انتهى إلى عليّ وعبد الله^(٥) وروى يزيد بن ميمونة السكسكي وكان تلميذاً لمعاذ بن جبل « أنه لما حضرت الوفاة معاذاً أمره أن يطلب العلم من أربعة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأبي الدرداء — فترى من هذا اختلافهم فيمن هو الأعم، واختلاف النظر في هذا طبعي في كل عصر وكل أمة

وعلى كل حال فقد عدت بضعة من الصحابة هم الطبقة الأولى في العلم، وعد عشرون من الطبقة الثانية، ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة^(٦) ويطول بنا القول لو

(١) أخرجه البخاري ومسلم
 (٢) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٤
 (٣) شامت الرجل قاربه لا تعرف ما عنده
 (٤) الطبقات جزء ٢ ص ١١٠
 (٥) الإصابة جزء ١ ص ٩
 (٦) الإصابة جزء ١ ص ٩

عددنا أسماءهم وبَيْننا نسبهم

ونحن اذا ألقينا نظرة على الطبقة الأولى منهم بعد قراءة تاريخهم العلمى وجدنا شخصياتهم العلمية مختلفة: فعمربن الخطاب — مثلاً — لا نجد له كثيراً من الأقوال فى تفسير القرآن ، كما لا نجد مكثرأ فى جمع الحديث ، ولكن ميزته الكبرى على ما يظهر لنا قوته الفطرية فى الحكم على الأشياء ، واصابته فى معرفة العدل والظلم ، وخبرته الواسعة بالعالم الذى يحيط به ، « يقول أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به »

وهذه الميزة تفسر لنا بوضوح مواضع كفايته ، فعقله عقل قضائى ، كان يفقى الناس حتى فى حياة رسول الله ، ورويت عنه أحكام كثيرة فى مشكلات المسائل ، وفراسته فى الناس وفيمن يوليه الاعمال فراسة فى منتهى الصدق جاء فى العقد الفريد « كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكبر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم — ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفء على التأويل ، فلما صار الأمر الى على استعمله على البصرة فاستحل الفء على تأويل قول الله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » — كذلك ادارته للمملكة الاسلامية على سعتها ومواجهته لأمر عظام نشأت عن الفتح لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر تحتاج الى عقل كبير فى تصرفها والتشريع لها — كل هذا ونجاحه فيه يجعلنا — من غير شك تقرأ فى عمر سعة العلم ، ويجعلنا نتصور نوع العلم الذى كان به ممتازاً

على العكس من ذلك نرى ابنه عبد الله ، وهو أحد علماء الصحابة ، فهو يعطينا صورة علمية غير صورة عمر ، جماع للحديث ، يتلمسه حيث كان ، ويتحرى

ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم بدقة يقول أبو جعفر « لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع من رسول الله حديثاً أجدراً أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا، ولا، من عبد الله بن عمر بن الخطاب ولكنه كما قال الشعبي « كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه »^(١)، حملة الورع والخوف من الله ألا أكثر من الفتوى وألا يدخل في شيء من الفتن، يقول ابن الأثير « وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه في الفتوى وكل ما تأخذه به نفسه، حتى أنه ترك المنازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له، ولم يقاتل في شيء من الفتن، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه »^(٢) كما اشتهر بأنه ثقة في رواية الحوادث التاريخية التي وقعت في صدر الإسلام، لاتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده واهتمامه بتعريفها، فترى من هذا أن شخصيته العلمية كانت كثرة الجمع ودقة النقل، لا كثرة الاستنباط، ولا وفرة الفتوى

ونموذج آخر نراه في عبد الله ابن عباس، كما تصوره لنا كتب السير والتفسير فقد كان واسع الاطلاع في نواح مختلفة، يعرف الشعر والأنساب وأيام العرب، ويجتهد في تعرف ما عند الصحابة من حديث وعلم، يقول « وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار، فان كنت لآتي الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسني على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف » كذلك كان يعلم ما ورد في تفسير القرآن وأسباب نزوله وحساب الفرائض والمغازي، ويعرف شيئاً من الكتب الأخرى كالتوراة والانجيل — وكانت أكثر حياته حياة علمية يتعلم ويعلم، لم يشتغل بالامارة الا قليلاً لما استعمله علي على البصرة، وعمر طويلاً فقد مات نحو سنة ٥٧٠ هـ عن نحو سبعين

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٢٥

(٢) أسد الغابة جزء ٣ ص ٢٢٨

عاماً وكان عبد الله بن عمر يتهمه بالجرأة في تفسير القرآن ثم عدل عن ذلك (١) فترى من هذا صورة أخرى غير السابقتين ، ترى فيها ضرباً من تخصيص الحياة للعلم وضرباً من سعة الاطلاع في نواح علمية مختلفة — نعم قد أحيط اسمه ببعض المبالغات — على ما يظهر — نشأت في السولة العباسية لَمَّا كان جدّ الخلفاء العباسيين ، ولكنّ هذه المبالغات أساساً صحيحاً من سعة العلم وقوة الحجّة ، وأكثر ما اشتهر به أقواله في تفسير القرآن

وشخصية رابعة هي أصعب ما يكون تصويراً ، دخلها من المبالغات والأكاذيب ما وقف للورخ حائراً ، تلك هي شخصية على ابن أبي طالب — فليس هناك من الشخصيات في ذلك العصر ما دار حوله الجدل ، وأفرط فيه المحبون والكارهون ، واختلق حوله المختلقون ، وتأسست من أجله المذاهب الدينية ، كالتي كان لشخصية على ، فقد رووا عنه ٦٨٦ حديثاً مسنداً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصح منها الا نحو خمسين (٢) ونسبوا اليه ديوان شعر ، ويقول المازني انه لم يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير بيتين

تِلْكَمُ قَرِيْشٌ تَمَنَّانِي لِيَتَّقَتْنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفَرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتٍ وَدَقِيْنٍ لَا يَعْفُو لَهَا أَمْرٌ (٣)

ونسبوا اليه ما في نهج البلاغة ، وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية والكتب والمواعظ والحكم ، وقد شك في مجموعها النقاد قديماً وحديثاً كالصفيدي وهوار Huart (٤) ، واستوجب هذا الشك أمور ، ما في بعضه من سجع منمق ، وضناعة لفظية ، لا تعرف لذلك العصر ، كقوله « أكرم عشيرتك فانهم جناحك

(١) انظر الامتحان جزء ٢ (٢) الفصل في اللل والنحل لابن حزم جزء ٤ ص ١٣٧

(٣) ذات ودقين الداهية (٤) في كتابه الادب العربي

الذى به تطير ، وأصلك الذى اليه تصير » وما فيه من تعبيرات انما حدثت بعد ان نقلت الفلسفة اليونانية الى العربية ، وبعد أن دونت العلوم ، كقوله « الاستغفار على ستة معان ، والأيمان على أربع دعائم » وكالذى فيه من وصف الدار وتحديد حدوده بمحدود هى أشبه بتحديد الموثقين ، كقوله « وتجمع هذه الدار حدود أربعة ، الحد الأول ينتهى الى دواعى الآفات » الخ هذا الى ما فيه من معان دقيقة منمقة على أسلوب لم يعرف الا فى العصر العباسى كما ترى فى وصف الطاووس — كما نسبوا اليه كتاباً فى الجفر يذكر فيها الحوادث التى تحدث الى اقراض العالم ، وحكايته مع أبى الأسود الدؤلى فى وضع النحو معروفة مشهورة — كل هذا يجعل من العسير على المؤرخ الناقد وصف شخصيته العلمية وصفا يطمئن اليه ، أى ما فى نهج البلاغة لعلّ وأياها ليس له؟ وأى ماروى عنه من الحكم والأمثال له وأياها ليس له؟ وأى الأحاديث وما صدر عنه من الأحكام وما استشاره فيه الخلفاء من الشؤون يصح عنه وأياها لا يصح؟ كل هذه الأشياء لا تزال مجالاً للبحث

وعلى كل حال اذا نحن رجعنا الى كتب السير الموثوق بها كطبقات ابن سعد نرى أنه كان كذلك ذا عقل قضائى ، فقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن ، وله آراء ثبتت صحتها فى مشاكل قضائية عديدة ، حتى قيل فيه « قضية ولا أبأ حسن لها » وحكى علقمة عن عبد الله قال « كنا نتحدث أن من ألقى أهل المدينة على » وفوق هذا كان يهتم بالقرآن يعرف معانيه وفيه نزل حتى « زعموا أنه كتبه على تنزيله »^(١) وهو فى هذا كان أستاذاً لعبد الله بن عباس أخذ عنه كثيراً ، ويقارنون بينهما فيقولون « ان عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ،

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ — القسم الثانى — ص ١٠١

وكان علىّ أعلمهما بالمهمات» (١)

ويطول بنا القول لو وصفنا الميزة العلمية لكل من مشهورى الصحابة ، أمثال عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي برداء ومعاذ بن جبل وأبي ذرّ وأبي موسى الأشعري ولكن يمكننا أن نقول اجمالاً أن الشخصيات السابقة تبين أشهر النواحي العلمية ، وهؤلاء الذين سمينا يشا كلونهم فيها أو بعضها . روى عن أبي البختري أنه قال « أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال عن أيهم ؟ قال قلنا حدثنا عن عبد الله بن مسعود ، قال علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ، قلنا حدثنا عن أبي موسى قال صبغ في العلم صبغة ثم خرج منه ، قال قلنا حدثنا عن عمار بن ياسر ، فقال مؤمن نسي وإذا ذكّر ذكر ، قال قلنا حدثنا عن حذيفة فقال أعلم أصحاب محمد بالنافقين ، قال قلنا حدثنا عن أبي ذر قال وعى علماً ثم عجز فيه ، قال قلنا أخبرنا عن سلمان قال أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا ينزح قعره ، منا أهل البيت ، قال قلنا فأخبرنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ، قال إياها أردتم كنت اذا سألت أعطيت وإذا سكت ابتدئت» (٢) ولكن لا بأس أن نذكر كلمة عن عالين لكل منهما ناحية خاصة في العلم ، وهما عبد الله بن سلام وسلمان فأما عبد الله فكان يهودياً ، ويظهر أنه كان متفقاً بالثقافة اليهودية ، فقد عده المنسرون في أوائل الذين قال الله فيهم « أن يعلمه علماء بني إسرائيل » أسلم على أثر هجرة الرسول الى المدينة (على أحد الأقوال) ، وصحب عمر في سفره الى الشام ، ووقف خطيباً في التأليين على عثمان يدافع عنه ويخذل الثائرين ، ومات نحو سنة ٤٠ هـ واشتهر بين الصحابة بالعلم حتى رأيت أن معاذاً عده رابع أربعة

(١) المصدر نفسه ص ١٢١

(٢) يريد اذا سألت النبي أجبني واذا سكت بدأ يسألني ليبدني

يُطلب عندهم العلم ، وتقل المسلمون عنه كثيراً تدل على علمه بالتوراة وما حوفا ، وتجمع حول اسمه كثير من الاسرائيليات ، وتقل عنه الحديث أبو هريرة وأنس ابن مالك ، وينسب اليه ابن جرير الطبري في تاريخه كثيراً من الأقوال في المسائل التاريخية الدينية

وعلى كل حال فهو يمثل لنا ناحية خاصة دخل منها على المسلمين بعض أقوال التوراة وما اليها ، ولصق بعضها بتفسير القرآن وبالقصص ، وسنعرض لذلك بعدُ
أما سلمان الفارسي — ان صح ما يروى محمد بن اسحاق — فانه تنقل في أديان مختلفة قبل أن يسلم ، كان مجوسياً مخلصاً للمجوسية (حتى كان قاطن النار التي يوقدها أهله) ، ثم كان نصرانياً مخلصاً للنصرانية متصلاً بأتقي رجالها ، ثم كان عبداً مملوكاً ليهودي من بني قُرَيْظَةَ (ولكنه لم يهود) ثم أسلم فأخلص في اسلامه — كذلك يروى أنه قبل أن يسلم تنقل في بلاد كثيرة فهو من أصحابان (على رواية) ثم انتقل في طلب النصرانية الى الشام ، ثم الى الموصل ثم الى نصيبين ثم الى عَمُورِيَّة من أرض الروم ، ثم الى جزيرة العرب يطلب الاسلام فنزل بوادي القري ، وهناك غدر به قوم من كَلْب فباعوه ، ثم انتهى الى المدينة فأسلم^(١)

فترى من هذا أن قد كان له علم بديانات مختلفة ولعل هذا هو ما عناه على ابن أبي طالب بقوله فيه « من لكم يمثل لقمان الحكيم ، علم العلم الأوَّل ، والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأوَّل ، وقرأ الكتاب الآخر ، وكان بحراً يُنزَف »
وتدلنا سيرته على أن نزعته الدينية كانت نزعة زهد وورع وقد مات بالمدائن في خلافة عثمان

وقد اتخذته الفرس مثلكم — كما اتخذ مسلمو الحبشة بلالا ، والروم صهيباً —

(١) تجد القصة بطولها في طبقات ابن سعد في المجلد الرابع ص ٥٣ وما بعدها

وغُرت به الشعوبية ، وربطه الشيعة بعليّ والحسن والحسين ، وعده الصوفية أحد مؤسسيها ، وبالغ فيه الفرس كثيراً ، ونسبو إليه كثيراً

وهذا القدر يكفينا في الدلالة على أنه كان بين الصحابة حركة علمية ، وإن هذه الحركة أكثرها ديني ، وأنه كان لها نواح مختلفة وشخصيات مختلفة

هؤلاء العلماء وأمثالهم من الصحابة تفرقوا في المملكة الإسلامية — في جميع أقطابها ، وإن شئت فقل وُزَّعوا على الأمصار قصداً إلى تعليمها ، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدن جزيرة العرب ، فأرسل إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها — وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند ما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار ، عن سالم بن عبد الله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت فقلت مات عالم الناس اليوم ، فقال ابن عمر رحمه الله اليوم ، فقد كان عالم الناس وجبرها ، فرقمهم عمر في البلدان^(٢)

وعن عمر بن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام لقد أخل خروجي بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسني لحاجة الناس إليه فأبى عليّ ، وقال رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجبه فقلت والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه الخ — وكتب عمر إلى أهل الكوفة أني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه ، فقدم الكوفة ونزلها وابتقى بها داراً إلى جانب المسجد إلى كثير من أمثال ذلك

هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الأمصار أنشأوا حركة علمية في كل مصر

نزوله وكونوا مدارس^(١) وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون ثم تابعوهم مما سنعرض له عند الكلام على مراكز الحركة العقلية وعندئذ دخل عنصر الموالى وأولادهم في الحركة العلمية، واتسع نطاقها فكان منهم كثير من سادة التابعين وتابعى التابعين

الموالى والعلم - كان سكان البلاد كما علمنا يتكونون من عنصرين : عنصر عربى ، وهو العنصر الفاتح ، وعنصر أعجمى ، وكان أكثر حملة العلم في عصر الصحابة العرب ، لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما أخذ علماء الصحابة يعلمون في الأمصار المفتوحة ، اشترك العرب والعجم في تلقى العلم عنهم ، حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عرباً وأكثرهم من الموالى أو أبناء الموالى ويقول ابن خلدون في تعليق هذا « والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة ، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيها كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ، ولا دعتهم اليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكان يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أى الذين يقرءون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة ، بما كانوا عربا ، فقيل لجملة القرآن يومئذ قراء ، . . . ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضرة ، وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضرة لتلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالى وأهل

(١) نستعمل المدرسة هنا بمعناها الواسع ونعنى بها دائرة الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم

الحواضر . . . لانهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . . . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، . . . وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه ، وحملة علم الكلام وأكثر المفسرين ، ولم يتم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم ، أما العرب الذين أدرکوا هذه الحضارة وسوقها فسنغلتهم الرياسة في الدولة العباسية « اه مختصراً

وهو وان كان يتكلم عن عصر التدوين ، ويعني به على ما يظهر العصر العباسي فعلته كذلك صحيحة في العصر الاموي ، عصر التابعين ومن بعدهم ، الا أنه تعالى في نظريته وسلب العرب ما كان لهم من حظ في المشاركة في العلوم

كان في العصر الأموي عرب من أشهر العلماء كسعيد بن المسيب وعلقمة وشريح ومسروق والنخعي وغيرهم ، ولكن الاكثرين كانوا موالى أو في حكمهم — فكان في المدينة سليمان بن يسار ، وكان من أعلم الناس وأقربهم وأبوه مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم — ونافع مولى عبد الله بن عمر والذي روى عنه أكثر أحاديثه ، وأصله من الديلم ، — وربيعة الرأي وهو شيخ الامام مالك وأبوه فروخ من الموالى

ومن علماء مكة مجاهد بن جبر ، وكان مولى لبني مخزوم ، وهو من أكثر رواة التفسير عن ابن عباس — وعكرمة مولى ابن عباس والذي روى عنه أكثر علمه — وعطاء بن أبي رباح مولى بني فهر من مولدى الجند (١) وكان أسود — وأبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس مولى حكيم بن حزام وكان من أحفظ الناس للحديث

واشتهر من علماء أهل الكوفة سعيد بن جبير ، مولى بنى وآلية وكان أسود

(١) الجند بليدة باليمن

— واشتهر بالبصرة الحسن بن يسار ، مولى زيد بن ثابت — ومحمد بن سيرين وكان
أبوه من سبي ميسان ، وأمه صفية مولاة أبي بكر الصديق ، وهو من فقهاء البصرة.
وكذلك الحسن البصرى وكان أبوه أيضا من سبي ميسان
واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله ، وهو معلم الأوزاعي ، وأبوه
من أهل هراة ، وأمه ابنة لملك من ملوك كابل
واشتهر في مصر

يزيد بن حبيب مولى الأزدي ، كان مفتي أهل مصر ، وعنه أخذ الليث بن
سعد وكان يزيد بربرى الاصل ، أبوه من أهل دتقله (١)
وهناك غير هؤلاء كثير من العلماء من أبوين عربي وعجمي كالذى رأيت
من حكاية سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعلى
ابن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزین العابدين ، فان الزمخشري يروي
أن أمهاتهم بنات يزديجر د ، وكالشعبي علامة التابعين فان أباه عربي وأمه من
سبي جلولا .

ويطول بنا القول لو أنا أحصينا من كان من علماء هذا العصر من العرب
ومن كان من الموالى ، ولكن نظرة في أنسابهم عامة تدلنا على أن أكثرهم موال
جاء في العقد الفريد « وقال ابن أبي ليلى قال لى عيسى بن موسى وكان ديكانا
شديد العصبية (أى للعرب) من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبي الحسن
قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين ، قال فما هما ؟ قلت موليان ، قال فن كان فقيه
مكة ؟ قلت عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال
فما هؤلاء ؟ قلت موال ، قال فن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن

(١) رجعتنا في نسب هؤلاء وعمل اقامتهم الى ابن خلكان وأعلام الموقعين وطبقات ابن سعد

المنكدر ونافع بن أبي نجيح ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال ، فتغير لونه ثم قال فن أفتقه أهل قُبَاء ؟ قلت ربيعة الرأي وابن أبي الزناد ، قال فما كانا ؟ قلت من الموالى ، فأرْبَدَّ وجهه ، ثم قال فن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى ، فانتفضت أوداجه وانتصب قاعداً ، قال فن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراساني ، قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تَرَبُّدًا واسود اسوداداً حتى خفته ، ثم قال فن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول ، قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى ، قال فتنفس الصُّعْدَاءُ ، ثم قال فن كان فقيه الكوفة ؟ قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت ابراهيم (النخعي) والشعبي ، قال فما كانا ؟ قلت عريان ، قال الله أكبر ، وسكن جأشه

ونظير هذا ما جاء في معجم ياقوت في مادة خراسان « قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لما مات العبادة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن المعاص صار الفقه في جميع البلدان الى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء ابن أبي رباح ، وفقه اهل اليمن طاووس ، وفقه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقه أهل الكوفة النخعي^(١) وفقه أهل الشام مكحول وفقه أهل خراسان عطاء الخراساني ، الا للمدينة فان الله تعالى خصها بقرشى فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب »

وهناك قصص أخرى كثيرة كهذه لا تحلو من نزعة شعوبية ولكن أساسها صحيح وهو أن أكثر العلماء من الموالى — ولذلك سبب آخر غير الذى ذكره ابن خلدون — وهو أن الصحابة كما علمت — استكثروا من الموالى يستخدمونهم

(١) هكذا ورد وهو يدل على أن النخعي من الموالى ، والتى في ابن خلكان أنه من النخعي وهى قبيلة كبيرة من مذحج باليمن وأمه كذلك نخعية ، وقيل في نسبه غير ذلك وهذا هو الصحيح

في بيوتهم وفي أعمالهم ، فاذا كان الصحابي تاجراً فهو اليه أعوانه في التجارة ، واذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم ، ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السر والعلن ، وملازمهم لهم في الإقامة والسفر ، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر ، فقد أخذ عنه أكثر عمله ، ويسمى المحدثون رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب — وعكرمة مولى بن عباس ، فقد مات عبد الله بن عباس وعكرمة على الرق ، فباعه ولده على ابن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه علياً فقال له ما خير لك ، بعت علم أباك بأربعة آلاف ، فاستقاله فأقاله فأعتقه — الى غير ذلك من الأمثلة

وسياق الكلام على الحركة الدينية بشيء من التفصيل في الباب الآتي
(الحركة الثانية) حركة تاريخية ، ولسنا نغني بها حركة تأليف الكتب التاريخية ، وإنما نغني ما انتشر في المملكة الاسلامية في هذا العهد من أخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة ، والأحداث التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، ونظرة فيما روى في ذلك العصر تبين أنها كانت حركة واسعة ، وأنها كانت الأساس الذي بنيت عليه المؤلفات التي ألفت بعد ككتب ابن اسحاق وابن جرير وأمثالها ، يدل على ذلك أنك لو تتبعت في ابن جرير الطبري — مثلاً — سلسلة روايته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الاربعة الذين يتصلون بحياته كانوا في العصر العباسي ، وهؤلاء يروون عن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين ، أعني بذلك أن هذه الحوادث التاريخية التي دونت كانت معروفة في عصرنا الذي نؤرخه ، وابن اسحاق وأمثاله إنما رووا ما كان معروفاً وجمعه وقد نبعث هذه الحركة التاريخية من جملة مصادر

(أولها) شعور بعض الخلفاء بالحاجة في سياسة الدولة الى تعرف أخبار الملوك في الأمم الأخرى وسياستهم ونظامهم ، وهذا كان ضرورياً بعد أن اتسعت المملكة الاسلامية هذا الاتساع الكبير - كانت الحركة المالية في جزيرة العرب قبل الفتح حركة ضعيفة لا تكفي لتسيير الحركة الكبيرة التي كانت بعد الفتح ، فكان لابد من علم بطرق تحصيل الأموال وحفظها وصرفها ، وكذلك الشأن في ادارة البلاد وتنظيمها وطرق حكمها ، فلجأ بعض خلفاء المسلمين الى الوقوف على ما كان من ذلك عند الأمم الأخرى ، كالذى روى السعوى عن معاوية أنه بعد أن يفرغ من عمله « كان يستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكاييد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » اهـ ولا شك أنه تسرب بهذه الطريقة بعض المعلومات التاريخية الى الخاصة من المسلمين

(ثانيها) وهو أهم من الأول أن كثيراً من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ دخلت في الاسلام ، فأخذوا يدخلون تاريخ أممهم ويشونونه بين المسلمين ، امامعية لقومهم أو نحو ذلك ، فكثير من اليهود أسلم وهم يعلمون كثيراً من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسب روت التوراة وشروحها ، فأخذوا يحدثون المسلمين بها ، وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن أحياناً ، وبتاريخ الأمم الأخرى أحياناً ، ان سأئت فاقرا ما في الجزء الأول من تاريخ الطبرى تجد منه الشيء الكثير مثل « حدثني الثنى بن ابراهيم قال حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن

عبد الله بن سلام أنه قال « ان الله بدأ بالخلق يوم الأحد ، فخلق الأرضين في الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة » وكثير من هذا النوع روى حول ماورد في القرآن من قصص الانبياء ، كذلك كان للفرس تاريخ وكان لهم أساطير ، فلما أسلموا رويوا تاريخهم ، ورويوا أساطيرهم ، وكذلك فعل النصارى فكانت هذه الروايات والأساطير عن الأمم المختلفة مبسوثة بين المسلمين ومصدراً من مصادر الحركة التاريخية عندهم وهذان النوعان هما بالقصص أشبه منهما بالتاريخ

(ثالثها) وهو أهمها ، أن المسلمين بدءوا من أول أمرهم يجمعون الحديث ، وفي الحديث مناح شتى من القول ، ففيه ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من عبادات وتشريع في المعاملات والجنائيات ، وفيه أقوال للوعظ والارشاد ، وفيه قسم تاريخي لا يستهان به ، فأحاديث تتعلق بحياة النبي في مكة وهجرته ، وحياته في المدينة وغزواته ، وأعمال الأبي بكر وفتوحات عمر ونحو ذلك ، وكلها حوادث تاريخية نثرت في الحديث ، وعنى بها بعض الصحابة كالنبي رأيت في عبد الله بن عمر — وكانت هذه الأحاديث التاريخية أساساً لما أُلّف بعد من كتب السير والمغازي ، فقد أفردت وأضيف إليها ما لم يُنحَر فيه تحرى ثقات المحدثين — والدليل على أن أصل هذه السير والمغازي هو الحديث ما تجده من وجوه شبه كبير في الأسلوب وفي طريقة سرد الوقائع وحكايتها

وقد عنى المسلمون من العصر الأول بافراد ما يتعلق بالسير والمغازي في كتب خاصة فقد روى أن وهب بن منبه (٣٤ — ١١٠ هـ) أُلّف كتاباً في المغازي ، كما

رووا ان عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) وهو من أشهر فقهاء المدينة ومحدثيها كان أقدم من أُلّف في سيرة رسول الله، ومثله معاصره أبان بن عثمان بن عفان (٢٢ - ١٠٥ هـ) فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة (المتوفى قبل سنة ١٢٥ هـ) كتابه في سيرة الرسول

كذلك رووا أن ابن شهاب الزهري (٥١ - ١٢٤ هـ) جمع كتاباً في المغازي ومثله موسى بن عقبة (المتوفى سنة ١٤١ هـ)^(١)

ويظهر أن النظم الذي اتبع في تأليف هذه الكتب كان جمع الأحاديث المتعلقة بالسيرة أو المغازي لا أكثر من ذلك، وعلى الجملة فلعل هذا الباب كان أقرب من سابقه الى معنى التاريخ

وكل ذلك يدلنا على ما ذكرت من انتشار حركة تاريخية واسعة وان لم تصبغ بالصبغة العلمية الدقيقة

القصص - ويتصل بهذا النوع ما يعرف في ذلك العهد بالقصص - وقد استُحدث في صدر الاسلام، فقد رُوِيَ عن ابن شهاب أن « أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري، استأذن عمر أن يُذكَر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يُذكَر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يُذكَر يومين في الجمعة فكان تميم يفعل ذلك » وفي رواية أخرى عن الحسن أنه سئل متى أُحدث القصص؟ قال في خلافة عثمان فسئل من أول من قص؟ قال تميم الداري

وتميم هذا كان نصرانياً من نصارى اليمن أسلم في سنة تسع من الهجرة وقد ذَكَرَ للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال^(٢) وكان يتَرَهَّب حتى قال

(١) وقد عثر على قطعة من مغازي موسى طُبعت سنة ١٩٠٤ م
(٢) الاصابة جزء ٤٦ ص ١٩١ وحديث الجساسة فيما يذكرون أن تميم حدث أنه ركب

عنه أبو نعيم أنه راهب أهل عصره — وهي نزعة نصرانية بقيت عنده في الاسلام ،
ويذكرون أيضاً أنه أول من أسرج السراج في المسجد

وتكاد الروايات تتفق على أنه أول قاصّ ، ولم أقف على ما كان يقصه ،
ولكن نظرة في حديث الجساسة والدجال وفي أقوال له أخرى كثيرة منثورة كالذي
روى أن رَوْح بن زَنْبَاع زار تيميا الدارِي فوجده يُنقَى شعيراً لفرسه وحوله أهله.
فقال له روح أما كان في هؤلاء من يكفيك ؟ قال بلى ولكني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرئ مسلم يُنقَى لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه الا كتب
الله له لكل حبة حسنة ^(١) تدلنا على عقليته ونوع قصصه ومنحاه فيما يروى

وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في المسجد وحوله الناس فيذكروهم
بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك ،
لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، قال الليث بن سعد
« هما قصصان : قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع
اليه النفر من الناس يعظّمهم ويذكروهم فذلك مكروه لمن فعله ولئن استمعته ، وأما
قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، ولّى رجلاً على القصص فاذا سلّم من صلاة
الصبح جلس وذَكَرَ الله عز وجل وحمّده ويحمّده وصلى على النبي صلى الله عليه
وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربته وعلى
المشركين كافة » ^(٢)

في سفينة بخرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرتقوا الى
جزيرة في البحر حين مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقبتهم دابة أهلب
(كثيرة الشعر وذكر الصفة لان الدابة تطلق على المذكر والمؤنث) كثيرة الشعر فقالوا ويلك
ما أنت ؟ فقالت أنا الجساسة — وصميت الجساسة لانها تتجسس الاخبار فتأتي بها الدجال

(١) أسد الغابة جزء ١ ص ٢١٥

(٢) خطط المرزبني جزء ٢ ص ٢٥٣ طبعة أميرية

وقد نما القَصصُ بسرعة لأنه يتفق وميول العامة ، وأكثَرَ القصاص من الكذب حتى رَووا أن عليَّ بنَ أبي طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصرى لتحريره الصدق في قوله

ويظهر أنه اتخذ أداة سياسية من عهد الفتن بين علي ومعاوية ، يستعين بها كل علي وترويح حزبه والدعوة له — يدلك على ذلك ما نقلنا عن الليث بن سعد وما روى ابن هبيرة عن يزيد بن حبيب أن علياً رضى الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربته ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلاً يقصر ، بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام

وارتفع شأن القصص حتى رأيناه عملاً رسمياً يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجراً ، فنرى في كتاب القضاة للكندي أن كثيراً من القضاة كان يعينون قصاصاً أيضاً ، فيقول أن أول من قص بمصر سليمان بن عتر التُّجِيبِيَّ في سنة ٥٣٨ هـ ، وجمع له القضاء إلى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص

ولا تهمنا هذه النواحي الرسمية إنما يهمننا ما كان منه من صبغة تشبه العالمية ، ونرى أن هذا القصص هو الذي أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير ، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد وأضاعت معالم الحق

ولا بد أن نشير هنا إلى منبعين كبيرين لهؤلاء القصاص وأمثالهم ، تجد ذكرهما كثيراً في رواية القصص وفي التاريخ وفي الحديث وفي التفسير ، هما وهب بن منبته ووكعب الأجبارة

فأما وهب بن منبته فيمنى من أصل فارسي ، وكان من أهل الكتاب الذين أسلموا

وله أخبار كثيرة وقصص تتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم وقصص الأنبياء ، وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وقد توفي حول سنة ١١٠ هـ بصعنا . وأما كعب الأخبار أو كعب بن مآتيق فيهودى من اليمن كذلك ، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود الى المسلمين ، أسلم في خلافة أبي بكر أو عمر على خلاف في ذلك — وانتقل بعد اسلامه الى المدينة ثم الى الشام ، وقد أخذ عنه اثنان هما أكبر من نشر علمه : ابن عباس — وهنا يعطل ما في تفسيره من اسرئيليات — وأبو هريرة — ولم يؤثر عنه أنه ألف ، كما أثر عن وهب بن منبه ، ولكن كل تعاليمه — على ما وصل إلينا — كانت شفوية ، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها . جاء في الطبقات الكبرى حكاية رجل دخل المسجد فاذا عامر بن عبد الله بن عبد القيس جالس الى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ (١) وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووي لا يروى عنه أبداً . وابن جرير الطبري يروى عنه قليلا ، ولكن غيرهم كالتعلي والقساني ينقل عنه كثيراً في قصص الانبياء ، كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشبه ذلك . ويروى ابن جرير أنه جاء الى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام ، قال وما يدريك ؟ قال أجده في كتاب الله عز وجل ، في التوراة — قال عمر انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا ، ولكن أجده صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك .

وهذه القصة ان صححت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الاسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالم في عقيدتهم وعلمهم

(١) طبقات ابن سعد مجلد ٧ ص ٧٩

كثير كان له فيهم أثر غير صالح
وقد أمحى باللوم كثير من العلماء على القصص والوعاظ ، كما فعل الغزالي في كتابه
« الاحياء » فقد عد عملهم من منكرات المساجد ، لما كانوا يقرءون من كذب ،
واستثنى الحسن البصرى وأمثاله

والحق أن الحسن البصرى كان قاصاً من نوع آخر ، فلم يكن ينحو منحى
الذين يعتمدون على الاسرائيليات والنصرانيات ، انما كان يعتمد على التذكير
بالآخرة ونحوها ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث ، فقد كان يجلس في
آخر المسجد بالبصرة وحوله الناس يسألونه في الفقه وفي حوادث الفتن التي كانت
في عهده ، ويحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم ،
فما أثر من قصصه قوله « يا ابن آدم لا تُرَضَ أحداً بسخط الله ، ولا تطيعن
أحداً في معصية الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تلومن أحداً فيما لم
يؤتك الله ، ان الله خلق الخلق فوضوا على ما خلقهم عليه ، فن كان يظن أنه مزداد
بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره ، أو يغير لونه أو يزد في أركانه أو بنانه »
وكقوله « يا ابن آدم لم تكن فكوّنت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فننعت
فبئس ما صنعت » ثم يكرر ذلك مراراً ، وله أقوال كثيرة من هذا النحو مثبتة
في كتب الأدب

وهنا أمر لا بد أن يكون قد استرعى نظرك ، وهو أن أكثر من ذكرنا من
منايع القصص كتتميم الدارى ووهب بن منبه وكعب الأجار من أهل الكتاب
من اليمن ، فما السر في ذلك ، ولم كان ما يروى عن يهود اليمن في هذا النوع أكثر
مما يروى عن يهود الحجاز ؟ لعل السبب أن اليمن كانوا أكثر حضارة كما علمت ،
وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان ليهود الحجاز (وهذه المدارس

اليمنية ثابتة تاريخياً) فكان من نتيجة ذلك انتشار الثقافة اليهودية في اليمن ، بما فيها من شروح للتوراة وأساطير ونحو ذلك على نمط أوسع مما كان ليهود الحجاز ، فلما دخل يهود اليمن في الاسلام رويوا ما تعلموا فكان لهم أكبر الأثر

(الحركة الثالثة) الحركة الفلسفية ، وهي أقل الحركات - على ما يظهر - انتشاراً وكان مظهرها . أولاً . في المدارس السريانية التي كانت منتشرة في أماكن كثيرة من المملكة الاسلامية كما بينا قبل ، وعندهم أخذ المسلمون ، وكان من أثر ذلك ظهور بعض المذاهب الدينية التي سيأتى تفصيلها ، وقد روينا ما كان لخالد بن يزيد بن معاوية من دراسة فلسفية

ونلاحظ أنه في هذا العصر ظهر كثير من أطباء النصارى في بلاط الخلفاء ، وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً ، لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية ، كما كان الشأن في فلاسفة المسلمين بعد كابن سينا والكيندى ، ومن هؤلاء الاطباء الذين خدموا في البلاط الأموى ابن أنال وكان طبيباً نصرانياً في دمشق ، ولما ملك معاوية اصطفاه لنفسه ، وكان كثير الافتقار له ، والاعتقاد فيه والحادثه معه ليلا ونهاراً ، و « عبد الملك بن أبجر الكينانى ، وكان طبيباً عالماً ماهراً وكاتب في أول أمره مقياً بالاسكندرية وكان متولى التدريس فيها ، ولما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل اليه الخلافة وصحبه ، فلما أفضت الخلافة اليه نقل التدريس الى أنطاكية وحرّان ، وتفرق في البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب » (١)

وحكى القفطى في أخبار الحكماء أن ماسرجويه الطبيب البصرى كان اسرالياً

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة

في زمن عمر بن عبد العزيز وربما قيل في اسمه ما سرجيس ، وكان عالماً بالطب
تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس في الطب وهو كُنْأَش فاضل
من أفضل الكنائش القديمة - وقال ابن جلجل الأندلسي ما سرجويه كان
سريانياً يهودى المذهب ، وهو الذي تولى في أيام مروان في الدولة مروانية تفسير
كتاب أهرن القس بن أعين الى العربية ، ووجده عمر (بن عبد العزيز) في
خزائن الكتب فأمر باخراجه ، ووَضَعَه في مصلاه واستخار الله في اخراجه الى
المسلمين لينفع به ، فلما تم له في ذلك أُرِبعون يوماً أخرجها الى الناس وبثه في أيديهم
- ولما سرجويه من التصانيف كتاب قُوى الأَطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب
قوى العقاقير ومنافعها ومضارها

هذا وأمثاله كَوْن حركة ثالثة هي التي سميها بالحركة الفلسفية ويدخل فيها
ما رأيت من الجدل بين فرق النصارى والمسلمين ولكنها على كل حال - كانت
أقل من الحركتين السابقتين

وهناك حركة رابعة هي الحركة الأدبية موضوعها قسم خاص من كتابنا هذا

وهذه الحركات جميعاً كانت تتساند ويعاون بعضها بعضاً ، فأصحاب المذاهب
الدينية اعتمدوا في تعاليمهم على الفلسفة وتعاليم الكتاب والسنة ، والمفسرون والمحدثون
والفقهاء كان يستعينون بالشعر والأدب على تفهم معاني القرآن والحديث ، والمؤرخون
والقصاص يستمدون بعض معلوماتهم من القرآن والحديث وهكذا ، وقلَّ أن تجد
في هذا العصر ما نسميه الآن تخصصاً ، فليس هناك عالم بالتفسير فقط أو الحديث
فقط ، لأن هذا الدور انما يكون بعد تنظيم البحث ، وهو دور لم يصلوا اليه في
هذا العصر

وكذلك كانت الدروس فيها تفسير وفيها حديث وفيها فقه وفيها لغة وفيها

جدال ديني

والذي يظهر أن الأمويين لم يشجعوا من هذه الحركات الثلاث الا الحركة الأدبية والقصاص الرسمي ، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال ، وعينوا القصاص في المساجد ، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك للعلماء والفلاسفة ، ولعل السبب في ذلك أمران (الأول) أن حكم الأمويين بنى على الضغط والقهر فكانت حاجتهم الى الشعراء والقصاص أشد ، لأنهم هم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكورهم ، ويقومون في ذلك مقام الصحافة لأحزابها ، ومن أجل هذا لم يكن ينال الخطوة عند خلفاء بني أمية الا من كان مادحاً لهم ، فأما الشعراء العلويون والزييريون ونحوهم فيحمدون الله أن سلموا منهم (الثاني) أن نزعة الأمويين نزعة عربية جاهلية لاتتأذ من فلسفة ولا من بحث ديني عميق ، انما يأن لها الشعر الجيد والخطبة البليغة والحكمة الزائفة . قال المسعودي « كان عبد الملك بن مروان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح ، وكان عماله على مثل مذهبه » وشأن أكثر بني أمية شأن عبد الملك - نستثنى منهم خالد بن يزيد بن معاوية فقد كان له نزعة فلسفية كما أسلفنا فوق نزعة الأدبية ، قال فيه الجاحظ في البيان والتبيين « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيد الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »

كما نستثنى عمر بن عبد العزيز فقد كانت نزعة دينية وقد شقى به الشعراء ، دخل عليه النُصيب بعد ما ولى الخلافة فقال له إيه يا أسود أنت الذي تشهر النساء بنسيبك؟ فقال انى قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين وعاهدت الله أن لا أقول ، وشهد له بذلك من حضر فأعطاه

إذا عدونا هذين (خالداً وعمر) لم نجد كبير أثر للامويين في تشجيع الحركة الفلسفية والدينية والتاريخية كالذي نجده للعباسيين مثلاً. ومع هذا فقد نشطت هذه الحركات من نفسها، أما الحركة الدينية فللباعث الديني، وكان قوياً إذ ذلك، وأما الحركة الفلسفية فلأن الدين في آخر عهد الأمويين اضطر إلى استخدام الفلسفة لمجادلة اليهود والنصارى، ولحاربة الفرق الإسلامية بعضها لبعض، وأما الحركة التاريخية فلما كان لها من صبغة دينية

في هذا العصر كان العلم — ولا سيما الديني — يدرّس في المساجد، يجلس الأستاذ في المسجد وحوله الآخذون عنه على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتضفر تبعاً لتقدير الأستاذ، فالسيوطي في الاتقان يحدثنا أن عبد الله بن عباس كان يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، ويحدثنا ابن خلكان أن ربيعة الرّأى كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ويأتيه مالك والحسن وأشرف أهل المدينة ويُحَدِّقُ الناس به — وكانت حلقة وافرة — وكذلك كان مجلس الحسن البصرى في مسجد البصرة، وقد يكون في المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ، كما حدثونا أن عمرو بن عُبيد وقرأ معه كانوا يجلسون في حلقة الحسن البصرى ثم اعترضوا حلقة الحسن وحلّقوا (أى أنشؤا لهم حلقة خاصة) وكذلك كان يفعل جعفر الصادق في المدينة. قالوا وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفأل، ومثل هؤلاء كثيرون موزعون في الأمصار اتخذوا المساجد مدارس يعلمون فيها العلوم المختلفة، ولم أر ما يدل على أن المسلمين أنشؤا في هذا العصر مدارس خاصة للعلم إلا ما نقل المقرئى « عن الواقدي أن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير، وقيل قدم بعد بدر بقليل

فنزله دار القراء» ولم نعلم كثيراً عن دار القراء هذه وهل خصصت للمدرسة أو لا .
وحكى السيد أمير علي في كتابه «مختصر تاريخ العرب» أن الحر بن يوسف بن
الحكم بن أبي العاص بن أمية - وكان عاملاً لهشام بن عبد الملك على الموصل -
بنى مدرسة بالموصل «ولكن لم يذكر له مستنداً ، والذي في ابن الأثير أن الحر
هذا بنى المنقوشة ، وهي دار يسكنها ، وسميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج
والرخام والفصوص الملونة وما شاكلها ، ولم يذكر أنه بنى مدرسة ، والذي نعرفه أن
بعض المدارس التي كانت في الممالك قبل الفتح ظلت على حالها بعد الفتح كبعض
مدارس السريانيين ، أما الأمويون فلا نعلم أنهم أنشئوا مدارس ، ولكن كانت
الدراسة العلمية في البيوت والمساجد

التدوين^(١) : ذهب بعضهم الى أن تدوين العلوم والاخبار لم يحدث الا في
منتصف القرن الثاني للهجرة ، وهذا على ما يظهر لنا غير صحيح ، فان التدوين بدأ
من القرن الأول ، بل كان قبل الاسلام تدوين ، وكان هذا التدوين كثيراً في
البلاد المتحضرة كاليمن والحيرة ، وقليلاً في بلاد الحجاز ، فالحيثيون في اليمن دونوا
كثيراً من أخبارهم وحوادثهم ، ونقشوها على الأحجار ولا تزال آثارهم في ذلك
تستكشف بين حين وحين - وقد حدثناك من قبل أن النبي صلى الله عليه وسلم
لقي سويد بن صامت وكان معه مَجَلَّةٌ لقمان ، أعنى صحيفة فيها حكم لقمان ، فلما جاء
الاسلام اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتبة للوحى فكانوا يكتبون على الرقاع
والاضلاع وسعف النخل والحجارة الرقاق البيض ، ثم جمعت هذه الصحف في
عهد أبي بكر ، وعنى بعض الصحابة بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) نعى بالتدوين ما هو أوسع معنى من التأليف فنعى به تهذيب الاخبار والآثار بالكتابة .

كعبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يدون ما يسمع من رسول الله ، قال أبو هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب وقال عبد الله بن عمرو كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه - الحديث - بل قد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بعض أصحابه أن يتعلم العبرية والسريانية ليدون بها رسالته

فهذا تدوين للقرآن والحديث والرسائل التي كانت ترسل من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذا الزمن يقليل نرى أن المسلمين طرقتوا موضوعات أخرى يدونونها ، فابن النديم يحدثنا في كتابه الفهرست أن عبّيد بن شريّة الجُرهمي كان في زمان معاوية وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والمعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه الى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون وينسب الى عبّيد بن شريّة ، وعاش عبّيد الى أيام عبد الملك بن مروان ، وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين

ويقول في موضع آخر أن صحّاراً العبدي كان خارجياً وكان أحد النسايب والخطباء في أيام معاوية بن أبي سفيان وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثين أو ثلاثة وله من الكتب - كتاب الأمثال -

ويقول في موضع ثالث انه كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة ، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة ، فلقبت هذا الرجل دفعات ،

فَأَيْسَ بِي ، وَكَانَ نَفُورًا ضَنِينًا بِمَا عِنْدَهُ ، خَائِفًا مِنْ بَنِي حِمْدَانَ ، فَأَخْرَجَ لِي قَطْرًا كَبِيرًا فِيهِ نَحْوُ ثَلَاثِ مِائَةِ رَطْلٍ جَلُودٍ وَصِكَائِكَ وَقِرَاطِيسٍ وَوَرَقٍ صِينِيٍّ وَوَرَقٍ تَهَامِيٍّ وَجُلُودٍ أَدَمٍ فِيهَا تَعْلِيقَاتٌ عَنِ الْعَرَبِ ، وَقِصَائِدٌ مَفْرَدَاتٌ مِنْ أَشْعَارِهِمْ ، وَشَيْءٌ مِنَ النَّحْوِ وَالْحِكَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَنْسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، فَرَأَيْتَهَا وَقَلْبَتَهَا فَرَأَيْتُ عَجَبًا إِلَّا أَنْ الزَّمَانَ قَدْ أَخْلَقَهَا وَأَحْرَفَهَا ، وَكَانَ عَلَى كُلِّ جِزْءٍ أَوْ وَرْقَةٍ أَوْ مَدْرَجٍ تَوْقِيعٌ بِخَطِّ طُورِ الْعُلَمَاءِ وَاحِدًا أَوْ وَاحِدٍ وَرَأَيْتُ فِي جَمَلَتِهَا مِصْحَفًا بِخَطِّ خَالِدِ ابْنِ أَبِي الْهَيَاجِ صَاحِبِ عَلِيٍّ ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بِخَطِّ الْأَمَامِينَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَرَأَيْتُ عِنْدَهُ أَمَانَاتٍ وَعَهُودًا بِخَطِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَبِخَطِّ غَيْرِهِ مِنْ كِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ خَطِّ طُورِ الْعُلَمَاءِ فِي النَّحْوِ وَاللُّغَةِ مِثْلَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَأَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ . . . وَرَأَيْتُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّحْوَ عَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ مَا هَذِهِ حِكَايَتُهُ : وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَوْرَاقٍ أَحْسَبُهَا مِنْ وَرَقِ الصِّينِ تَرَجَمَتِهَا هَذِهِ فِيهَا كَلَامُ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ مِنْ أَبِي الْأَسْوَدِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِخَطِّ يَحْيَى بْنِ يَعْمُرَ ، وَتَحْتِ هَذَا الْخَطِّ بِخَطِّ عَتِيقِ هَذَا خَطِّ عَلَّانِ النَّحْوِيِّ ، وَتَحْتَهُ هَذَا خَطُّ النَّضْرِ بْنِ شَمِيلِ ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ هَذَا الرَّجُلُ فَقَدْنَا الْقَمَطَرَ وَمَا كَانَ فِيهِ فَاسْمَعْنَا لَهُ خَبْرًا . وَلَا رَأَيْتُ مِنْهُ غَيْرَ الْمِصْحَفِ ، هَذَا عَلَى كَثْرَةِ بَحْثِي عَنْهُ أَهْ بِاخْتِصَارِ

هَذَا فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ فَلَمَّا جَاءَ عَصْرُ التَّابِعِينَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ قَوِيَتْ الْحَرَكَةُ الْعَالَمِيَّةُ بِسَبَبِ الْفَتْوحِ ، وَدَخُولِ الْأُمَّمِ النَّحْضَرَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَى تَشْرِيعِ وَاسِعٍ يَتَّفَقُ وَمَا أَحْدَثَتْ الْمَدِينَةَ مِنْ أَحْدَاثٍ لَمْ تَكُنْ ، فَكَثُرَ التَّدْوِينُ ، فَابْنُ خَلِّكَانَ يَحْدِثُنَا أَنَّ وَهْبَ بْنَ مَنْبِهِ الْمَتَوَفَى سَنَةَ ١١٠ هـ وَعَمْرَهُ تَسْعُونَ سَنَةً أَلْفٌ فِي تَرْجُمَةِ الْمَلُوكِ الْمَتَوَجِّعَةِ مِنْ حِمِيرٍ وَأَخْبَارِهِمْ وَقِصَصِهِمْ وَقُبُورِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ يَذْكَرُ لَنَا أَنَّ هِشَامَ بْنَ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ « قَالَ أُحْرَقَ

أبى يوم الحرّة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك لأن تكون عندي أحب اليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي» (١)

ويقول في موضع آخر عن عبد الرزاق (قال سمعت معمرًا قال كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليدُ ، فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه ، يقول ، من علم الزهري) (٢)

ويقول ابن خلكان أيضاً أن ابن شهاب الزهري « كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء ، من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » وقد توفى سنة ١٢٤ هـ وأن أبا عمرو ابن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قدملات بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم أنه تقرأ أي تنسك فأخرجها (٣) كلها ، فلما رجع الى عمله الأول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية « وقد روينا من قبل أن خالد بن يزيد بن معاوية كتب ثلاث رسائل في الكيمياء وما إليها ، وذكر ابن النديم أن زياد بن أبيه ألف كتاباً في علم الأنساب في مثالب العرب ووطن فيه في أنسابهم لما طعن الناس فيه هؤلاء وأمثالهم كانوا في العصر الأموي ، وهذه الأخبار وان كان بعضها محملاً للشك فهي في جملتها تدلنا على أن التدوين لم ينشأ في العصر العباسي كما يزعم بعضهم ولكنه كان قبل ذلك - ويظهر مما عثرنا عليه أن التدوين بدأ بتقييد العلم من غير أن تظهر فيه للمؤلف شخصية ما ، وليس له الا الجمع ، وكانت الكتب عبارة عن صحف يكتب عليها وقد تكون صحفاً مفردة مبعثرة ، فلما دخل الفرس والروم في الاسلام وكانوا ذوى حضارة قديمة وكتب مؤلفة من قبل أدخلوا على اللغة

(١) جزء ٥ ص ١٣٣ (٢) جزء ٢ قسم ٢ ص ١٣٦ (٣) لعله أحرقها

العربية بعد أن تعلموها نظام تأليف الكتب بالمعنى الذى نفهمه الآن من جمع ما يتعلق بالموضوع الواحد فى كتاب واحد ولكن ما كتب فى عصر الأمويين لم يصل الى أيدينا منه الا القليل، وأغلب هذه الكتب أخذت عن العلماء، من طريق الرواية، وأدبحت فى كتب العباسيين التى كانت أتم نظاماً، وأرقى فى فن التأليف، وبعض هذه الكتب الأموية كانت موجودة فى العصر العباسى وما بعده، فابن النديم يقول أنه رأى صفحات أبى الأسود الدؤلى فى النحو، وأنه رأى كتاب عبيد بن شريفة فى الأمثال، وابن خلكان يقول انه رأى كتاب وهب بن منبه فى تاريخ اليمن ولكن فى عهدنا هذا لم يصلنا شئ، يصح أن يوثق به الا قليلا

هذا مجمل الحركة العلمية فى ذلك العصر وسيأتى بعض تفصيل لها فى الأبواب التالية

الفصل الثاني

مراكز الحياة العقلية

نلاحظ أن الدين والفن والعلم والأدب تنبع دائماً من المدن ، وتزهر فيها ، كان ذلك في القديم ، وهو كذلك في الحديث ، فأنت الآن ترى الأفكار الجديدة وآراء المصلحين انما تنشأ في المدن أولاً ، وكذلك معاهد العلم والأدب والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف انما تعظم وتكثر في المدن لا في القرى - ولذلك أسباب أهمها أن المدن أكثر ناساً وأوفر عمراناً - وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن اما لسبب مباشر كخصب الأرض وجودتها وكثرة غلاتها ، أو غير مباشر كأن تتبادل المدينة مصنوعاتها مع أمة أخرى خصبة الأرض كثيرة الغلات أو نحو ذلك ، وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعاً من الغنى يستطيع معه أهله أن يجدوا زمناً يصرفونه في غير كسب القوت ، كما يستتبع نوعاً من الرقي السياسي يستطيع الناس معه أن يتبادلوا الآراء والافكار ، وينظروا الى الحياة غير هذا النظر المادى الوضعي ، فينشأ الرأي وينشأ العلم ويزهر الأدب^(١) كذلك تختلف المدن في نوع ما تمتاز به من العلوم فقد تمتاز مدينة بعلم ، وأخرى بعلم آخر ، وثالثة بفن أو أدب وهكذا ، فأنت اذا رأيت الحديث مثلا ونوعاً من التاريخ الاسلامي كان يكثر في الحجاز في ذلك العصر وأن المذاهب الدينية

(١) أضف الى ذلك ما يذكره ابن خلدون من « أت الحضارة تفيد عقلا ، لأن الحضارة متجمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعايرة أبناء الجنس وتعميل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمر الدين واعتبار آدابها وشرائعها ، وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل » اه

نبح أكثرها في العراق ، وأن النحو نبح في البصرة ، فلا تظن أن ذلك كان مجرد اتفاق ، بل الواقع أن هناك أسباباً طبيعية أنتجت ذلك ولم يكن في الامكان أن يكون غير ما كان ، واختلاف المدن في الشهرة العلمية ونوع العلم الذي تمتاز به يرجع الى أسباب : أهمها - بالنظر الى العصر الذي نبحت فيه - تكون المدنية الاسلامية على اطلال مدنيات قديمة طبعت البلاد بطابع خاص ، كالذي كان في مدن العراق والشام ، فلما فتحتها المسلمون لم تتجرد من طابعها وعقليتها القديمة ، ولكن أثر فيها الاسلام أثراً جديداً ، فكانت العقلية الجديدة نتيجة العاملين معاً - ومنها - أن العلماء الأولين من الصحابة ومن يلحق بهم مع اختلاف شخصياتهم العلمية التي بينا نزولاً في البلاد المختلفة ، وكونوا فيها مدارس ومذاهب تبعاً لمزاجهم العقلي ، فتأثرت البلاد التي نزولوا فيها بشخصياتهم ، ونهجوا في العلم مناهجهم - ومنها - ظهور أحداث سياسية وغير سياسية كان لها أثر كبير في امتياز بعض المدن بنوع من العلم ، ونمط من التفكير ، فظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ، وهجرته الى المدينة ، جعل لمكة والمدينة صبغة علمية خاصة ، وكثرة الأحداث السياسية في العراق وتلاحق الفتن فيه كان له الأثر الكبير في نشوء المذاهب الدينية به ، وقرار الخلافة الأموية في دمشق لم يخل من أثر في تكييف الحياة العلمية فيها وهكذا مما سنعرض لبيانها بعد - وعلى الجملة فقد كانت أهم المراكز العقلية في ذلك العصر مكة والمدينة في الحجاز ، والبصرة والكوفة في العراق ، ودمشق في الشام والفسطاط في مصر

الحجاز : قطر فقير خلا من الأنهار ، وكسيت أرضه غالباً بالصخور والرمال ، واشتدت حرارته ، فلم يسمح للنبات أن ينمو الا في وديان بعثرت هنا وهناك ، يعيش أكثر أهله عيشة بدوية ، لم يتصلوا بالعالم الذي حولهم الا بالقدر الذي أبناه

من قبل ، ولم تتعاقب عليهم مدنيت مختلفه تورثهم حضارة وعاما ، ولم يصل اليهم من العالم المتحضر الا اثاره من اليهودية والنصرانية ، وقليل من الحكمة والفلسفة من طريق غير مُعبّد ، ومع هذا فانهم وان لم يثروا مدنية وعلما عن أمم حكومهم وتعاقبوا عليهم فقد أورشهم استقلالهم أنفة وعزة واعتداداً بالنفس وحرية جاوزت الحد « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين »

جاء الاسلام فكان لمدينتي الحجاز — أعنى مكة والمدينة — شأن علمي كبير ولكنه العلم الديني المطبوع بالطابع العربي ، فأما مكة فلأنها كانت منبع الاسلام وبها كانت نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها كانت الاحداث الأولى من دعوة قريش الى الاسلام ومناهضتهم للدعوة ، وبها كان التشريع الملكي ، وهو لا يفهم فيها حقا حتى يفهم ما كان يحيط به من ظروف مكية ، وبعض هذا التشريع الاسلامي انما هو اقرار لما كان يفعل في مكة قبل الاسلام ككثير من مناسك الحج وأما المدينة فهاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها كان أكثر التشريع الاسلامي ، وكانت منبعاً لا أكثر الأحداث التاريخية في صدر الاسلام ، وبها حدث النبي صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه ، وهو لا يفهم تمام الفهم الا أن يفهم ما أحاط به من ظروف مدنية ، وكانت مركز الخلافة في أهم عصر من عصور الاسلام أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، وبها كان كثير من أكابر الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال ، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من أحداث كفزوات وفتوح ، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا

فلا غرو اذن ان كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في ذلك العصر ، يقصدهما طلاب الحديث وطلاب الفقه وطلاب التاريخ — وقد فاقت المدينة مكة في ذلك ، لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبي صلى

الله عليه وسلم الى المدينة ، وكان من يسلم بعد الهجرة من أهل مكة مهاجر كذلك ، خصوصاً اذا كان من رجالات قريش وعقلائها ، ثم كانت المدينة مقصد من يريد الاسلام في عهد النبي من سكان جزيرة العرب ، وكثير منهم كانت تدعوه الحماسة الدينية أن يقيم بجوار النبي يتعلم منه ويتعبد معه ويسمع من قوله ويشاركه في غزواته ، وبعد وفاة الرسول كانت مقرّ الخلافة ، ومركز كبار الصحابة ، حتى يحرم عمر على كبار قريش أن يبرحوها الا الحاجة ماسة ، وكانت في عهد الفتوح الكبيرة مورداً للأسرى ، وقد رأيت أن عمر كان يحرم أن توزع الأسرى في مواطن الحروب ، فكان يأتي بهم أولاً الى المدينة ، وكثير من هؤلاء الأسرى من الفرس والروم كانوا من الطبقة الأرستقراطية في قومهم ، وكانوا متعلمين على النمط الذي ساد في أمتهم وعصرهم ، فأقام منهم بالمدينة كثيرون عد منهم ابن سعد في طبقاته عدداً كبيراً ، وكانوا موالى لكبار الصحابة وأسلموا على أيديهم فصبغوا الحياة الاسلامية بعقليتهم التي تخالف من بعض الوجوه عقلية العرب ، وكانوا قد ألفوا في قومهم علماء منظماً وكتباً مدونة فأخذوا يتبعون هذا في تعاليم الاسلام — كل هذا جعل المدينة تفوق مكة من هذه الناحية العلمية ، أضف الى ذلك أن المهاجرين كانوا يكرهون في أول عهد الاسلام — ديناً — أن يتحولوا من المدينة الى مكة ، روى ابن سعد « قال محمد بن عمر لا نعلم أحداً من المهاجرين من أهل بدر رجع الى مكة — يعنى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فنزلها غير أبي سبرة فانه رجع الى مكة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فنزلها ، فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ، ويدفعون أن يكون رجع الى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ، ويغضبون من ذلك »

لهذا كانت مدرسة المدينة أغزر علماء ، وأبعد شهرة ، تخرج فيها أكثر علماء ذلك العصر في التفسير والحديث والفقه والتاريخ ، يقصدها طلبة العلم من أقاليم البلدان لتلقى العلم عن علمائها ، فابن الأثير يحدثنا أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه « عمر » الى المدينة للتأدب بها ، وكتب الى صالح بن كيسان أن يتعاهده ، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة فقال ما حبسك ؟ فقال كانت مرَجَلَتِي تصلح شعري ، فكتب الى أبيه بذلك ، فأرسل أبوه رسولا فلم يزل به حتى حلق شعره ، ونرى محمد بن اسحاق والواقدي نشأ بالمدينة وتخرجا في مدرستها ، فكان عليهما اعتماد كل من كتب بعدهما في المغازي والسير — وهذا طبيعي ، فمن أحفظ لحديث رسول الله وأخبر بنزواته ، وأعرف بحياته وحياته خلفائه من أهل المدينة ، وبين سمعهم وبصرهم كانت هذه الاحداث ؟ والآن نذكر طرفاً من أخبار مدرسة مكة ومدرسة المدينة وأشهر علمائها

مدرسة مكة : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خلف فيها معاذاً يفتقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن ، وكان معاذ من أفضل شباب الانصار علماء وحلماء وسخاء ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وعمر وابن عمر ومات شاباً في طاعون عمّواس كذلك علّم بمكة عبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، فقد علّم في البصرة وعلم في المدينة ، ثم لما كان الخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ذهب الى مكة وعلّم بها ، فكان يجلس في البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، والى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية — وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر

وعطاء بن أبي رباح وطائوس بن كيسان^(١) وثلاثتهم من الموالى ، فجاهد مولى بنى مخزوم ، وقد اشتهر برواية أقوال ابن عباس فى تفسير القرآن ، وروى أنه قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات ، أفقه عند كل آية أسأله فم نزلت وكيف كانت

وعطاء كان من مولدلى الجند ، وكان مولى لبلى فهر ، وكان أسود أظلس مفلل الشعر ، ومن جلة فقهاء مكة وزهادها ، وكان يعد من أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يجلس فى المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم وطاووس كان من أبناء الفرس فى اليمن ، وقد أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ عنهم ثم انقطع الى ابن عباس وكان من خاصة تلاميذه ، ثم كان من سادة التابعين ومن فقهاء مكة ومفتيها

واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة ، ويطول بنا القول لو عددنا مشهورى العلماء من كل طبقة وترجمة حياتهم ، غير أنا نذكر هنا أنه كان من مشهورى الطبقة الخامسة سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى ، وكلاهما كان من الموالى ، وعليهما أخذ الامام الشافعى القرشى علمه فى نشأته الأولى ، فقد ولد بقرية ثم حملته أمه صغيراً الى مكة فتعلم الأدب فى باديةها ، يحفظ الأشعار ويتعلم اللغة ، ثم نشأ فى مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن ذكرنا من علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول الى المدينة يتم فيها دراسته

مدرسة المدينة : قلت ان مدرسة المدينة كانت أ كثر علماء وأوفر شهرة وأبنت السبب فى ذلك ، وقد اشتهر فيها كثير من الصحابة العلماء كعمر بن الخطاب ،

(١) عد الذهبى طاووسا من علماء اليمن وفقهائها ومفتيها وقال أنه انتهى موته بمكة فى الحج وكذلك ابن سعد وجربنا هنا على ما قاله ابن القيم الجوزية من أنه من فقهاء مكة ومفتيها

ولكن أشهر من امتياز بالعلم فيها وتخصص للحياة العلمية وكثر بها أصحابه وتلاميذه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولكن كلاهما يختلف في منحاه العلى عن الآخر ، فزيد بن ثابت أنصاري صحب النبي صلى الله عليه وسلم منذ صباه ، وتعلم السريانية والعبرية ولكن لا ندرى الى أى حد كان مثقفاً بتقافتها ، فهم يحدثوننا أنه تعلم اليهودية فى نصف شهر والسريانية فى سبعة عشر يوماً ، وهى أيام قليلة لا تكفى لحذق لغة والقدرة على تفهم آدابها ، فهل استمر يتعلم حتى نال قسطاً من آداب اللغتين ؟ ذلك ما لا ندرى ، كان ضليعاً فى فهم تعاليم الاسلام وله القدرة الفائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، ومن الرأى اذا لم يكن كتاب ولا سنة ، حتى قال سليمان بن يسار « ما كان عمر ولا عثمان يقدران على زيد بن ثابت أحداً فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة » وقال القاسم « كان عمر يستخلف زيد بن ثابت فى كل سفر يسافره ، وكان يفرق الناس فى البلدان . . . ويطلب اليه الرجال المُسمَّون (النابهون) فيقال له زيد بن ثابت ، فيقول لم يسقط على مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون الى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره » وقال قبيصة « كان زيد بن ثابت مترتساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلى فى مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين حتى ولى معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضاً حتى توفى زيد سنة ٤٥ » وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول هكذا يفعل بالعلماء والكبراء — وكان ذا عقل رياضى ، فكان أعلم الناس بالفرائض (الموارث وتقسيمها) وولى قسمة الغنم فى اليرموك ، وعلى الجملة فكان عالماً وفقهياً ممّا أعنى واسع الاطلاع قادراً على استنباط المعانى ، ذا رأى فيما لم يرد فيه أثر ، ويروى أن حسان ابن ثابت رثاه فقال :

فَإِنَّ لِقَوافِي بَعد حَسانَ وابنه ومن للمعانى بَعد زَيد بن نَابت ؟
وهذه « المعانى » التى وردت فى هذا البيت هى الميزة التى امتاز بها عن
عبد الله بن عمر ، فقد كان عبد الله عالماً فقط . يجمع الأحاديث ويروىها ويكتبها
ويتخرج من الفتوى وإبداء الرأى ، وهما نزعتان ظللتا تيران جنباً الى جنب
عهداً طويلاً كما سيأتى بيانه

على هؤلاء العلماء من الصحابة فى المدينة تخرج كثير من علماء التابعين
من أشهرهم سعيد بن المسيب - وكان من تلاميذ زيد بن نابت يحفظ قضاياهم
وفتاويهم ويفضل قوله على قول غيره - وعروة بن الزبير بن العوام وكان من أعلم
أهل المدينة وأورعهم - وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي وقد
حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم ، وكان من أسبق العلماء الى تدوين العلم ، واتصل
بكثير من خلفاء بني أمية ، وكان موضع احترامهم ، كعبد الملك بن مروان وهشام ،
واستقضاه يزيد بن عبد الملك وقال فيه عمر بن عبد العزيز انكم لا تجدون أحداً
أعلم بالسنة للماضية منه

وأخيراً أجببت هذه المدرسة مالك بن أنس امام دار الهجرة

بجانب هذه الحياة الجليلة الوقور التى تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء
والمفتين ، كانت تسود فى الحجاز حياة أخرى هى حياة فرح ومرح وطرب وشراب ،
تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني ، فمن الحق أن نصور هذا العصر
من جميع جهاته كما كان ، كان بالحجاز زهد وورع وتقوى وحديث وفقه ، وكان
بالحجاز شراب وتشبيب بالنساء حتى فى موسم الحج وهو ولعب كثير ، وكما أنتجت
الحياة الأولى علماً كثيراً أنتجت الحياة الثانية فناً بديعاً من غناء وتنادر وأدب ،

ومن العجيب أن يفوق هذا الفن في الحجاز مثيله في العراق والشام - على ما يظهر لنا - فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيهما بالمغنين والغنيات ، حتى يروى لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون الى الحج قوافل ، واشتهر في عصر واحد أربعة من كبار المغنين ابن سُرَيْج والغريص ومعبّد وحُنين ، وكان الثلاثة الأولون بالحجاز والأخير وحده بالعراق ، فاجتمع الأولون فنادوا ، وكتبوا الحنين يقولون نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا فشخص اليهم . . . واجتمعوا بمنزل سُكَيْنة فلما دخلوا أذنت للناس اذناً عاماً فقصت الدار بهم . . . وازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم^(١) - واجتمع في زمن واحد من مشهورى المغنين والغنيات في الحجاز جميلة وهيّت وطويس والدلال وبرد الفزاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع ابن طنبورة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وبلبلّة ولذّة العيش وسعيدة والزرقاء الخ ويروون ان هؤلاء حجوا فلتقاهم في مكة سعيد بن مسجح وابن سُرَيْج والغريص وابن مُحَرِّز ، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون الى حسن هيئتهم الخ^(٢) ويقول أبو الفرج أن الناس اجتمعوا عند جميلة فضربت ستارة وأجلست الجوارى كلهن ، فضر بن وضربت ، فضر بن على خمسين وتراً فنزلت الدار ثم غنت على عودها ، وهن يضربن على ضربها الخ^(٣)

وكان لمغنى مكة مذهب في الغناء ولمغنى المدينة مذهب ، وكان بين الفريقين مفاخرة ، وأقبل الناس على الغناء يسمعون حتى يروى لنا أبو الفرج أيضاً أنه تَمَى الى عبد الملك أن رجلاً أسود بمكة يقال له سعيد بن مسجح أقصد فتان قريش

(١) أنظر الأغاني جزء ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

(٢) ترى الحديث بطوله في الأغاني جزء ٧ ص ١٢٨ وما بعدها

(٣) جزء ٧ ص ١٣٢

وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب الى عامله أن اقبض ماله وَسَيِّرْهُ ^(١) وحتى يروى لنا أن الامام مالك بن أنس قال نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وأخذ عنهم ، فقالت لي أمي يا بني ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يُلْتَمِثْ الى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه ؛ فتركتُ المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ماترى ^(٢)

والى الغناء كان التنادر والفكاهة الحلوّة ، فكان النَّاصِرَى مُنْدِرِ أهل المدينة ومضحكهم ، ثم خلفه أشعب فلاّ الحجاز ملحاً ووادراً كما أمتع أهله بحسن صوته ، وخلف لنا فى كتب الأدب نوادر ممتعة أضحك بها أهل المدينة فى مجالسهم والحق أن الحجاز كان غنياً بِغِنَى الغناء والمنادرة كما كان غنياً بالفقه والحديث ، وكان أكثر المغنين فى قصور أمراء بنى أمية وخلفائهم ممن تخرجوا فى مدرسة الحجاز - وليس عجباً أن يكثر الفقه والحديث فى الحجاز لما بينا ، انما كان عجباً أن يبرز الحجازُ العراق والشام فى الغناء وما اليه ، فقد كان أقرب الى الذهن أن يكون العراق وارثُ اللدنيات للمتتابة ، أو الشام وقد تحضر بحضارة الرومانيين ، أسبق من الحجاز فى اجادة الغناء وما يحيط به من لهو ومجون ، والحجاز كما قدمنا أقرب الى البداوة ، وهو اذا قورن بالعراق أو الشام كان فقيراً مجدباً فما السر فى ذلك ؟ لعل السبب ما نراه فى ثنايا الكتب من ظُرف أهل الحجاز ورقة شعورهم وأنهم فى ذلك العصر فاقوا أهل العراق والشام ، حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدرأ ، وأكثر تسامحاً فى الغناء والمجون من أهل العراق ، وقد رأينا قبل ما لأهل العراق من تشدد فى الدين كان وليد الفرس ، جاء فى الأغاني أن عبيد الله بن عمر العُمَرَى قال خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفّشت فيه ،

فأدريت ناقتي منها ثم قلت لها يا أمة الله أأستِ حاجةً ، أما تخافين الله ؟ فسفرت
 عن وجهه بيهره الشمس حسناً ثم قالت : تأمل يا عمي فإني ممن عنى العرجي بقوله
 مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَجْجَنْ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُغْفَلَا
 قال فقلت لها فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار ، وبلغ ذلك سعيداً
 ابن المسيب (مفتى المدينة) فقال أما والله لو كان من بعض بفضاء أهل العراق
 لقال لها اعزبي قبحك الله ، ولكن ظرف عبّاد الحجاز^(١) . وروى في موضع آخر
 عن داود الثقفى قال كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبدالله
 ابن المبارك وعدة من العراقيين اذ مر به ابن ميزان المغنى . . . فدعاه ابن جريج
 فقال له احب أن اسمعنى ، قال أنا مستعجل ، فألح عليه . . . فغناه وقال لولا مكان
 هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك ، فالتفت ابن جريج الى أصحابه
 فقال : لعلمكم أنكرتم ما فعلت ا فقالوا إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال
 فما تقولون فى الرجز يعنى الحداء ؟ قالوا لا بأس به عندنا ، قال فما الفرق بينه
 وبين الغناء ؟^(٢) ويحكى الاغانى أيضا أن حنيناً خرج الى الشام واجتمع بالفتيان فقلب
 لهم الغناء على جميع ألوانه فلا فكبهوا له ولا سروا به ، وتمنوا أبا منبه فلما حضر غنى
 لهم غناء سخيفاً فطر بوا له ، فأقسم ألا يبيت فى هذا البلد^(٣)

وقد يكون السبب أن الحجاز كان به ارستقراطية العرب وهم العنصر الفاتح
 وقد نال هؤلاء الارستقراطيون خير الجوارى وأرفعهن نسباً ، وأكثرهن تأدباً ،
 ومنهن من تربى ببيت الملوك والامراء ، وتأدب بأداب الحضارة ، فنقلن ذلك الى
 الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية ، وكان لهم الفضل فى تأسيس مدرسة الغناء
 فى الحجاز

(١) الاغانى جزء ١٧ ص ١٢١

(٢) الاغانى جزء ١ ص ١٥٧ (٣) انظر الحكاية بطولها فى جزء ٢ ص ١١٩

وقد تكون العلة ان البدو اذا تحضروا و بسط لهم في العيش أسرفوا في اللهو،
شأن كثير من غني بعد الحرمان

وربما كان السبب أن الأمويين تبوءوا الخلافة وحصروها فيهم بل في بيت
من بيوتهم ، وضيقوا على من عداهم من بطون قريش، وحجروا عليهم التفكير في
الشؤون السياسية، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلقاء بني أمية ، والعراق هو العنصر
المعارض، فأنصرف فتیان الحجاز بما لهم من مال وفير وجاء عز بزعم الامارة والخلافة
والسياسة الى اللهو ، فكان الظرف وكان الغناء وكان الشراب وكان المجون

وقد يكون من الحق أن تكون كل هذه أسباباً أنتجت ما ذكرنا
وكان لهذا النوع من الحياة أثر في الأدب كبير ليس من شأننا هنا التعرض له
العراق : هو الجزء الجنوبي من وادي دجلة والفرات ، خصبت أرضه وغزر
ماؤه ، واعتدل جوه ، فكان من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً ، قديماً تعاقبت عليه
الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، فالبابليون والآشوريون
والكلدانيون والفرس واليونان كل هؤلاء انشؤا في العراق ممالك تختلف صبغتها
وكانت مدنيتهم مناراً يلقى أشعته على ما حوله من البلدان

وقديماً عرفه العرب فتزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، ثم كونوا فيه اماره
هي اماره المناذرة في الحيرة ، وهي التي وصفناها قبل ، ثم استولوا عليه بعد الاسلام
في عهد عمر ، وأنشؤا فيه البصرة والكوفة فأسرع اليهما النمو ، وتحولت اليهما
كنوز المدائن ، وحضارة بابل والحيرة وتركزت فيهما مدينة العراق في عهد
الأمويين ، حتى كان اذا قيل العراق فعناه البصرة والكوفة ، وكانوا أحياناً يطلقون
عليهما « العراقين »

لما فُتِح العراق وسمع العرب بغناه رغبوا في الرحلة اليه ، جاء في الطبري

« بعث عتبة أنس بن حُجَيَّة إلى عمر بمنطقة مَرزُبانِ دَسْت مَيَّسَانَ فقال له عمر كيف المسلمون ؟ فقال اتأملت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس في البصرة فأتوها » وترك عمر الأرض في يد أهلها ووضع عليها الخراج فجعل على جريب النخل (١) عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البُر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين فبلغ الخراج - على مايقولون - مائة مليون درهم ، وضرب على أهلها الجزية ، فكان من تجب عليهم الجزية ٥٥٠ ٠٠٠ وتختلف قيمة الجزية - كما علمت - بين ٤٨ ديناراً في السنة و ٢٤ و ١٢ حسب الثروة ، فترى من هذا مقدار ثروة العراق وغناه ، مما حجب الى العرب سكناه

رحل العرب الى العراق يحملون بين جنوبهم العصبية القَبَائِيَّة (٢) ، وارتستراطية الفاتح ، فكان من مظاهر الأمر الأول أن البصرة والكوفة خطط كل منهما تخطيطاً قبلياً ، فقد قسمت الكوفة مثلاً قسمين : القسم الشرقي وكان خير القسمين ، والقسم الغربي ، فاقترح على من يأخذ خير القسمين ، اليمينيون أم النزاريون ، فنال القسم الشرقي اليمن ، والقسم الغربي نزار ، ثم اختط كل فريق جزءاً من أرضه حسب القبائل (٣) ويروي الشعبي أن اليمينيين بالكوفة كانوا أكثر من النزاريين فكان اليمينيون اثني عشر ألفاً ، والنزاريون ثمانية آلاف (٤) ، وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد كما رأيت مما حكينا عن ابن أبي الحديد ، وكان عرب الكوفة

(١) الجريب نحو ٣٦٠٠ ذراع مربع

(٢) القبلي نسبة الى القبيلة

(٣) ترى توزيع القبائل على الخطط في الطبرى جزء ٤ ص ١٩٢ طبع مصر وفي فتوح

البلدان للبلاذرى

(٤) فتوح البلدان ص ٢٧٦ طبع أوروبا

إذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت مثلها في الجانب الآخر ،
فيمَن الكوفة يقاتلون يمن البصرة ، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر
الكوفة تقاتل مضر البصرة^(١)

وأما ارسطراطية الفاتح فكان مظهرها في موقف العرب أزاء الموالي ، فقد كان
أكثر سكان العراق من الفرس ، والعرب فيه أقلية ، فقد رأيت أنه أحصى من
تجب عليه الجزية في العراق فكانوا خمسمائة ألف وخمسين ألفاً ، هذا عدا من أسلموا
من الفرس ولم تجب عليهم الجزية ، هؤلاء الموالي كانوا يحالفون العرب ويدخلون
في ولايتهم لحمايتهم ، ويعدونهم سادتهم ، ويتعصب كل قوم منهم للقبيلة التي حالفوها
من العرب يقول البلاذري « حالفت الأساورة^(٢) الأزدي ثم سألوا عن أقرب
الحيين من الأزدي وبنى تميم نسباً الى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء وأقربهم مدداً
فقيل بنو تميم فخالفهم » وكان هؤلاء الموالي هم القائمين بالحرف والصناعات والتجارة
في العراق ، وكلف العنصر السائد المشرف على الأمر الذي بيده زمام الحرب
هم العرب

تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنوها ، فعرب الكوفة
ومواليها يتعصبون للكوفة ، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة ، يفخر كل
منهما بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح
البلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من محابة رسول الله ، ويعير كل الآخر ما نبت
عنده من دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم^(٣) وظهرت هذه المفاخرات

(١) الطبري جزء ٥ ص ٢٠٧

(٢) الاساورة قوم من فرسان الفرس نزلوا البصرة ويقابلهم الاحامرة بالكوفة

(٣) أنظر في هذه المفاخرات كتاب البلدان للهمداني المروف بابن الفقيه ص ١٦٣ وما بعده

ففيه مفاصلة ممتعة بين البصرة والكوفة

العلمية والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ظهوراً بيناً في كثير من فروع العلم ،
فالبصريون والكوفيون في النحو ، والبصريون والكوفيون في الفقه ، والبصريون
والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في الأدب ،
يقول أعشى همدان

ا كَسَعَ البَصْرِيُّ اِنْ لاقَيْتَهُ اِنَّمَا يُكْسَعُ مَنْ قَلَّ وَذَلَّ
وَاجْعَلِ الكُوفِيَّ فِي الخَيْلِ وَلَا تَجْعَلِ البَصْرِيَّ اِلَّا فِي النَفْلِ
وَإِذَا فَآخِرَتُمُونَا فَادْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الجَمَلِ
بِئْنَ شَيْخٍ خَاضِبٍ عُنُونُهُ وَقَتِي اَبْيَضَ وَصَاحَ رَفَلًا
جَاءَنَا يَخْطُرُ فِي سَاعِيَةٍ فَذَبَّحْنَاهُ ضَحْيَ ذَبْحِ الجَمَلِ
وَعَفَوْنَا فَانْسَيْتُمْ عَفَوْنَا وَكَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللهِ اَلْجَلِّ

ويظهر أن العراق — على الجملة — كان أكثر البلاد الاسلامية ثروة علمية
وأدبية ، اذا استثنينا بعض فروع تفوق فيها أهل الحجاز ، ولثروة العراق العلمية
أسباب أهمها : —

(أولاً) أن العراق — كما علمنا — أسس على مدنيات قديمة لها علم مأثور ،
فكان طبيعياً أن ينهض أهله بعد ثورة الفتح فيستعيدوا حضارتهم القديمة ، وعلمهم
الموروث ، كان السريان يثرون منتشرين في أرض العراق قبل الفتح ولم مدارس
ي درسون فيها الآداب اليونانية ، وكانت في العراق مذاهب نصرانية تتجادل في
كثير من العقائد كالذي رأيت ، وكان في الحيرة يونان مثقفون ، من أسارى الحروب
الفارسية اليونانية ، فكان لا بد أن تتخلف من هذا جميعه آراء وأفكار خدمت
أثناء الحروب ثم استيقظت بعد أن قربت سياسة البلاد ، وكان كثير من أهل العراق
دخل في الاسلام ، فأخذت هذه الآراء تصطبغ بالصبغة الاسلامية ، يزهر منها ما يتفق

والاسلام ويزبل منها ما يخالفه

أضف الى ذلك أن العراق — كما علمت — قطر غني يتوافر فيه العيش

فيجد الناس من أوقاتهم ما يسمح لهم بالعلم

(ثانياً) لعل العراق كان أكبر الأقاليم الاسلامية ميداناً للحروب والفتن في

عهد الدولة الأموية ، فنذ مقتل عثمان وهو مشتعل ، ذهبت عائشة وطلحة والزبير

الى البصرة ، فذهب عليّ الى الكوفة ، وكانت بين البصرة والكوفة وقعة الجمل ،

وذهب الحسين الى الكوفة فكان بها مقتله ، وخرج المختار الثقفي بالكوفة يطلب

بئار الحسين ، واستولى مصعب بن الزبير على البصرة وسار الى الكوفة فقتل المختار ،

وجهز عبدالملك جيشاً وسار الى العراق فقتل مصعباً ، وتغلب عبد الرحمن بن الأشعث

على الكوفة فار اليه الحجاج وتغلب عليه ، كان من أثر ذلك طبيعياً أن يتساءل

الناس من المخطئ ومن المصيب ؟ هل أخطأ قتلة عثمان أو أصابوا ؟ هل لعل يد

في دم عثمان ؟ هل لطلحة والزبير وعائشة حق في قتال علي ؟ هل أصاب عليّ في

التحكيم ؟ هل يصح الخروج على عبد الملك لظلم واليه الحجاج وسفكه للدماء ؟

وهل أصاب من فعل ذلك وخرج مع ابن الأشعث ؟ كل هذه أسئلة كانت تثار ،

وكانت تثار بكثرة حتى في دروس الأساتذة في المساجد ، واذ كان العراق ميداناً

لأكثر هذه الحروب كان أهله أكثر الناس جدالاً في هذا ، فكان طبيعياً أن

يكون منبعاً للكثير من المذاهب الدينية ، لأن كثيراً منها بنى على نحو هذا الأساس

كما سيأتي بيانه — جاء في طبقات ابن سعد أن الحسن البصرى كان من رءوس

العلماء في الفتن والدماء — ودخل عليه قوم فقالوا له يا أبا الحسن ، ما تقول في هذا

الطاغية (يعنى الحجاج) الذي سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة

وفعل وفعل ؟ الخ وقال « سأل رجل الحسن ما تقول في الفتن ؟ مثل يزيد بن المهلب

وابن الأشعث؟ فقال لا تكن مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء؟ فقال رجل من أهل الشام
 ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها ثم قال ولا مع أمير
 المؤمنين يا أبا سعيد نعم ولا مع أمير المؤمنين^(١) الى كثير من أمثال ذلك
 (ثالثاً) كان العراق عرباً وموالى — كما علمت — وكانت السيادة للعرب،

فاضطر الموالى لتعلم اللغة العربية لدينهم ولديانهم، فكانوا مضطرين الى نوع من
 العلم يسهل لهم طريق التعلم، فست الحاجة الى وضع علم النحو، وكان طبيعياً أن
 ينشأ ذلك في العراق، لاني الحجاز ولا في الشام، لأن الحجاز لم يكن في حاجة الى
 قواعد يقيم بها لسانه، ولأن موالى العراق أكثر رغبة من موالى الشام، لما علمت من
 أن رغبة الفرس في العربية كانت أكثر من رغبة سواهم، ولأن الآداب السريانية
 كانت في العراق قبل الاسلام، وكان لها قواعد نحوية، فكان من السهل أن
 توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية، خصوصاً واللغتان من أصل سامي
 واحد، لهذا كان السابقون الى وضع النحوم البصريين أو لآثم الكوفيين، وفاق
 البصريون لقربهم من بادية العرب وبعُد الكوفيين عن البادية الفصيحة

والآن نستعرض باختصار الحركة العلمية في البصرة والكوفة من مبدئها
 الكوفة — نزل الكوفة من أصحاب رسول الله كثيرين، وكان أشهرهم في العلم
 على بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، فأما على فكان عمله السياسي في العراق
 واشتغاله بالحرب وشؤونها مانعاً له من التفرغ للتعليم، وأما ابن مسعود فهو أكثر
 الصحابة أثراً علمياً فيها، كان ابن مسعود من أول الناس اسلاماً، حتى روى أنه
 سادس ستة أسلموا، وهاجر الى الحبشة مع من هاجر، والى المدينة، ولازم النبي
 صلى الله عليه وسلم يخدمه، وسمَّح له أن يدخل بيته حين لا يسمح لغيره. وشغف

بالقرآن يحفظه ويتفهمه . كذلك جعله يفهم من تعاليم الاسلام ومعاني القرآن وأعمال الرسول ما عدَّ من أجله من كبار علماء الصحابة ، بعثه عمر بن الخطاب الى أهل الكوفة يعلمهم ، فأخذ عنه كثير من الكوفيين ، ولفمه تلاميذ له يتعلمون عنه العلم ويتأدبون بأدبه ، قال فيهم سعيد بن جبير « كان أصحاب عبد الله سُرَّحَ هذه القرية » (يعنى الكوفة) وكان يعلم الناس القرآن ويفسره ، ويروى أحاديث سمعها من رسول الله ، ويُسأل عن سوادث فينتى فيها استنباطاً من الكتاب أو السنة أو برأيه اذا لم يرد فيها كتاب ولا سنة ، واشتهر من مدرسته هذه ستة ، كانوا يعلمون القرآن ويُفتون الناس . عَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ وَمَسْرُوقٌ وَعُبَيْدَةُ وَالْحَارِثُ بْنُ قَيْسٍ وَعَمْرُو بْنُ شَرْحَبِيلٍ ، وهؤلاء خلفوا عبد الله بن مسعود في التعليم بالكوفة ، ولم يكن كل علماء الكوفة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، بل كثير منهم كانوا في المدينة وأخذوا عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ومعاذ ونحوهم فتكونت في الكوفة حركة علمية كبيرة ، واشتهر من علمائها شريح والشعي والنخعي وسعيد بن جبير . ولم تزل هذه الحركة تنمو وتنضج حتى توجت بأبي حنيفة النعمان الكوفي

البصرة — كذلك نزل في البصرة عدد كبير من الصحابة ، أشهرهم في العلم أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك

فأما أبو موسى فيمنى ، قدم مكة وأسلم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وكان يعد من أعلم الصحابة ، وقد قدم البصرة وعلم بها ، سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك كيف تركت الاشعري فقال تركته يعلم الناس القرآن فقال انه كبير ولا تُسمِعَهَا آيَاهُ^(١) ، ويدل ما روى عنه من قضاء بين الناس وفصل في الخصومات على

أنه كان فقيهاً فوق معرفته القرآن والحديث ، أما أنس بن مالك فكان أنصاريًا وكان صبيًا لما قدم النبي المدينة وخدمه نحو عشر سنين ، وقد نزل البصرة ومُهر فيها طويلاً ، وكان آخر من توفي بالبصرة من الصحابة ، وتوفي سنة ٩٢ هـ ولكن يظهر أنه لم يبلغ في العلم مبلغ أبي موسى الأشعري ولا عبد الله بن مسعود في الكوفة ، وكان محدثاً أكثر منه فقيهاً ، وأشهر من خرجته مدرسة البصرة في عهد الأمويين الحسن البصرى وابن سيرين ، وكلاهما من أبناء الموالى من سبي ميسان ، وكلاهما أتاه العلم عن طريق الولاء ، فأبو الحسن البصرى كان مولى لزيد بن ثابت ، وهو من أشهر علماء الصحابة ، وسيرين أبو محمد كان مولى لأنس بن مالك وهو من علمت صحبة وحديثاً ، وكلاهما كانت له شخصية ظاهرة في البصرة ، فالحسن البصرى اشتهر بمتانته خلقه وصلابه وعلمه وفصاحته ، فأما متانته خلقه فتظهر في أنه لم يكن يخشى أحداً في ابداء رأيه ، سئل عن ولاية يزيد بن معاوية فلم يستصوبها على حين أن الشعبي وابن سيرين لم يجروا على ابداء رأيهما ، وقد رأيت قبل أن سألتا سأله عن الدخول في الفتن فكان لا يرى الدخول فيها ، فسأله ولا مع أمير المؤمنين فقال ولا مع أمير المؤمنين ، وكان يقارن بالحجاج في فصاحته ، وفوق ذلك كان ورعاً تقياً يعده الصوفية أحدهم ، ويتمثلون بحكمه وجمله ، ويعدونه المعتزلة رأسهم لأنه تكلم في القضاء والقدر وكان يذهب الى أن الانسان حر الارادة ، وكان فقيهاً يستفتى فيما يعرض من الحوادث فيفتي بعلم ، وكان قصاصاً يعد من سادة القصاص وأصدقهم ، لذلك كان الحسن شخصية ممتازة في كل ناحية من النواحي التي ذكرنا ، ويروى ابن خلكان أنه لما مات (سنة ١١٠ هـ) تبع أهل البصرة كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر

وأما ابن سيرين فقد تعلم على زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريم وغيرهم

وكان محدثاً ثقة وقيماً يفتى فيما يعرض عليه من الشؤون ، وكان معاصراً للحسن البصرى ، وكانا صديقين حيناً ، وبينهما وحشة حيناً ، وسبب الوحشة على ما يظهر اختلاف طباعهما فقد كان الحسن صريحاً شديداً حزيناً غضوباً ، لا يخشى أن يقول ما يعتقد حتى في المسائل السياسية الخطرة ، وكان ابن سيرين حليماً ضحواً يتخرج أن يقول ما يؤخذ عليه^(١) وقد اشتهر فيما بعد بتفسير الاحلام وزيف عليه كتاب في ذلك ، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست ونسبه اليه ، ولكننا لانجد أثراً لشهرته في تعبير الرؤيا في كتب المتقدمين أمثال طبقات ابن سعد ، ومات سنة ١١٠ هـ وكان الحسن وابن سيرين يعدان سيدي أهل البصرة

وكان في العراق حركة غير الحركة الدينية تمد كأنها امتداد للحياة العقلية الجاهلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلامية ، فقد كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شيء برؤساء القبائل في الجاهلية ، في السيادة على قبائلهم ، والتفاف الناس حولهم ، والخضوع لآشارتهم في السلم والحرب ، ووقوف الشعراء ببابهم يتغنون بمدحهم وينشرون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ، ويتغنى هؤلاء السادة بالسيادة والمروءة وبذل المال وما الى ذلك ، كالأحنف بن قيس سيد تميم البصرة ، والحكم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس البصرة ، ومالك ابن مسعم سيد بكر البصرة ، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ، ومحمد بن عمير ابن عطار بن حاجب بن زُرارة سيد تميم الكوفة ، وحسان بن المنذر من ضبة الكوفة وحجر بن عدى ومحمد بن الأشعث سيدي كندة الكوفة وغيرهم ، وهؤلاء وأمثالهم كانوا مصدرراً لحياة أدبية قوية ، من شعر يشبه الشعر الجاهلى وحكم تشبه

(١) استتجنا هذا من سيرة الحسن وابن سيرين في طبقات ابن سعد وانظر في ذلك خاصة

التي تروى عن أكرم بن صيفي ، وليس هذا موضع شرح هذه الحركة الأدبية ولكن لا بأس من تصوير شخصية من هذه الشخصيات الكبيرة ، ليتبين لنا منحاها في الحياة وتأثيرها في الأدب ، ولتكن شخصية الأحنف بن قيس

كان الأحنف كما ذكرت - سيد بني تميم في البصرة وكان كما يقولون اذا غضب غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يدرون فيم غضب ، يدخل بنو تميم الحرب مع من أحب الأحنف ، ويكفون اذا كف ، وعرف معاوية منزلته في قومه وسيادته فقر به وأكرمه ، وأوصى ولاته بذلك حتى كان يعزل الوالي اذا غضب عليه الأحنف ، ويحتمل منه معاوية الكلمة القارصة ويداربه ، قال له معاوية يوماً والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين الا كانت حزازة في قلبي (لأن الأحنف كان مع علي) فقال الأحنف والله يا معاوية ان القلوب التي أبغضناك بها لني صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لني أغمادها ، وان تدن من الحرب فترا ندن منها شبراً ، وان تمش اليها نهول لها - وكان له فضل في التأليف بين كثير من القبائل المتعادية في البصرة - وكان مثلاً في علو النفس والاحتفاظ بالكرامة والبروة ولما مات قيل « مات سيرُّ العرب » وأبنته امرأة فقالت « لقد كنت في الحى مسوداً ؛ والى الخليفة موفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرايك متبعين » وله من الأقوال الماثورة والحكم ما ملأ كتب الأدب مثل « لاخير في لذة تعقب ندماً » « لن يفتقر من زهد » « أنصف من نفسك قبل أن يُنصف منك » « ما أتيج القطيعة بعد الصلّة » « أتفق في حق ولا تكن خازناً لعيرك » « لاراحة لحسود ولا مروءة لكذوب » الخ

أما الحركة الفلسفية في العراق فسنشير اليها عند الكلام على المذاهب الدينية

وقد أُنعت في الدولة العباسية حتى نبغ من الكوفة كثيرون من الفلاسفة ، ونبغ من البصرة جماعة اخوان الصفاء

الشام : قطر غنى ، خصب الارض كثير المياه ، معتدل الجو ، كان مبعثاً لكثير من الانبياء ، فنشروا فيه تعاليمهم الدينية ^(١) ، وتعاقت عليه المدن المختلفة فاورثته علمها وحضارتها ، ففينيقيون وكلدانيون ومصريون وعبريون ويونانيون ورومانيون ، كل هؤلاء كانت لهم مدينة ، وكان لهم علم ، وانتشر علمهم في البلاد ، وكان من أهل الشام أنفسهم من شارك في العلم ونبغ فيه ، وبارى علماء الامم المستعمرة ، واشتهر في الشام كثير من المدن كان مركزاً للعلم والحركة العقلية ، كصور وانطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، اورشها الفينيقيون حروف الكتابة ، والعبريون التعاليم الآلهية ، واليونان المذاهب الفلسفية ، والرومان النظريات الفقهية ، فكان لذلك كله الأثر الكبير في عقلية الشاميين ، وقد ذكرنا قبل ذلك طرفاً مما كان للسريانيين من حركة علمية في هذه البقاع وما حولها

وقد عرف العرب في جاهليتهم هذه البلاد فزحفوا اليها طمعاً في خيراتها ، وانشئوا ولايات بها في حمص وبطرة من أول القرن الثاني قبل الميلاد، ثم كانت في القرن الخامس الميلادي امارة الغساسنة وقد سبق ذكرها ، وقد تأقلموا باقليمها واعتنقوا النصرانية بعد انتشارها في ربوع الشام، وتمدنوا بشيء من مدنيتها وتكلموا بلغة هي خليط من الآرامية والعربية ، وعدوا أنفسهم سوريين يرتبطون بسوريا أكثر مما يرتبطون بجزيرة العرب

فتح الاسلام هذه البلاد ونشر لفته وتعاليمه بها ، فأخذ عرب الشام يتعلمون

(١) نعى بالشام ما يشمل فلسطين كما هو اصطلاح كتاب العرب كياقوت

لغة قریش ، وبدأ أهل الشام انفسهم يتعلمونها ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية ، كذلك أخذ الاسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية ، ودخل كثير من الشاميين في الاسلام وبعث عمر اليهم من يعلمهم الدين الجديد ، شأنه مع كل الممالك التي فتحت في عهده

أورد البخارى فى التاريخ أن يزيد بن سفيان كتب الى عمر « قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء » فكان هؤلاء أول مؤسسى المدرسة الدينية بالشام ، فأما معاذ فقد قرأت طرفاً من سيرته العلمية عند الكلام على مدرسة مكة ، وقد قضى آخر حياته فى الشام معلماً ، وأما عبادة بن الصامت فهو كذلك أنصارى كان ممن جمع القرآن ، وولاه ابو عبيدة امره حمص ، وولى قضاء فلسطين ، وكان من أفقه الناس فى دين الله كما كان شديداً فى الحق ، أنكر على معاوية كثيراً من اموره فشكاه الى عثمان ، ومات بالشام وأما أبو الدرداء فأنصارى كذلك كان من أفضل الصحابة وفقهائهم ، وقد ولى القضاء بدمشق وتوفى بها - وقد تفرق هؤلاء الثلاثة فى بلاد الشام يعلمون أهلها ، فقد نزلوا جميعاً أولاً فى حمص ، ثم خلفوا بها عبادة وخرج أبو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين ، ثم خرج عبادة بعداً الى فلسطين - وقد بعث عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن عُثْم ، فتخرج على يدهم جميعاً كثير من التابعين كأبى ادريس الخولانى ثم مكحول الدمشقى وعمر بن عبد العزيز ورجاء ابن حيوة ، وتخرج فى هذه المدرسة امام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعى الذى يقرن بمالك وأبى حنيفة ، وقد ولد ببلبك وعاش فى دمشق وبيروت ولقب « بامام أهل الشام » وقلده أهلها ، وانتشر مذهبه فى الغرب والأندلس ، ولكن هزمه مذهب الشافعى ومالك ، فأسرع اليه الفناء

كانت دمشق مركز الخلافة في عهد الدولة الأموية ، فكان طبيعياً أن يقصدها العلماء من كل صقع ، ولكن خلفاء بني أمية لم يشجعوا الحركة العلمية لما يبنوا قبل ، إنما شجعوا الشعر والخطابة وفنون الأدب فكانت الحركات العلمية الأخرى تنمو من نفسها ، وأم هذه الحركات الحركة الدينية ، وكان الباعث على نحوها الحماسة الدينية وحاجة الناس الى معرفة الحلال والحرام ، وخاصة فيما يعرض من الحوادث التي لم تكن تعرض في صدر الاسلام

وكان بالشام نصارى كثيرون ، احتفظوا بدينهم ، ورضوا بدفع الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، ودخل كثير من نصارى الشام في الاسلام ، وكان من هؤلاء وهؤلاء مثقفون بالثقافة النصرانية ؛ وقامت المساجد بجانب الكنائس ، فسرعان ما كان الاحتكاك بين الاسلام والنصرانية وكان بينهما جدال وحوار وخصومة ، يدل عليها ما أثر من كتابة يحيى الدمشقي النصراني كما أسلفنا ، وقد سبب هذا الاحتكاك ظهور الكلام في القضاء والقدر أو الجبر والاختيار ، والكلام في صفات الله هل هي عين الذات أو غيرها ، ولعل هذا هو الاساس الأول لعلم الكلام في الاسلام

مصر : فتح المسلمون مصر والثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها ، وقد ذكرنا قبل شيئاً عن مدرسة الاسكندرانيين ومذهبهم وتعاليمهم ، فلما تم فتحها أقبل العرب عليها لما سمعوا بفنها وخصب أرضها ، وخططوا القساط حسب قبائلهم ، ونزلوا بالمدن والأرياف ، واستوطنوها واتخذوا الزرع معاشاً ، ودخل كثير من القبط في الاسلام ، واختلطت أنساب العرب بأنساب المصريين بما كان بينهم من تزاوج^(١)

(١) أنظر خطط القرظي جزء ١ ص ٨٢ طبعة ميري

أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي ، ولكن الحركة العلمية في بدء عهدهما لم تكن حركة فلسفية ولا دنيوية إنما كان شأنها شأن جميع المراكز العقلية اذ ذاك ، فأكبر شيء قيمة هو الدين ، فكان طبيعياً أن يكون العلم السائد في هذا العصر في جميع الأقطار هو علم الدين وما إليه ، ولكن ليس معنى هذا أن الثقافة اليونانية الرومانية التي كانت منتشرة في مصر والشام والعراق قد بادت ولم يعد لها من أثر ، إنما أصابتها دهشة الفتح وخضعت لقوة الحركة الدينية ، فلما هدأت النفوس أخذت هذه الثقافة اليونانية الرومانية تستعيد نشاطها وقوتها بعد أن صبغت بالتعاليم الإسلامية ، وعدلت حسب ما يتفق والإسلام ، ولكن هذا النشاط لم يظهر إلا آخر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية

كان من الصحابة الذين نزلوا بمصر علماء علموا بها، وكانوا أساس مدرستها، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدون ما يسمع ، قال مجاهد (رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد) (١) وكان مع هذا كثير الاطلاع في غير الحديث ، فابن حجر في الاصابة يروي لنا أنه كان يقرأ التوراة ، وابن سعد في طبقاته يروي لنا عن شريك أنه قال رأيت عبد الله بن عمرو يقرأ بالسريانية ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر ، وقد خرج مع أبيه الى مصر عند ما ولاه اياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة عمراً استعمل ابن عبد الله عليها ، فأقره معاوية ثم عزله

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٨٩

وكان يحج ويمتد ويأتي الشام ثم يرجع الى مصر ، وابتنى فيها داراً فلم يزل بها حتى مات فدفن في داره في مصر - على أحد الأقوال - في خلافة عبد الملك ابن مروان - ويُعد بحق مؤسس المدرسة المصرية - فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر وكانوا يكتبون عنه ما يحدث . روى المقرئ (عن حيوة بن شريح قال دخلت على حسين بن شفي بن مأنع الأصبحي وهو يقول فعل الله فلان ، فقلت ماله ؟ فقال عمد الى كتابين كان شفي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما قضى رسول الله في كذا وقال رسول الله كذا ، والآخر ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب)^(١)

وقد اشتهر من مدرسة مصر بعد الصحابة يزيد بن أبي حبيب وهو نوبى الأصل من دنقلة وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر ، قال الكندي أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه ، وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون في الفتن والترغيب ، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا اليهم بمصر ، رجلا من الموالى ورجل من العرب ، فأما العربي فجعفر بن ربيعة وأما المولى في يزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر ، فكأن العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صُعداً وأتم لا تسمون^(٢) وقد كان يزيد عالماً بالفتن والحروب وخاصة ما يتعلق بفتح مصر وشؤونها وولائها ، وهو أحد الأركان الذين نقل عنهم الكندي كتابه « ولاية مصر وقضائها »

(١) المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ ، قال أبو سعيد بن يونس: يعنى بقوله الخولة والرباب مركبتين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما على القساطل تجوز من تحتها لكبرها المراكب

(٢) أنظر خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ طبعة ميري

وكان من أشهر تلاميذ يزيد هذا عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ، فأما عبد الله فعربي أصله من حضرموت — وما أكثر الحضارمة كانوا في مصر — وقد قابل كثيراً من التابعين وأخذ عنهم ، وكان يدون ما يسمع وكثير من المحدثين كالبخارى والنسائي لا يثق به ، ومن الأسف أن كثيراً من حوادث تاريخ العرب في مصر نقلت عنه وكان هو العمدة في روايتها — وقد ولى القضاء بمصر نحو تسع سنين

وأما الليث بن سعد فمن الموالى على أصح الأقوال ، أصله من أصفهان في فارس ولكن الراجح أنه هو ولد في مصر في قَلْقَشْنَدَة وقد طَوَّفَ في كثير من البلدان لأخذ العلم ، فرحل إلى مكة وبيت المقدس وبغداد ، ولقي تسعة وخمسين تابعياً حدث عنهم ، وكان له اتصال بالامام مالك في المدينة يكتبه في مسائل في التشريع ويحاجه ، ويروون أن الشافعي قال الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، وكان ذا منزلة رفيعة في قومه ، يستشيره الولاة والقضاة في عظام الأمور ، ثقة لم يشك أحد في صدقه وأمانته — وكان له مذهب خاص يعرف به ، وقد قلده المصريون واتبعوه ولكن ضاع مذهبه كما ضاع مذهب الأوزاعي في الشام

نأخذ بما تقدم أنه بعد فتح الممالك تفرق الصحابة في الأمصار وكان من هؤلاء الصحابة علماء رحلوا للتعليم فكانوا نواة لمدارسها ، وأن هؤلاء الصحابة العلماء كانت لهم شخصيات علمية مختلفة كان لها أثرها في مدارسهم ، وأن أكبر الشخصيات تأثيراً في الأمصار هي عبد الله بن عمر في المدينة ، وعبد الله بن مسعود في الكوفة ، وعبد الله بن عباس في مكة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر — لم يكن هؤلاء الصحابة يحيطون علماً بكل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وفعله ،

و بكل ما يتعلق بتعاليم الدين ، بل كان منهم من صحب النبي في بعض الأوقات دون بعض ، فباته حين لم يصحبه علم حملة غيره ، لذلك علم كل منهم شيئاً وغاب عنه شيء ، واستتبع هذا أن بعض الأمصار كان يعرف من الحديث ما لم يعرفه الآخر ، خلف هؤلاء الصحابة التابعون فتلقوا عنهم ، وحلوا محلهم في رفع لواء العلم ، وشعر كثير منهم بأن في الأمصار الأخرى علماً غير علمهم فأكثروا من الرحيل ، فكانت هناك حركة دائمة للعلماء ، فمصرى يرحل الى المدينة ، ومدنى الى الكوفة ، وكوفى الى الشام ، وشامى الى هنا وهناك ، وهكذا عملوا على توحيد الوطن العلمى ، وكان من أثر هذا التقليل من الفروق التى سببتها الشخصيات العلمية المختلفة للصحابة ، وأخذ عن التابعين طبقات أتت بعدهم سارت على مناهجهم

و بعد ، فإذا كان يُعَلَّم في المدارس المختلفة في هذه الأمصار تفصيلاً وعلام كانت تدور الحركات العلمية اذذاك ؟ وهل كان هناك تأثير للأمصار المختلفة في العلم ؟ وهل تأثر العلم في الشام ومصر بمدينة الرومان ؟ وهل تأثر في العراق بمدينة الفرس ؟ وهل تأثر في الحجاز ببساطة العرب ؟ وهل كان للعقائد الدينية المنتشرة كانت في هذه الأقطار قبل الاسلام أثر في المذاهب الدينية التى نشأت بعد الاسلام ؟ ذلك مطلب عسير سنحاول الاجابة عنه في البابين التاليين ان شاء الله

مصادر هذا الباب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد

(٢) الاصابة في أخبار الصحابة

(٣) أسد الغابة لابن الأثير

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى

(٥) معجم البلدان لياقوت

- (٦) كتاب البلدان للهمذاني المعروف بابن الفقيه
(٧) التنبيه والاشراف للسمودي
(٨) تاريخ ابن جرير الطبري
(٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
(١٠) دائرة المعارف الاسلامية في مادة العراق والبصرة والكوفة والشام ومصر وغير ذلك
(١١) ابن خلكان
(١٢) خطط القريري
(١٣) أخبار ولاية مصر وقضاتها للكندي
(١٤) الأغاني والمقد الفريد والجزء الأول والثاني من عيون الأخبار لابن قتيبة
(١٥) أعلام الموقعين لابن القيم
(١٦) فهرست ابن النديم
(١٧) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
(١٨) أخبار الحكماء للقفطي
(٢٩) الاعلاق النفية لابن رسته
وهناك كتب غير هذه تجدد ذكرها في أثناء البحث
-

الباب السادس

الحركة الدينية

تفصيلاً

قدمنا أن الحركة الدينية في صدر الاسلام كانت أكثر الحركات انتشاراً ، وأوسعها ميداناً ، وأن أكثر العلماء الذين ظهوروا في هذا العصر كانوا علماء دين ، وأن السبب في ذلك أن الدين ملك على الناس نفوسهم ورأوا فيه سبب وحدتهم وعلّة نهضتهم ، لولاه لظل العرب شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم بعضاً ، ولولاه لقبعوا في كسر بيتهم ، ولما تعدوا حدود بلادهم ، ولما فتحو الأمصار ودخوا الممالك ، فهو هو عزم في الدنيا ورجاؤهم في الآخرة ، وأخلص له قوم من غير العرب فاعتنقوه. وآمنوا أنه هو السبيل لسعادتهم ، فأقبل هؤلاء وهؤلاء على القرآن يتفهمونه ، والحديث يجمعونه ويشرحونه ، وأخذوا يستنبطون منها أحكام ما يعرض في هذه الدولة المترامية الأطراف من حوادث ، فأما العلوم الدينية والفلسفية فكان ضعيفاً شأنها ، بل كانت ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه إلى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به ، يستخير الله عمر بن عبد العزيز أياماً ليخرج للناس كتاباً في الطب عثر عليه ، وتتخذ أخبار الفتن والملاحم والغزوات والفتوح شكل الحديث وهكذا — وقد وصفنا قبل هذه الحركة الدينية اجمالاً فلنعرض لها الآن بشيء من التفصيل. كان أهم ما تدور عليه هذه الحركة ثلاثة أشياء : القرآن وتفسيره ، والحديث وجمعه وتبويبه ، واستنباط الأحكام لما يعرض من أحداث وهو الذي نسميه بالتشريع .

الفصل الأول

القرآن وتفسيره

نزل القرآن مُنَجِّمًا على رسول الله في نحو عشرين سنة ، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وتوفى رسول الله ولم يجمع القرآن في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره . وكتب منها ما كان في صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى جمعه هذا زيد بن ثابت وانتقلت من أبي بكر الى عمر ، ثم الى حفصة بنت عمر ، حتى اذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة وعهد الى جمع من الصحابة منهم زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخًا كثيرة وزعت على الأمصار ، وأحرق ما يخالفه من الصحف : في حديث طويل ليس هذا محل تفصيله

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فالفاظه عربية ، إلا ألفاظًا قليلة عرّبت وأخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها العرب وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، ففيه الحقيقة وفيه المجاز وفيه الكناية الخ على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم ، وهذا طبيعي لأنه أتى يدعو العرب - أولاً - الى الاسلام ، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »

ومع هذا فلم يكن القرآن جميعه في متناول الصحابة جميعاً يستطيعون أن يفهموه - اجمالاً وتفصيلاً - بمجرد أن يسموه ، وليس بصحيح مايقوله ابن خلدون من « أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويمسكون معانيه في مفرداته وتراكيبه »^(١) لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه ، والدليل على ذلك ما هو حاصل في مشاهداتنا الأولى ، فليس كل كتاب مؤلف بلغة يستطيع أهل اللغة كلهم أن يفهموه ، فكم من كتب انجليزية وفرنسية لا يستطيع الانجليز أو الفرنسيون أنفسهم أن يفهموها ، لأن فهم الكتاب لا يتطلب اللغة وحدها . وانما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه ، وهكذا كان شأن العرب أمام القرآن فلم يكونوا كلهم يفهمونه اجمالاً وتفصيلاً ، انما كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي ، بل أن ألفاظ القرآن أنفسهم لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها ، كما لم يدع أحد أن كل فرد في أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها ، وحسبنا على ذلك « ما روى عن أنس بن مالك أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى « وَفَأَكْبَهُ أَبًا » ما الأب ؟ فقال عمر نهينا عن التكاف والتعمق ، وروى عن عمر أيضاً أنه كان على المنبر ققرأ « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » ثم سأل عن معنى التَّخَوُّفِ فقال له رجل من هذيل - التخوف عندنا التنقص ثم أنشده

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَأْمِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوَّفَ عَوْدَ النَّبَعَةِ السَّفْنُ^(٢)

ونحن نعلم قدر عمر في الدين والعلم فكيف بغيره من الصحابة - انما كان

(١) المقدمة ص ٣٦٦

(٢) الحكايتان وردتا في كتاب المواقفات ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٨ طبع مصر ، والسفن الحديدية التي يرد بها خشب القوس والفرد الكثير القردان ، والتامك العظيم السنام ، يقول ان الرجل تنقص للناقة كما تأكل الحديدية خشب القسي

كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالي للآية ، فيكتفون من قوله تعالى « وفاكهة
وأبا » بأنه تعداد لنعم الله ، ولا يُلزَمون أنفسهم بتفهم معاني الآيات تفصيلاً
وفوق ذلك ، ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفي في تفهمها معرفة ألفاظ اللغة
وأساليبها ، مثل « والعادياتِ ضَبْحًا » « والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » وما المراد بالليالي
العشر في قوله تعالى « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ » وما المراد بلبلة القدر ؟ الى كثير من
أمثال ذلك ، وفيه اشارات كثيرة الى أشياء في التوراة والانجيل وردت عليهم ليس
يكفي في فهمها معرفة اللغة ، والله تعالى يقول « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . الْآيَةُ » (١)

الحق أن من البديهي أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتفاوتون مقدرة في
فهم القرآن ومعرفة معانيه .

ولم يكن شائعاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع
بعد ، انما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها فاذا حدقوا ذلك
انتقلوا الى غيرها فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة ، قال أبو عبد الرحمن السلمي
حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا
اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها
من العلم والعمل - وقال أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في اعيننا
(رواه احمد في مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (٢) ذلك أنه

(١) أحسن تفسير للحكم أنه المكشوف المعنى الذي لا يطرّق اليه أشكال واحتمال ، والنشابة
ما تطرّق اليه الاحتمال (٢) الامتحان جزء ٢ ص ٢٠٨

انما كان يحفظ ولا ينتقل من آية الى آية حتى يفهم .

في القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى وهي التي تتعلق بأصول الدين .
وأصول الأحكام . وخاصة منها الآيات المسكية التي تدعو الى أصول الدين كسورة
الانعام . وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس ولا سيما من كانوا عربا
بسليقتهم ، وفي القرآن آيات غامضة هي التي سميت متشابهة ، صعب فهمها ولم يصل
الى معرفتها الا الخاصة

وكان الصحابة — على العموم — أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم
ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن

ومع هذا فقد اختلفوا في الفهم على حسب اختلافهم في أدوات الفهم وذلك
(١) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم وان كانت العربية
لغتهم ، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلي ويعرف غريبه ويستعين
بذلك في فهم مفردات القرآن ، ومنهم من كان دون ذلك

(٢) كذلك منهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم ويقوم بجانبه ويشاهد
الأسباب التي دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك ، ومعرفة أسباب التنزيل
من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية ، والجهل بها يوقع في الخطأ ، روى أن
عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال أنت
قدامة شرب فسكر ، فقال عمر من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة
يشهد على ما أقول ، فقال عمر ياقدامة اني جالدك ، قال والله لو شربت كما يقولون
ما كان لك ان تجلدي ، قال عمر ولیم ؟ قال لأن الله يقول « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا » فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا واحدًا وَالْخَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ ، فقال عمر ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس أن هذه الآيات أنزلن عنذرًا للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » قال عمر صدقت — وجاء رجل الى ابن مسعود فقال تركت في المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر هذه الآية « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ » قال يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود من علم علمًا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، إنما كان هذا لأن قريشًا استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم تحط وجهه حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينها وبينها كهيئة الدخان من الجهد (١)

(٣) كذلك اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم ، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر من لم يعرف وهكذا ، وكذلك الآيات التي وردت في التنديد بمعبودات العرب وطريقة عبادتهم لا يكمل فهمها الا لمن عرف ماذا كانوا يفعلون

(٤) ومثل هذا معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول الآيات ، ففيها اشارة الى أعمالهم ورد عليهم ، وهذا لا يتم فهمه الا بمعرفة ما كانوا يفعلون — من ذلك ونحوه كان الاختلاف بين الصحابة في الفهم وكان التابعون ومن بعدهم أشد اختلافًا

(١) الموافقات جزء ٣ ص ٢٠١ وما بعدها

مصادر التفسير — هناك تفسير يسمى التفسير بالمعقول ويعنون به

أولاً — تفسيراً نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل الذي روى أن رسول الله قال الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ومثل ما روى عن علي قال سألت رسول الله عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر، وما روى أي الاجلين قضى موسى؟ قال أوفاهما وأبرهما الحج وهذا النوع كثير وردت منه أبواب في كتب الصحيح الستة وزاد فيه القصاص والوضاع كثيراً ، وقد ذلك علماء الحديث فمنها ما صححوه ومنها ما ضعفوه ، وأهم ما يدل على دخول الوضع في هذا الباب أنك ترى في الآية الواحدة تفسيرين متناقضين لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ، مثل الذي روى عن أنس أن رسول الله سئل عن قوله تعالى « والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة » قال القنطار ألف أوقية ، ورووا عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنطار اثنا عشر ألف أوقية^(١) — بل أن بعض العلماء أنكروا هذا الباب بتاتاً ، أعنى أنه أنكروا صحة ورود ما يروونه من هذا الباب ، فقد روى أن الامام احمد بن حنبل قال « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي »^(٢) ومما يدل على عدم ثقة المفسرين بما ورد في هذا الباب أنهم لم يفتقروا عند ماورد ، بل أتبعوا ذلك بما أداه اليه اجتهادهم ، ولو كان ذلك صحيحاً في نظرهم لوقفوا عند حدود النص

و بمرور الزمان تضخم هذا التفسير المنقول فدخل فيه أيضاً ما نقل عن الصحابة والتابعين وهكذا ، حتى كانت كتب التفسير المؤلفة في العصور الأولى مقصورة على هذا النحو من التفسير

(الثاني) من مصادر التفسير الاجتهاد وان شئت فقل الرأي ، يعرف المفسر

(١) أخرج الحديث الاول الحاكم والثاني احمد وابن ماجه

(٢) الأذهان جزء ٢ ص ٢١١ ونقل أن المحققين من أصحاب احمد قالوا أن مراده أن الغالب

أنه ليس لها أساسيد صحاح متصلة

كلام العرب ومناحيهم في اللقول ، ويعرف الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ماورد في مثله من الشعر الجاهلي ونحوه ، ويقف على ما صح عنده من أسباب نزول الآية مستعيناً بهذه الأدوات ويفسرها حسب ماأداه اليه اجتهاده ، وكثير من الصحابة كان يفسر الآيات من القرآن بهذا الطريق ، مثل كثير مما ورد عن ابن عباس وابن مسعود ، فمثلاً يفسر المفسرون الطور في قوله تعالى « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » بتفسيرات مختلفة فجاهد يفسر الطور بالجبل مطلقاً ، وابن عباس بجبل بعينه وآخر يقول أن الطور ما أنبت من الجبال ، فأما ما لم ينبت فليس بطور ، فهذا الاختلاف نتيجة اختلاف في الرأي لا نتيجة اختلاف في المنقول ، وقد اختلفوا في معاني الآيات خلافاً في معاني الألفاظ

نم ان الصحابة والتابعين انقسموا في ذلك قسمين ، فمنهم من تورع أن يقول في القرآن شيئاً برأيه كالنبي روى عن سعيد بن المسيب أنه كان اذا سئل عن شيء من القرآن قال أنا لا أقول في القرآن شيئاً ، وقال ابن سيرين سألت عبيدة عن شيء من القرآن فقال اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن ، وعن هشام بن عروة بن الزبير قال ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله - ولكن كان يجانبهم من يرى حل ذلك ويستبيحه ، بل يرى كتمان ما وصل اليه اجتهاده كتماناً للعلم وهم الأكثرون ، وعلى هذا كان رأى ابن مسعود وابن عباس ، وعكرمة وغيرهم ، انما كره هؤلاء وأمثالهم أن يتعرضوا للتفسير من لم يستكمل أدواته ، كأن لم يبلغ في معرفة كلام العرب مبلغاً يمكنه من صحة الفهم ، أو لم يدرس القرآن درساً يستطيع معه أن يحمل مجمله على مفصله ، كذلك كرهوا أن يمتنق الرجل مذهباً من المذاهب الدينية كالاتزال والارجاء والتشيع ويجعل ذلك أصلاً يفسر القرآن على مقتضاه ، والواجب أن تكون العقيدة تابعة للقرآن لا أن يكون القرآن تابعاً للعقيدة

وهذا الاجتهاد هو الذى سبب الاختلاف بين الصحابة والتابعين فى تفسيرهم
لألفاظ القرآن وآياته اختلافاً واضحاً تكاد تلمسه فى كل صفحة من صفحات تفسير
ابن جرير الطبرى

فالأدب الجاهلى من شعر ونثر ، وعادات العرب فى جاهليتها وصدور اسلامها ،
وما قابلهم من أحداث وما لقي رسول الله من عداة ومنازعات وهجرة وحروب
وفتن ، وما حدث فى أثناء ذلك مما استدعى أحكاماً واستوجب نزول قرآن ، كل
هذا كان مصدراً لعلماء الصحابة والتابعين يستمدون منه القدرة على التفسير

(الثالث) وهناك منبع آخر من منابع التفسير استمد منه المفسرون كثيراً ،
ذلك أن شغف العقول وميلها للاستقصاء دعاها عند سماع كثير من آيات القرآن
أن تتساءل عما حولها ، فاذا سمعوا قصة كلب أصحاب الكهف قالوا ما كان لونه ؟ واذا
سمعوا « فقلنا اضربوه ببعضها » تساءلوا ما ذلك البعض الذى ضربوا به ، وما قدر
سفينته نوح ، وما اسم الغلام الذى قتله العبد الصالح فى قصة موسى معه ، واذا تلى عليهم
« فخذ أربعة من الطير » قالوا ما أنواع هذا الطير ، وما هى الكواكب التى
رأها يوسف فى منامه ، وكذلك اذا سمعوا قوله تعالى فى قصة موسى مع شعيب سألوا
أى الأجلين قضى موسى ، وهل تزوج الصغرى أو الكبرى وهكذا ، كذلك كانوا
اذا سمعوا اشارة الى بدء الخليفة طلبوا بقية القصة ، واذا تليت عليهم آية فيها اشارة
الى حادثة لنبي لم يقتنعوا الا باستقصائها ، وكان الذى يسد هذا الطمع هو التوراة
وما علق عليها من حواشٍ وشروح ، بل وما أدخل عليها من أساطير ، وقد دخل بعض
هؤلاء اليهود فى الاسلام فترسب منهم الى المسلمين كثير من هذه الأخبار ، ودخلت
فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح ، ولم يتخرج حتى كبار الصحابة مثل ابن
عباس من أخذ قولهم ، نعم روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا حدثكم

أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك ، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم ، وإن شئت مثلاً لذلك فافقراً ما حكاه الطبرى وغيره عند تفسير قوله تعالى « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » وقد رأيت أن ابن عباس كان يجالس كعب الأخبار ويأخذ عنه ، ويعجبني في ذلك ما قاله ابن خلدون « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليفة وأسرار الوجود فأنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل بدء الخليفة وما يرجع الى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الأخبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلات التفسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض ، أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الأحكام فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات الخ^(١)

المفسرون فى هذا العصر — اشتهر عدد قليل من الصحابة بالقول فى تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب ، وأقل من هؤلاء زيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، ولتنصر قولنا على الأربعة الأولين لأنهم أكثر من غذى

التفسير في مدارس الامصار المختلفة ، والصفات العامة التي مكنت هؤلاء الأربعة الاولين من التبحر في التفسير قوتهم في اللغة العربية ، واحاطتهم بمناحيها وأساليبها ، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، وعدم تخرجهم من أن يجتهدوا ويقرروا ما أداه اليه اجتهادهم - نستثنى من ذلك ابن عباس فانه استعاض عن ملازمة النبي في شبابه بملازمة علماء الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم - ولو أنا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان ابن عباس أولهم ، ثم عبدالله بن مسعود ، ثم علي بن أبي طالب ، ثم أبي - هذا بالنسبة لما روى لا بالنسبة لما صح ، ويظهر أنه وضع على ابن عباس وعلى أكثر مما وضع على غيرها ، ولذلك أسباب : أهمها أن علياً وابن عباس من بيت النبوة فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وتقديساً لا يكسبهما الاسناد الى غيرها ، ومنها أنه كان لعل من الشيعة ما لم يكن لغيره . فأخذوا يضعون وينسبون له ما يظنون أنه يعلى من قدرة العلي ، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون يتقرب اليهم بكثرة المروى عن جدهم - ان شئت فانظر الى ما روى ابن أبي حمزة عن علي أنه قال لو شئت أن أوفر سبعين بغيراً من تفسير أم القرآن (الفاتحة) لعلت ، وما روى عن أبي الطفيل قال شهدت علياً يخطب وهو يقول سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء الا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله فوالله مامن آية الا وأنا أعلم أليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل - ومجرد رواية هذين الحديثين يغني عن التعليق عليهما ، وقد روى عن ابن عباس ما لا يحصى كثرة ، فلا تكاد تخلو آية من آيات القرآن الا وابن عباس فيها قول أو أقوال ، وكثر الرواة عنه كثرة جاوزت الحد ، واضطرت النقاد أن يتبعوا سلسلة الرواة فيعدّلون بعضاً ويجرحون بعضاً ، فيقولون مثلاً ان طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس من أجود الطرق ، وقد اعتمد عليها البخاري ،

رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس غير مرضية، وابن جرير في جمعه لم يقصد الصحة، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم، ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أوهى طرقه، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب إلى كثير من أمثال ذلك

وقد روى من طريق ابن عبد الحكم قال سمعت الشافعي يقول لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيهه بمائة حديث^(١) — فإن صح هذا دلنا على مقدار ما كان يختلق الموضوعون وإلى أي حد بلغت جرأة الناس على الاختلاق

ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحياناً وهما متناقضتان، لا يصح أن تسبأ إليه جميعاً، فترى في ابن جرير مثلاً عند تفسير قوله تعالى « فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا » عن معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال إنما هو مثل، قال قطعهن ثم اجعلن في أرباع الدنيا، ربماً ههنا وربماً ههنا ثم ادعهن يأتينك سعياً — وقال بعد قليل، حدثنا محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس فصرهن إليك، صرهن أو ثقهن^(٢) اه فهو يفسر صرهن مرة بقطعهن ومرة بأوثقهن، ومن العسير أن تتكلف القول بأنه فسر هذا زمناً وفسر ذلك آخر، وأمثال ذلك كثير في ابن جرير

على أن هذا التفسير الموضوع — والحق يقال — لا يخلو من قيمته العلمية، فلم يكن الوضع مجرد قول يلقى على عواهنه، إنما هو في كثير من الأحيان نتيجة اجتهاد علمي قيم، والشئ الذي لا قيمة له فقط هو اسناده إلى علي أو ابن عباس وإذا نحن ألقينا بنظرة عامة على ما روى من التفسير عن ابن عباس وغيره

(١) الاتقان جزء ٢ ص ٢٢٥ (٢) ابن جرير ج ٣ ص ٣٧ و ٣٨

وجدنا منبعه هو الأسياء الثلاثة التي ذكرناها قبل ، نقل عن رسول الله أو رواية حوادث وقعت أمامهم توضح معنى الآية ، واجتهادهم في الفهم معتمدين على الأدب الجاهلي ومعرفتهم بلغة العرب والعادات التي كانت فاشية في الجاهلية وصدر الاسلام، والاسرائيليات وما إليها

بعد عصر الصحابة اشتهر بعض التابعين في الرواية عن ذكرنا من الصحابة ، فأكثر من يروى عن ابن عباس مجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهؤلاء كانوا من تلاميذ في مكة ، وكلمهم من اللوالم ، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة ، كما يختلف العلماء في مقدار الثقة بهم ، فجاهد من أقلهم رواية عن ابن عباس ومن أوثقهم ، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم ، ولكن كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسير مجاهد ، فقد روى ابن سعد في طبقاته أن الأعمش سئل : ما لم يتقون تفسير مجاهد قال كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب^(١) ، ولكن لم تر أحداً طعن عليه في صدقه — كذلك كان كل من عطاء وسعيد ثقة صادقا ، أما عكرمة فكان أكثرهم رواية عن ابن عباس وهو مولاة ، وكان أصله من البربر بالمغرب ، واختلف العلماء في توثيقه ، فكان بعضهم لا يثق به ولا يروى له شيئا ، ويوثقه البخاري ويروى له ، ويرى آخرون أنه جرى على العلم يزعم أنه يعلم كل شيء « في القرآن » سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية في القرآن فقال لا تسألني عن آية من القرآن ، سل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه يعني عكرمة^(٢) — واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود في التفسير في العراق مسروق بن الأجدع وهو عربي من همدان ، وكان ورعا زاهدا ثقة صادقا وكان

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩

(١) جزء ٥ ص ٣٤٤

يسكن الكوفة ويستشير به شريح القاضي في معضلات المسائل، واشتهر كذلك قتادة ابن دعامة السدوسي الأكمه، وهو عربي الأصل كان يسكن البصرة، وشهرته في التفسير جاءت من تعلقه في اللغة العربية، فكان واسع الاطلاع في الشعر العربي وأيام العرب وأنسابهم، وكان ثقة إلا أن بعضهم كان يتحرج من الرواية عنه لخوضه في القضاء والقدر

وفي هذا العصر - أعنى عصر التابعين تضحخ التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الاسلام ومييل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية، وقد تتبعنا في تفسير ابن جرير كثيراً من الآيات التي وردت عن بني اسرائيل فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه، وقد ذكرنا قبل انه كان من يهود اليمن وأسلم، فكان يقص ما جاء في كتب اليهود وأحاديثهم من غير تحري دقيق، ومن غير أن تصبغ روايته صبغة علمية، وتساهل المسلمون في أخذهم عنه كما أشار اليه ابن خلدون، لأنه لا يترتب على ما يحكى استنباط الحكم شرعي أو نحوه، كما تتبعنا كثيراً من الآيات التي وردت عن النصارى فاذا كثير مما يروي به الطبري عن ابن جرير، وابن جرير هذا هو عبد الملك ابن عبد العزيز بن جرير، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ « انه من أصل رومي » فهو نصراني الأصل، ويقول عنه بعض العلماء أنه كان يضع الحديث وأنه تزوج تسعين امرأة زواج متعة « ويقال أنه أول من صنف الكتب في الاسلام^(١) » وولد سنة ٨٠ وتوفي حول سنة ١٥٠ هـ بعد أن طوف في كثير من البلاد، فقد ولد بمكة ورحل الى البصرة واليمن وبغداد

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٠٥

وبعد عصر الصحابة وكبار التابعين أخذ العلماء، يؤلفون كتب التفسير على طريقة واحدة، هي ذكر الآية ونقل ما روى في تفسيرها عن الصحابة والتابعين بالسند، مثل تفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق وغيرهم، ولم تصل إلينا هذه التفسيرات إنما وصل إلينا ما تلا هذه الطبقة، وأشهرهم ابن جرير الطبري

وبعد فيظهر أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه، وصورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية، من ابن عباس إلى الاستاذ الشيخ محمد عبده، حتى لتستطيع إذا جمعت التفسيرات التي ألفت في عصر من العصور أن تتبين فيها مقدار الحركة العلمية وأي الآراء كان سائداً شائعاً وأبها غير ذلك وهكذا

فلو تتبعنا ما نقل عن الصحابة وصدر التابعين من تفسير وجدتهم يقتضون في تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه من الآية بأخصر لفظ، مثل قولهم «عَيْرٌ مَتَجَانِفٌ لِأُثْمِرٍ» أي غير متعرض لمعصية ومثل قولهم في قوله تعالى «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ» كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم خروجاً أخذ قِدْحاً فقال هذا يأمر بالخروج فان خرج فهو مصيب في سفره خيراً، وياخذ قِدْحاً آخر فيقول هذا يأمر بالكموت فليس يصيب في سفره خيراً، والمليح بينهما، فنهى الله عن ذلك — فان زادوا شيئاً فاروى من سبب نزول الآية ثم زاد من بعدهم التوسع في أخبار اليهود والنصارى — ولا تجدد في التفسير عن هؤلاء. أثرٌ من الاستنباط العلمي لحكم فقهي ولا انتصاراً لمذهب ديني، فلما جاء العصر الذي يليه وظهر الكلام في القدر ونحوه رأيت التفسير قد حمل هذه المذاهب، فأصبح كل يفسر القرآن على مذهبه في الجبر والاختيار وهكذا، ولما عظمت الحركة الفقهية رأيت المفسرين من

الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستنبط منها من الأحكام ، وقل مثل ذلك
في قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق

﴿ مصادر هذا الفصل ﴾

الاتقان في علوم القرآن

المستصفي للقرآلي

المواقفات للشاطبي

طبقات المفسرين لمحمد بن علي الداوودي المالكي (نسخة خطية في دار الكتب)

كشف الظنون

طبقات ابن سعد

تفسير ابن جرير

مقدمة ابن خلدون

تذكرة الحفاظ للذهبي

ابن خلكان

الفصل الثاني

الحديث

يراد بالسنة أو الحديث ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، و بعد عصر الرسول ضم الى الحديث ما ورد عن الصحابة ، فالصحابه كانوا يعاشرون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ، ويشاهدون عمله ، ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعدُ فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الأخبار عن رسول الله وصحابه « الحديث »

للحديث قيمة كبرى في الدين تلى رتبة القرآن ، فكثير من آيات القرآن مجمله أو مطلقة أو عامة فجاء قول رسول الله أو عمله فبينها أو قيدها أو خصصها ، فالقرآن مثلا لم يبين تفاصيل الصلاة انما أمر بها مجمله وفعل النبي أوضح أوقاتها وكيفياتها ، وحرم القرآن الخمر بقوله تعالى « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ولكن ما المراد بالخمر ؟ وأى المقادير يحرم ونحو ذلك ؟ كل هذا بينه الحديث

كذلك كانت تعرض لرسول الله حوادث يقضى فيها ، وأسئلة يجيب عنها ومبادلة أخذ وعطاء ، وتصرف في الشؤون السلمية والحربية ، كل هذه كانت أحيانا ينزل فيها قرآن وأحيانا لا ينزل ، وهذا النوع الثاني كالأول مرجع للمشرعين ، فافتضى ذلك جميعه العناية بالحديث

لم يدون الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، فأنا نرى أن رسول الله اتخذ كتبة للوحي يكتبون آيات القرآن عند نزولها ولكنه لم يتخذ

كتبة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن ، بل قد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث ، منها ما رواه مسلم في صحيحه « عن أبي سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه ، وحدثوا عني فلا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وروى البخارى عن ابن عباس قال « لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجهه قال أتتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، قال عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسينا »

نعم وجدت أحاديث تدل على أنه كتبت صحف من الحديث في عهد رسول الله كالذى روى البخارى عن أبى هريرة أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى لبيث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتالوه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فركب راحته فخطب فقال ان الله حبس عن مكة القتلى^(١) وسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وأنها لم تحل لأحد قبل ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وأنها أحلت لى ساعة من نهار وأنها ساعى هذه ، حرام ، لا يحْتَكى^(٢) شوكتها ولا يعضد^(٣) شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لئس^(٤) فن قتل له قتل فهو بغير النظرين اما أن يعقل واما أن يقاد أهل القتل ، فجاء رجل من أهل اليمن فقال أكتب لى يا رسول الله (يريد أن يكتب له الخطبة التى سمعها منه) فقال (صلى الله عليه وسلم) اكتبوا لأبى فلان ، وكذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله

وقد أراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الأحاديث المتضاربة فقالوا ان النهى

(١) شك البخارى فى أنها القتل أو القيل (٢) لا يقطع

(٣) لا يقطع (٤) أى لمن أراد التعريف عن الساقط

عن الكتابة كان وقت نزول القرآن خشية التباس القرآن بالحديث على كل حال لم يكن تدوين الحديث شائعاً في هذا العصر ، ولم يوضع له نظام خاص لتدوينه كالذي وضع للقرآن

نشأ عن هذا أنه كان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب مدون هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة تروى عن رسول الله ، وكانت تروى في الغالب من الذاكرة لا من صحيفة

فكان اذا عرض حادث ليس له حكم في القرآن وعرف بعض الصحابة أنه حدث نظيره لرسول الله وكان له فيه حكم حدث بذلك الحديث ، وكذلك كانوا يحدوثون بما وقع في عهده من غزوات ومن وعد ووعيد ونحو ذلك

وكان بعض الصحابة يكره كثرة الرواية عن رسول الله خشية الكذب عليه وخشية أن يصددهم ذلك عن القرآن روى القرطبي في كتابه « جامع بيان العلم » (عن قُرَظَةَ بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى « حرار » فتوضأ فغسل اثنيتين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا نعم : نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا ، فقال انكم تأتون أهل قرية لم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ، فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب) بل كان بعض الصحابة كذلك اذا حدث حديثاً عن رسول الله طلب دليلاً على صحة ما يروى ، كالذي روى الحاكم قال جاءت الجدة الى أبي بكر فقالت ان لى حقاً في مال ابن مات ، قال ما علمت لك في كتاب الله حقاً ، ولا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً ، وسأل فتشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله أعطاهما السدس قال ومن سمع ذلك معك ؟ فتشهد محمد بن مسلمة

فأعطاهما أبو بكر السدس، وروى البخارى ومسلم عن أبي سعيد الخدرى قال كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار فجا، أبو موسى فرعاً فقالوا ما أفزعك؟ قال « أمرني عمر أن آتية فأتيته، فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعت فقال ما منعت أن تأتينا؟ فقلت اني أتيت فسلمت على بابك ثلاثاً فلم تردوا عليّ فرجعت، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » قال (عمر) لتأتيني على هذا بالبينة، فقالوا لا يقوم الا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له فقال عمر لأبي موسى اني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله — وروى عن علي أنه كان يُحَكِّف من حديثه بحديث عن رسول الله

نشأ من عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الأولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعل في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي الى الوفاة، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى رسول الله، ويظهر أن هذا الوضع حدث حتى في عهد الرسول، لحديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » يغلب على الظن أنه انما قيل لحادثة حدثت زور فيها على الرسول، وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كان الكذب عليه أسهل، وتحقيق الخبر عنه أصعب، روى مسلم عن ابن عباس انه قال « انا كنا نحدث عن رسول الله اذ لم يكن يُكذَّبُ عليه، فلما ركب الناس الصعبَ والذلول تركنا الحديث عنه، وفي حديث آخر أن بشيراً العدوى جاء الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله قال لجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه^(١) ولا ينظر اليه، فقال يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك

(١) لا يصنى اليه

عن رسول الله ولا تسمع؟ فقال ابن عباس انا كنا مرة^(١) اذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته ابصارنا، وأصغينا اليه بأذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف^(٢) وروى عن سفيان بن عيينة أن ابن عباس أتى بكتاب فيه قضاء على فحاه الا قَدْر^(٣) وأشار سفيان بذراعه^(٤) (يريد أن ما في الدرج المستطيل كله كان كذبا على على الا قدر ذراع وان ما محاه ابن عباس انما هو القدر الكاذب - فلما فتحت الفتوح ودخل في الاسلام من لا يحصى كثرة من الأمم المفتوحة من فارسى ورومى وبربرى ومصرى وسورى وكان من هؤلاء من لم يتجاوز ايمانهم حناجرهم كثر الوضع كثرة مزعجة وسال الوداى حتى طم على القرى (قال ابن عدى لما أخذ عبد الكريم بن أبى العوجاء الوضع لتضرب عنقه قال لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحل^(٥) - وكان عبد الكريم هذا خال معن بن زائدة واهم بالمانوية ، وكان يضع أحاديث كثيرة بأسانيد يفتقر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل، وتلك الأحاديث التى وضعها كلها ضلالات فى التشبيه والتعطيل وفى بعضها تغيير أحكام الشريعة^(٦) - وحسبك دليلا على مقدار الوضع أن أحاديث التفسير التى روينا عن احمد بن حنبل أنه لم يصح عنده منها شئ قد جمع فيها آلاف الأحاديث، وأن البخارى وكتابه يشتمل على نحو سبعة آلاف حديث، منها نحو ثلاثة آلاف مكررة، قالوا انه اختارها وصححت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة فى عصره ، وقال سفيان سمعت جابرا يحدث بنحو من ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئا وان كان لى كذا

(١) زنا

(٢) صحيح مسلم

(٣) قدر منصوب غير منون معناه محاه الا قدر ذراع والظاهر أن هذا الكتاب كان مدرجا

مستطिला

(٤) صحيح مسلم (٥) شرح مسلم الثبوت (٦) الفرق بين الفرق ص ٢٥٦

وكذا - ويظهر أن بعض الرضاعين لم يكونوا يرون الوضع عن رسول الله تقيصه خلقية، ولا معرفة دينية، روى مسلم عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قال لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث، وفسر مسلم هذا بأنه «يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب» وبعضهم كان سليم النية يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح وهو في ذاته صادق فيحدث بما سمع فيأخذه الناس عنه مخدوعين بصدقه، كالذي قيل في عبد الله بن المبارك، فقد قيل أنه ثقة صدوق اللسان ولكنه يأخذ عن أقبل وأدبر^(١) وقوم كانوا يتحرون فقط أن يكون الكلام حقاً في ذاته فيستجيزون نسبته إلى رسول الله، قال خالد بن يزيد سمعت محمد بن سعيد الدمشقي يقول إذا كان كلام حسن لم أر بأساً أن أجعل له اسناداً^(٢) وكان أبو جعفر الهاشمي المديني يضع أحاديث كلام حق^(٣) وقوم جوزوا وضع الحديث في الترغيب والترهيب قال النووي «وقد سلك مسلّمهم بعض الجهلة المتسمين بسمّة الزهاد ترغيباً في الخير في زعمهم الباطل»

على كل حال كان الوضع كثيراً، وقد حمل الرضاع على الوضع أمور: أهمها (١) الخصومة السياسية، فالخصومة بين علي وأبي بكر، وبين علي ومعاوية وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك، ثم بين الأمويين والعباسيين، كل هذه كانت سبباً لوضع كثير من الحديث، قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة «واعلم أن أصل الكذب في حديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فانهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، نحو حديث السطل وحديث الرمانة وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين... وحديث غسل سلمان الفارسي وطى الأرض، وحديث الجمجمة ونحو ذلك، فلما رأيت البكرية

(١) مسلم (٢) النووي على مسلم ج ١ ص ٣٢ (٣) مسلم

ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث نحو « لو كنت متخذاً خليلاً » فانهم وضعوه في مقابلة حديث الأخاء ، ونحو سد الأبواب فانه كان لعلي فقلبته البكرية الى أبي بكر فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد . . . وحديث الصحيفة التي علقته عام الفتح بالكعبة . . . وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فسقمهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه ، ونسبوه تارة الى ضعف العقل وتارة الى ضعف السياسة ، وتارة الى حب الدنيا والحرص عليها ، ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه واجترأه ، ولقد كان في فضائل علي الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يفي عن تكلف العصبية لها) اهـ (١)

وتلح أحاديث كثيرة لا تكاد تشك وأنت تقرؤها أنها وضعت لتأييد الامويين أو العباسيين أو العلويين أو الحط منهم ، كالخبر الذي روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في معاوية اللهم قه العذاب والحساب ، وعلمه الكتاب ، وكالذي روى أن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء . انما وليي الله وصالح المؤمنين — وقد قال ابن عرفة أن اكثر الأحاديث للموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تبرأ اليهم بما يظنون أنهم يرضون به أنوف بني هاشم

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الموضوعون في تفضيل القبائل العربية ، ذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفضر والشرف فوجدوا في الأحاديث بابا

(١) شرح ابن أبي الحديد جزء ٣ ص ١٧ باختصار

يدخلون منه الى المغامرة كالذى وجدوه في الشعر ، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قریش والأنصار وجهينة ومزينة واسلم وغفار والأشعرين والحيرين
وكم من حديث وضع في تفضيل العرب على العجم والروم ، فقابلها هؤلاء بوضع
أحاديث في فضل العجم والروم والحبشة والترك^(١)

ومثل ذلك العصبية للبلد ، فلا تكاد تجد بلداً كبيراً الا وفيه حديث بل
أحاديث في فضله ، فحكة والمدينة وجبل أحد والحجاز واليمن والشام وبيت
المقدس ومصر وفارس وغيرها كل ذلك وردت فيه الأحاديث المتعددة في فضله
وعلى الاجمال فالعصبية الحزبية والقبلية ، والعصبية للمكان كانت سبباً من أهم
أسباب الوضع

(٢) الخلافات الكلامية والفقهية ، فثلا اختلف علماء الكلام في القدر أو
الجبر والاختيار ، فأجاز قوم لأنفسهم أن يؤيدوا مذهبهم بأحاديث يضعونها ينصون
فيها حتى على التفاصيل الدقيقة التي ليس من مسلك الرسول التعرض لها ، وحتى
ينصون فيها على اسم الفرقة المناهضة لهم ، بل واسم رئيسها ولعنه ولعنهم وكذلك في الفقه
فلا تكاد فرعاً فقهياً مختلفاً فيه الا وحديث يؤيده هذا وحديث يؤيد ذلك ، حتى مذهب
أبي حنيفة الذي يذكر العلماء أنه لم يصح عنده الا أحاديث قليلة قال ابن خلدون « أنها
سبعة عشر » ملئت كتبه بالأحاديث التي لاتعد ، وأحياناً بنصوص هي أشبه مايكون
بمتون الفقه ، ويطول بنا القول لو ذكرنا أمثلة على هذا النحو من الوضع فنكتفي
هنا بالإشارة اليها

(٣) متابعة بعض من يتسمون بسمة العلم لهوى الأمراء والخلفاء يضعون لهم
ما يعجبهم رغبة فيما في أيديهم ، كالذى حكى عن غياث بن ابراهيم انه دخل على

(١) انظر الاحاديث في هذا الباب في الجزء الثالث من « تيسير الوصول »

المهدى بن للنصور وكان يعجبه اللعب بالحمام ، فروى حديثاً لاسبق الا في خوف أو حافر أو جناح ، فأمر له بمشرة آلاف درهم ، فلما قام ليخرج قال المهدي أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جناح » ولكنه أراد ليتقرب اليها (١)

(٤) تساهل بعضهم في باب الفضائل والترغيب والترهيب ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال ، واستباحتهم الوضع فيها ، فلو كتب الحديث بفضائل الأشخاص حتى من لم يره النبي صلى الله عليه وسلم كوهب بن منبه ، وفضائل آيات القرآن وسوره ، كالذي روى عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم أنه وضع أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة بعنوان ان من قرأ سورة كذا فله كذا وروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس وتارة يروى عن أبي بن كعب - وهي الأحاديث التي نقلت في تفسير البيضاوى عند ختم كل سورة - فلما سئل من أين هذه الأحاديث؟ قال لما رأيت اشتغال الناس بفقهاء حنيفة ومغازي محمد بن اسحق وأعرضوا عن حفظ القرآن وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى (٢)

ومثل هذا ما ترى في كتب الأخلاق والتصوف من أحاديث في الترغيب والترهيب لا يحصى له عدد ، ومن هذا الباب أدخل القصاص في الحديث كثيراً (٥) يخيل الى أنه من أهم أسباب الوضع تعالى الناس اذ ذاك في أنهم لا يقبلون من العلم الا على ما اتصل بالكتاب والسنة اتصالاً وثيقاً وماعدا ذلك فليس له قيمة كبيرة ، فأحكام الحلال والحرام اذا كانت مؤسسة على مجرد «الاجتهاد»

(١) شرح مسلم الثبوت جزء ٢ ص ١٥٢

(٢) شرح المسلم جزء ٢ ص ١٢٥

لم يكن لها قيمة ما أسس على الحديث ولا ما يقرب منه بل كثير من العلماء في ذلك العصر كان يرفضها ولا يمنحها أية قيمة ، بل بعضهم كان يشنع على من ينحو هذا النحو ، والحكمة والموعظة الحسنة اذا كانت من أصل هندي أو يوناني أو فارسي أو من شروح من التوراة أو الأنجيل لم يؤبه لها ، فحمل ذلك كثيراً من الناس أن يصبغوا هذه الأشياء كلها صبغة دينية حتى يقبلوا عليها ، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد للفتوح على مصراعيه ، فدخلوا منه على الناس ، ولم يتقوا الله فيما صنعوا ، فكان من ذلك أن ترى في الحديث الحكم الفقهي المصنوع والحكمة الهندية والفلسفة الزرادشتية والموعظة الاسرائيلية أو النصرانية

رَوَّعت هذه الفوضى في الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء الصادقين فنهضوا لتنقية الحديث مما ألمَّ به وتميز جيده من رديئه ، وسلكوا في ذلك جملة مسالك

منها أنهم طالبوا باسناد الحديث ، أعنى أن يعينوا رواة الحديث ، فيقول المحدث حدثني فلان عن فلان عن رسول الله أنه قال كذا ، ليتمكنوا بذلك من معرفة قيمة المحدث صدقاً وكذباً ، ولينظروا هل المحدث ينتسب الى بدعةٍ وضع الحديث ترويحاً لها ونحو ذلك جاء في مقدمة صحيح مسلم « عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قال سموا لنا رجالكم فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »
ثم أخذوا يشرحون الرجال فيجرحون بعضاً ويعدلون بعضاً « وألزموا أنفسهم الكشف عن معاييب رواة الحديث وناقلى الأخبار »

وأكثر هؤلاء النقاد عدلوا الصحابة كلهم اجمالاً وتفصيلاً ، فلم يتعرضوا لأحد

منهم بسوء، ولم ينسبوا لأحد منهم كذباً، وقليل منهم أجرى على الصحابة ما أجرى على غيرهم قال الغزالي « والذي عليه سلف الأمة وجاهير الخلف أن عدااتهم (أى الصحابة) معلومة بتعديل الله عز وجل أياهم وثناؤه عليهم في كتابه، فهو معتقدنا فيهم الآن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لفسق مع علمه بذلك، وذلك مما لا يثبت فلا حاجة لهم الى التعديل . . . وقد زعم قوم أن حالهم كحال غيرهم في لزوم البحث، وقال قوم حالهم العدالة في بداية الأمر الى ظهور الحرب والخصومات، ثم تغيرت الحال وسفكت الدماء فلا بد من البحث . . . ثم فسر الصحابي المعنى بهذا بمن كثرت صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم »^(١)

ويظهر أن الصحابة أنفسهم في زمنهم كان يضع بعضهم بعضاً موضع النقد وينزلون بعضاً منزلة أسمي من بعض، فقد رأيت قبل أن منهم من كان اذا روى له حديث طلب من المحدث برهانا، بل روى ما هو أكثر من ذلك فقد روى أن أبا هريرة روى حديثاً « من حمل جنازة فليتوضأ » فلم يأخذ ابن عباس بخبره، وقال لا يلزمنا الوضوء في حمل عيدان يابسة، وكذلك روى أنه حدث بحديث جاء في الصحيحين وهو « متى استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يضعها في الاناء فان أحدكم لا يدري أين باتت يده » فلم تأخذ به عائشة وقالت كيف نضع بالمهرأس^(٢) وكالذي روى أن فاطمة بنت قيس روت أن زوجها طلق فبت الطلاق فلم يجعل رسول الله لها نفقة وسكنى. وقال لها اعتدي في بيت ابن أم مكتوم فانه رجل أعمى فردها أمير المؤمنين عمر قائلاً لا تترك كتاب ربنا وسنة نبينا بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت حفظت أم نسيت - وقالت لها عائشة ألا

(١) المستقصى جزء ١ ص ١٦٥

(٢) شرح مسلم الثبوت ج ٢ ص ١٧٨ والمهراس هو حجر مقور ضخم لا يقبله الرجال ولا

يجركونه لتقلبه، يملثونه ماءً ويتطهرون منه

تتقين الله الخ^(١) ومثل هذا كثير

على كل حال فالذى جرى عليه العمل من أكثر نقاد الحديث وخاصة للتأخرين أنهم عدلوا كل صحابي ولم يرموا أحداً منهم بالكذب ولا وضع ائما جرحوا وتقدموا من بعدهم — وقد بدأ الكلام فى الجرح والتعديل من عهد الصحابة ، فقد رويت أقوال فى ذلك عن عبد الله بن عباس وعبادة بن الصامت وأنس ، وكثير القول فى ذلك من التابعين كالشعبي وابن سيرين والحسن البصرى وسعيد بن المسيب ، ثم تتابع القول فيه وكان للاختلاف المذهبي أثر كبير فى التعديل والتجريح ، فأهل السنة يجرحون كثيراً من الشيعة ، حتى أنهم نصوا على أنه لا يصح أن يروى عن علي مارواه عنه أصحابه وشيعته ، إنما يصح أن يروى مارواه عنه أصحاب عبد الله بن مسعود ، وكذلك كان الشيعة مع أهل السنة ، فكثير منهم لا يثق الا بما رواه الشيعة عن أهل البيت وهكذا ، ونشأ عن هذا أن ما عدله قوم قد يجرحه آخرون ، قال الذهبي « لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن على توثيق ضعيف ولا على تضعيف ثقة » ومع ما فى قوله من المبالغة فهو يدلنا على مقدار اختلاف الانظار فى التجريح والتعديل ، ولنضرب لك مثلاً محمد بن اسحق — أكبر مؤرخ فى حوادث الاسلام الأولى — قال فيه قتادة لا يزال فى الناس علم ما عاش محمد بن اسحق ، وقال النسائي ليس بالقوى وقال سفيان ما سمعت احداً يتهم محمد بن اسحاق وقال الدارقطني لا يحتج به وبأبيه ، وقال مالك أشهد أنه كذاب الخ

وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ولكنهم — والحق يقال — عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب الى النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفق والظروف التي

(١) أنظر شرح النووى على مسلم وشرح مسلم الثبوت

قيلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبي ، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا ، ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوانا به من جرح الرجال وتعديلمهم ، حتى نرى البخارى نفسه على جليل قدره ودقيق بحشه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتضاره على نقد الرجال كحديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منقوسة » وحديث « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل »

كذلك قسموا الحديث بحسب قوته والأخذ به الى أقسام وسموا كل نوع أسما ، فقسموه الى متواتر وآحاد ، فالمتواتر ما رواه جماعة يؤمن من تواطئهم على الكذب عن جماعة كذلك الى رسول الله ، وهذا يفيد العلم . وقد قال قوم أن هذا النوع لم يوجد وعد منه قوم حديث من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده النار ، وزاد بعضهم أحاديث لا تتجاوز السبعة ، وأما أحاديث الآحاد فهي غير المتواترة ، وهي لا تقيد العلم عند أكثر الأصوليين والفقهاء ، وإنما يجوز العمل بها عند ترجيح صدقها . وقد قسموا أحاديث الآحاد الى درجات حسب قوتها لا نزيل بذكرها

وقد اختلف الصحابة في الحديث عن رسول الله كثيرة وقلة ، وأكثرهم حديثاً أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر وأنس بن مالك ، فحديث أبى هريرة ٥٣٧٤ حديثاً ، ولعائشة ٢٢١٠ ولعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقرب من مسند عائشة ولكل من جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس أزيد من ١٥٠٠ على حين أنا نجد مثلاً لعمر بن الخطاب ٥٣٧ حديثاً لم يصح منها الا

نحو الحسين^(١) وما ساعد هؤلاء المكثرين في الحديث طول حياتهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة من أخذ عنهم

أما أبو هريرة فيعني الأصل من قبيلة دوس واسمه عبد الله أو عبد الرحمن ، ولقب بأبي هريرة لمره صغيرة كانت له ، يقول كنت أرمي غنم أهلي وكانت لي هريرة صغيرة فكنت أضعها بالليل في شجرة فإذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبت بها فكنت في أبا هريرة^(٢) أسلم في السنة السابعة من الهجرة ولازم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ثم عزله ثم أراد على العمل فامتنع وكان يسكن المدينة وتوفي بها نحو سنة ٥٧ هـ

ويقول ابن قتيبة في كتابه «المعارف» أن أبا هريرة قال «نشأت يتيمًا وهاجرت مسكينًا ، وكنت أجيرًا لبصرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي ، فكنت أخدم إذا نزلوا ، وأحدوا إذا ركبوا فزوجنيها الله فالحمد لله الذي جعل الدين قوامًا وجعل أبا هريرة امامًا» وروى ابن قتيبة أيضًا أن أبا هريرة كان مزاحًا وحكي له شيئًا من ملحه^(٣)

وكان كما قلنا أكثر الناس حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يكتب ، فكان يعتمد في روايته على ذاكرته ، ويظهر أنه لم يكن يقتصر على ما سمع من رسول الله بل يحدث عن رسول الله بما أخبره به غيره فقد روى مرة أن رسول الله قال «من أصبح جنبًا فلا صوم له» فأنكرت ذلك عائشة وقالت كان رسول الله يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من غير احتلام فيغتسل ويصوم ، فلما ذكر ذلك

(١) ابن حزم في الملل والنحل جزء ٤ ص ١٣٨

(٢) أسد الغابة

(٣) المعارف ص ٩٤

لأبي هريرة قال انها أعلم مني، وأنا لم أسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من الفضل بن عباس^(١)

وقد أكثر بعض الصحابة من نقده على الأكثر من الحديث عن رسول الله وشكوا فيه، كما يدل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال انكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله - والله الموعِد^(٢) - كنت رجلاً مسكيناً أخذم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق^(٣) وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم - وفي حديث آخر في مسلم أيضاً أن أبا هريرة قال يقولون أن أبا هريرة قد أكثر - والله الموعِد - ويقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه، وسأخبركم عن ذلك، ان اخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضهم، وأما اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت أزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني فأشهد اذا غابوا وأحفظ اذا نسا

والحنفية يتركون حديثه أحياناً اذا عارض القياس، كما فعلوا في حديث المصرة^(٤) فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تُصِرُّوا الابل والغنم، من ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، فان رضيها أمسكها وان سخطها ردها وصاعاً من تمر » قالوا (أبو هريرة غير فقيه، وهذا الحديث مخالف للاقيسة بأسرها، فان حاب الابن تمدد، وضمان التعدي يكون بالمثل أو القيمة،

(١) مسلم الثبوت وشرحه جزء ٢٠ ص ١٧٥

(٢) أي يحاسبني ان تمدت كذباً ومحاسب من ظن السوء بي

(٣) أي التبايع والمعل في التجارة

(٤) المصرة التافة أو البقرة يجمع اللبن في ضرعها ويحبس ولا تحلب أياما لأيهام المشتري أنها

والصاع من التمر ليس بواحد منهما)

وقد انتهز الوضع فرصة أكثره فزوروا عليه احاديث لا تعد

وأما عائشة أم المؤمنين فكانت أحب أزواج النبي اليه ، نبى بها بعد الهجرة بستة أشهر أو سبعة ، وظلت معه طول مدته بالمدينة ، وتوفى النبي عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة ، واشتركت فى الحياة السياسية بعد وفاته ، فنقدت عثمان و حاربت علياً وكانت كما يفهم من سيرتها تتوقد ذكاء ، تعلمت القراءة وعرفت كثيراً من الأدب الجاهلى وكان لها بين الصحابة منزلة عالية يستشيرونها فى مسائل دينية وقضائية — وقد مكنتها ذكاؤها وخلطها بالنبي صلى الله عليه وسلم أن تروى عنه كثيراً ، خصوصاً فيما يتعلق بشؤونه البيتية التى لم يتيسر للصحابة الاطلاع عليها وتوفيت سنة ٥٨ هـ ويطول بنا القول لو ترجمنا للباقيين ، وقد تقدم طرف من أخبار كثير منهم عند الكلام على مراكز الحياة العقلية

كان هؤلاء الصحابة تلاميذ يختصون بهم ويروون عنهم ، وتكونت على مر العصور سلاسل من المحدثين فضل علماء الحديث بعضها على بعض ، فأصح أسانيد أبى بكر اسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ، وأصح أسانيد عمر الزهرى عن سالم عن أبىه عن جده (وهو عمر) وأصح أسانيد أبى هريرة الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، وأصح أسانيد عائشة عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة وهكذا

مضى القرن الأول الهجرى جميعه ولم يجعل أحد من الخلفاء للحديث صبغة رسمية ، أعنى أن يهد الى جمع من الصحابة أو كبار التابعين أن يستوثقوا مما فى أيدي الناس من الحديث ويجمعوا ماصح عندهم منه ويكتبوه فى كتاب ويرسلوا

نسخاً منه إلى الأمصار كما فعلوا في المصحف، ويمنعوا الناس عن أن يحدثوا بغير ما فيه، ولعله خطر لبعضهم لذلك ولكن رأى هذا العمل في منتهى الصعوبة، فانهم يروون أن رسول الله قبض وعدد الصحابة الذين سمعوا منه ورووا عنه ١١٤٠٠٠ كل منهم عنده الحديث والحديثان والأكثر، وقد حدث النبي قوما بما لم يحدث به آخرين، ووقع من الحوادث أمام قوم ما لم يره آخرون وقد تفرق الصحابة في مختلف الأمصار، فجمع الحديث يقتضى استعراض هؤلاء جميعاً واستماع قولهم وتدوين حديثهم، وذلك مطلب عسير المنال، وأيضاً لو فعل هذا فكيف يقص الصحابي جميع ما سمع ورأى وهو إنما يعتمد في ذلك على ذاكرته وإنما يذكر بالمناسبات، إلى غير ذلك من أسباب تكاد تحمّل هذا العمل، ومع هذا يظهر لنا مما حدث بعد من فوضى الحديث أن لو كان قد اقتصر على تدوين ما عرفه كبار الصحابة وجمع ومنع الناس أن يحدثوا بغير ما فيه لكان خيراً للمسلمين

ويظهر أن هذه الفكرة التي ذكرنا عرضت لعمر بن الخطاب فكتب روى عن الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، واستشار فيه أصحاب رسول الله فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وانى والله لا أليس كتاب الله بشيء

وعرضت بعد لعمر بن العزيز ففى الموطن أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فأكتبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأخرج أبو نعيم فى تاريخ

أصبهان عن عمر بن عبدالمعز بأنه كتب الى أهل الآفاق أنظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه

ولكننا لم نر لأمره هذا أثراً فلعله عوجل عنه ولم يأبه لذلك من خلفه ، ولما جاء أبو جعفر المنصور عاودته هذه الفكرة ، فابن سعد في الطبقات يروى عن مالك بن أنس (قال لما حج المنصور قال لى : قد عزمتم على أن أمر بكتيبك هذه التي وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لاتفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم) بل يظهر أن النية لم تكن متجهة فقط الى جمع الحديث في كتاب وحمل الناس عليه وترك ماعداه بل كانت متجهة أيضاً الى أن يكون في كتب الامام مالك أساس لقانون واحد اسلامي عام تحكم به المملكة الاسلامية ، ويتخذ صبغة رسمية ، ويتطور بتطور الزمان — ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً بما روى في كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت لاتفعل ، فان أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب

على كل حال مضى العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعاً ، انما كانوا يروونه شفاهاً وحفظاً ، ومن كان يدون فاما يدون لنفسه

وفي القرن الثاني بدأت جماعة في الأمصار المختلفة تجمع الحديث لابل المعنى الذي ذكرنا قبل ، ولكن بمعنى أن كل عالم جمع الأحاديث الذي رويت له وصححت عنده . قال ابن حجر في شرح البخارى « وأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) وسعيد بن أبي عروبة (سنة ١٥٦) الى أن انتهى الأمر الى كبار

الطبقة الثالثة وصنف الامام مالك الموطأ بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة والأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالكوفة وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاميهم كثير من الائمة في التصنيف كل على حسب ما سنح له وانتهى اليه علمه « فنها مرتب حسب ابواب الفقه كالموطأ والبخارى ومسلم ، ومنها ما رتب حسب الرواة فيجمع ماروى أبو هريرة مثلاً ثم ماروى أنس بن مالك وهكذا كمسند الامام احمد ولا نتعرض لوصف هذه الكتب فانها ألفت بعد عصرنا الذي نؤرخه

وبعد فقد كان للحديث - سواء منه ما كان صحيحاً أو موضوعاً - أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي ، فقد أقبل الناس عليه يتدارسونه اقبالا عظيماً ، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه ، وكل علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسسة على التفسير والحديث - والحديث كان أوسع دائرة - وسبب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء الى أقاصى المملكة وطوافهم في البلدان يأخذ بعضهم عن بعض ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ووقوف كل علماء مصر على ما عند الآخرين حتى لتكاد الحركة العلمية تُوحّد - روى احمد أن جابر بن عبد الله الأنصاري بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني حديثاً سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بهيراً ثم شد رحله وسار اليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه ^(١) ولا تكاد تقرأ ترجمة كبير من المحدثين الا وجزء عظيم من حياته يتضمن رحلته - أضف الى ذلك ما كان بينهم من تراسل ، فمالك بن أنس في المدينة يكتب الى الليث بن سعد في مصر والليث يرد عليه ويتبادلان الحجاج في الحديث والفقه وهكذا

عن طريق الحديث هذا انتشرت في العالم الاسلامي أنواع من الثقافة عدة ،
فالتاريخ الاسلامي بدأ بشكل حديث كالذي ترى في كتب الحديث من مغاز
وفضائل أشخاص وفضائل أمم، ثم تطور الى أن صار التاريخ كتباً قائمة بنفسها، ودليلنا
على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة بن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن
اسحاق والبلاذرى في فتوح البلدان يكاد يكون نمطها وأسلوبها نمط حديث
وأسلوب حديث — وقصص الانبياء، وما اليهم جاءت في القرآن وتوسع فيها الحديث
ثم توسع القصص فكان القصص — والحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة
اليونان والهند والفرس وضعت في الحديث وضعاً وانتشرت بين الناس على أنها
دين، فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية ، وفوق ذلك كان
الحديث أوسع منبع للتشريع في العبادات والمسائل المدنية والجناحية ، وغير ذلك
كما يطول شرحه

وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة في ذلك العصر

أم مصادر هذا الباب

فتح الباري على البخارى

القسطلاني على البخارى

مسلم وشرح النووي عليه

تيسير الوصول الى جامع الأصول

المستصفي للغزالي

شرح مسلم الثبوت

المواقفات للشاطبي

أسد الغابة لابن الأثير

الاصابة لابن حجر

المعارف لابن قتيبة

ميزان الاعتدال للنهبي

طبقات ابن سعد

مقدمة ابن خلدون

الملل والنحل لابن حزم

مسند الامام احمد

دائرة المعارف الاسلامية في مادة «حديث»

شرح بن أبي الحديد على نهج البلاغة

جامع بيان العلم وفضله للقرطبي



الفصل الثالث

التشريع

كان عرب الحجاز - في الجاهلية كما رأيت - بدوا أو شبه بدو ، فلم تكن لهم حكومة منظمة ، ولا ملوك يمنون من تعدى بعضهم على بعض بما لهم من قوة تنفيذية ، انما كانوا قبائل ، اذا كثر عددها انقسموا الى بطون وأغاذا وعشائر ، والرابطة بين أفراد القبائل هي رابطة الدم ، فكل من كانوا من دم واحد - ولو في زعمهم - عدّوا كتلة واحدة ، لأفرادها الحق في التمتع بحمايتها ، والاستصراخ بها ، وعليها أن تدافع عنه ، وتطالب بدمه ، وعليه الذود عنها ، والخضوع لعرفها ودينها - وكان لكل قبيلة شيخ هو صاحب السيادة على أفراد القبيلة ، مكنته من هذه السيادة ولادته من بيت الرياسة أوسنه وحكمته ، وهو الذي يمثلها في علاقاتها الخارجية بالقبائل الأخرى ، وأما كان يستمد قوته ونفوذه من الرأي العام لقبيلته ، لا بماله من جيش وجنود ونحو ذلك

وكان لكل قبيلة عرف وتقاليد تشارك أحيانا في أمور وتختلف في أخرى ، تبعاً لبعدها عن البداوة وقربها منها - وكانت للقبيلة حاكم يحكم بين من تنازع منهم حسب تقاليدهم وتجاربهم ، فالأغاني يقول في أكرم بن صَيْفِيَّ « أنه كان قاضي العرب يومئذ » والمَيْدَانِي يقول في عامر بن الظَّرْب « كان من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهما ، ولا بحكمه حكما » ولو تتبعنا كتب الأدب لرأينا فيها أن العرب كانوا تارة يتحاكون الى شيخ القبيلة ، وتارة الى الكاهن ، وتارة الى من عرف بجودة الرأي واصلته الحكم ، ومن الصعب وضع حدود فاصلة

لاختصاص كلِّ ، بل مما نشك فيه كثيراً أنه كان هناك حدود فاصلة في الواقع هؤلاء الحكام لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا قواعد معروفة ، إنما يرجعون الى عرفهم وتقاليدهم التي كوتها تجارهم أحياناً ، ومعتقداتهم أحياناً ، وما وصل اليهم عن طريق اليهودية أحياناً ، ولم يكن لهذا القانون الجاهلي المؤسس على العرف والتقاليد جزء ، ولا المتخاصمون ملزمون بالتحاكم اليه والخضوع لحكمه ، فان تحاكموا اليه فيها والا لا ، وان صدر الحكم أطاعه ان شاء ، وان لم يطعه فلا شيء أكثر من أن يحل عليه غضب القبيلة

وقد روت لنا كتب الأدب كثيراً من قضاياهم في الخصومات الأدبية ، وهي أن يتنازع سيدان أيهما أسود فيتحاكمان الى حكم ، فن حكم له كان الفضل والشرف له ولعشيرته ، والذل والعار للمنفور ، وهذه القصص تدلنا على أن هؤلاء الحكام كانوا من قبيل ما نسميهم بالمحكمين ، فلم يكن لهم سلطة مستمدة من الحكومة ، اذ لا حكومة لهم تدمم بالسلطان ، ولا الخصوم ملزمون بالتقاضى أمامهم وكل ما في الأمر أن الرجل اذا عرف بسداد الرأي وصحة الحكم وسعة العلم بوقائعهم^{٢٤} ونسبهم نصبوه حكماً - وروى لنا البخارى قضية جنائية حدثت قبيل الاسلام^(١) فقد روى أن رجلاً من بنى هاشم استأجره رجل من قريش من لخذ أخرى ، فانطلق معه في أبله ، فر به رجل من بنى هاشم - وقد انقطعت عروة جوالقه ، فقال أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقي لا تنفر الابل ، فأعطاه عقالا فشدَّ به ، فلما نزلوا عقلت الابل الا بعيراً واحداً ، فقال الذى استأجره : ما بال هذا البعير لم يعقل ؟ فقال ليس له عقال ، فقال فأين عقاله ؟ وحذفه بعضا كان فيها أجله ، فر به (بالمقتول) رجل من أهل اليمن قال . . . فهل أنت مبلغ عنى رسالة مرة من

الدهر؟ قال نعم، قال اذا شهدت الموسم فناد يا لقريش، فاذا أجابوك فناديا لبني هاشم، فاذا أجابوك فاسأل عن أبي طالب، فأخبره أن فلاناً قتلنى فى عقال، ومات المستأجر، فلما قدم الذى استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا؟ قال مرض فأحسنف القيام عليه ووليت دفنه، قال قد كان أهل ذلك منك، فكث حيناً، ثم ان الرجل الذى أوصى اليه وافى الموسم . . . حتى جاء أبا طالب، قال أمرنى فلان أن أبلغك رسالة: ان فلاناً قتله فى عقال فأتاه (المستأجر) أبو طالب، فقال اخترت مناً احدى ثلاث، ان شئت أن تؤدى مائة من الابل، فانك قتلت صاحبنا، وان شئت حكف خمسون من قومك انك لم تقتله، فان أبيت قتلناك به الخ الحديث

وهذه القصة تدلنا على أنواع كثيرة من النظام القضائى عندهم ويطهر أن مكة قبيل الاسلام بلغت شيئاً من الرقى فى نظامها الحكومى، ومنه القضاء، كما يدلنا على ذلك ما روى من توزيع الأعمال على عشرة رجال من عشرة أبطن^(١) كالحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، وكان من هذه الأعمال شىء يتعلق بالقضاء عهد به الى أبى بكر فى الجاهلية، فقد ذكروا أنه عهد اليه بالأشناق، وهى الدييات والمغارم، ويدلنا على ذلك أيضاً ما روى لنا من اجتماع قريش على حلف النضول، فقد تحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه، ويؤدوا اليه مظلمته، من أنفسهم ومن غيرهم

كذلك كان التشريع فى المدينة قبل الاسلام راقياً رقيقاً نسبياً، لاختلاط العرب فيها باليهود، وكان عندهم من التوراة وشروحها كثير من الأحكام، وكانوا

(١) انظر ذلك فى المقدم الفريد

خاضعين في شؤونهم للقانون اليهودي

وقد تعرض الاسلام للقانون الجاهلي وبعبارة أخرى لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية ، فأقر بعضاً وأنكر بعضاً ، وعدّل بعضاً ، مثال ما أقره القسامة وهي التي حكينا عن البخارى قصتها من قبل ، فقد أخرج مسلم والنسائي عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية ، وقضى بها بين ناس من الأنصار في قتل ادعوه على يهود خيبر (١) — وعدّل الاسلام بعض شريعة الجاهلية في الحج والزواج والطلاق والمهر والخلع والأيلاء ، وألغى نظام التبني المعروف كان في الجاهلية ، كما ألغى البيع بالقاء الحجر والمأتمسة والمنابدة ، ويطول بنا القول لو ذكرنا ما يروى من هذه النظم في الجاهلية وما أدخلها عليه الاسلام من تعديل أو الغاء.

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ؛ ثم أقام بالمدينة نحو عشرين سنة ، وهذا العصر أعنى العصر الذى عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة هو عصر التشريع حقاً ، فيه كان ينزل القرآن بالأحكام ، وتصدر عنه الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث . وهذان المصدران — الكتاب والسنة — هما أعظم مصادر التشريع الاسلامي

القرآن : نزل القرآن — كما رأيت — منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو الثلث ، ونحن اذا تتبعنا الآيات الملكية نجد أنها لا تكاد تتعرض لشيء من التشريع في المسائل المدنية والأحوال الشخصية والجنائية ، أما تقتصر على بيان أصول الدين

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٠١

والدعوة إليها ، كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق كالعدل والأحسان ، والوفاء بالوعد ، وأخذ العفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر ، وتجنب مساوئ الأخلاق ، كالزنا والقتل وواد البنات والتطيف في السكيل والميزان ، والنهي عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر ، حتى ما شرع في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف في المدينة ، فالزكاة في مكة كانت بمعنى الصدقة والاتفاق في سبل الخير من غير أن يحدّد لها جزء معين ولا نظام خاص ، وكذلك الصلاة ، إنما أمر المسلمون أول أمرهم بنوع من الصلاة لم يحدّد بأنه خمس في اليوم وهكذا — ولعل أوضح ما يبين التعاليم التي كان يدعو إليها الإسلام في مكة سورة الأنعام المسكية

أما التشريع في الأمور المدنية من بيع وإجارة وربا ونحو ذلك ، والجناحية من قتل وسرقة ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ولعل خير ما يوضح هذا النوع من التشريع سورتا البقرة والنساء المدينتان — والعلّة في ذلك واضحة ، فإن أصول الدين وهي التي جاء بها التشريع المكي مقدّمة في الأهمية وفي المنطق على أصول الأحكام التي جاء بها التشريع المدني — وأيضاً ، فإن الأحكام هي أشبه ما تكون بقوانين الدولة ، وهي إنما توضع بعد تكوّن الدولة وقرارها ، ولم يكن الحال كذلك إلا في المدينة ، أما في مكة فقد تقضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم بها في دعوة الناس إلى الدين الجديد ، ولم يدخل فيه في السنوات الأولى إلا العدد القليل

وهذه الآيات القانونية أو كما يسميها الفقهاء آيات الأحكام ليست كثيرة في القرآن ، ففي القرآن نحو ستة آلاف آية ، ليس منها مما يتعلق بالأحكام إلا نحو مائتين ، وحتى بعض ما عدّه الفقهاء آيات أحكام لا يظهر أنها كذلك ، وليس

عدها من آيات الأحكام الاتغالياً في الاستنتاج لايساعد عليه سياق الآيات ، وذلك كاستنتاج أن لفظ « أشهد » من ألفاظ اليمين من قوله تعالى « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » وكاستنتاج حرمة لحم الخليل والبقال والحير من قوله تعالى « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » واستنتاج وجوب الأضحية من قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر فصلل ربك وانحر » الى كثير من أمثال ذلك

وترتيب القرآن توقيفى ، لم يراع فيه تاريخ النزول ، ولا اتحاد الموضوع ، لذلك لا ترى الآيات القانونية قد جمعت في موضع واحد ، ولا الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مقام واحد أو مقامين الا نادراً ، كآيات الموارث وآيات الطلاق والسبب في ذلك على ما يظهر أن القصد الأول للقرآن تأسيس أركان الدين ، والدعوة الى التوحيد ، وتهذيب النفوس ووضع مبادئ للاخلاق ، فأما القصد التشريعى فيلبي هذا ، ومن ثم كان كثير من آيات التشريع وارداً في سياق القصد الأول ، وعلى أسلوب الدعوة والهداية لا على الاسلوب القانونى المألوف مثل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْمَلُوا أَنعَامَعَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيتحاكم فيها المتخاصمون الى الرسول ، فتنزل الآية أو الآيات ناطقة بالحكم ، مثل ما روى أن

رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال ففنه عمه ، فترافعا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ الْآيَةُ » وكالذي روى أن أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الاسلام كانوا اذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فان شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق الا الصداق الذي أصدقها الميت ، وان شاء تزوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا وان شاء عضلها وضارها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت هي فيرثها ، فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كُبَيْشَةَ (١) فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ، يضارها لتفتدى منه بما لها فأنت كبيشة الى رسول الله وقصت قصتها ؛ فقال لها رسول الله اقمدي حتى يأتي فيك أمر الله ، فانصرفت وسمعت بذلك نساء المدينة فأتين رسول الله ، وقلن ما نحن الا كبيشة كبيشة فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَّذِرْنَ بَعْضٌ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ۗ » الآية (٢)

وأحيانا تحدث حادثه جزئية تستدعي نزول آيات تبين أحكام الموضوع كله ، كما بقى الميراث « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۗ » الآية ولعلك لمحت معي مما ذكرت من حادثه كبيشة أن الناس حتى في المدينة كانوا

(١) ترد في بعض الكتب « كبيشة » وفي بعضها « كبيشة » وهما اسمان لها كما في الاصابة

لابن حجر

(٢) تجده هذا وكثيرا مثله في أسباب النزول للواحدى النيسابورى

يسرون فيما لم يرد فيه حكم اسلامى على المألوف عندهم فى الجاهلية حتى يغيره الاسلام
أويقره ، بل قد روى لنا أن بعض من ينتسب الى الاسلام فى العهد الأول بالمدينة
كان يريد أن يسير على النمط الجاهلى فى التقاضى وفى الحكم ، فقد جاء فى الطبرى
أن رجلا من الأنصار يقال له قيس ورجلا من اليهود تحاصفا ففتنارا الى كاهن بالمدينة
ليحكم بينهما ، وتركا نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اليهودى يدعو الى نبى
الله وقد علم أنه لن يجور عليه ، وجعل الانصارى يأبى عليه وهو يزعم أنه مسلم ،
ويدعوه الى الكاهن ، فانزل الله تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا
بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِعُوا حُكْمًا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضَلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » الى
أن يقول « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » وفى موضع آخر
« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »
ولعل هذه الآيات هى أول ما نبه الى وجوب رجوع المسلمين فى تقاضيمهم الى
أحكام الاسلام

ويمكننا أن نقول أن آيات الاحكام بالمدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين
بالمدينة ، ولو وقفنا على تاريخ نزول آيات الاحكام بها وتبعنا تسلسل الآيات تبعاً
لتسلسل الحوادث لفهمنا أصدق فهم حالة المسلمين الاجتماعية وتدرجها فى الرقى ، وفهمنا
بحق مجمل الآيات ومفصلها ، ومطلقها ومقيدها ، ولعل هذا المعنى هو الذى يرى اليه
« الشاطبى » فى كتابه « الموافقات » من قوله « المدنى من السور ينبغى أن يكون منزلاً
فى الفهم على المكى وكذلك المكى بعضه مع بعض ، على حسب ترتيبه فى التنزيل الخ^(١)

— فالدعوة السلمية في مكة ثم تشريع الحرب والجهاد في أول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم التوسع في أحكام الحرب بعد ذلك ، والأمر بالزكاة على وجه عام ليس فيه تقدير ما في مكة ، ثم تحديد القدر وبيان مصارف الزكاة في المدينة ، كل هذا — ونحوه كثير — كان تابعاً لنو جماعة المسلمين ورفيقهم ، فكان التشريع ينزل طبقاً لحالهم ، وقل مثل ذلك فيما ورد من آيات مُسألِمة لليهود أول الأمر ، ثم آيات شدة وحرب لما ناصب اليهود المسلمين العداء ، وهكذا ، بل ترك الاسلامُ الناس يأتون بعبادات جاهلية لا يحبها كالحجر استدراجاً لهم وتأليفاً لقلوبهم حتى اذا نضجوا وأصبح من الممكن تنفيذ الأمر والنهي أمرَ ونهى

وهذا التدرج ومرعاة حال جماعة المسلمين هي التي تفسر لنا العسلة في تشريع النسخ ، وهو أداة لا بد منها في القوانين الالهية والوضعية ، يقول الله تعالى « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » ويقول « وَإِذْ أَبَدْنَا آيَةَ مَكَانِ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ويقول الطبرى في تفسير النسخ « أن يُحوَّلَ الحرام حلالاً ، والحلال حراماً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً » وعللوا جواز النسخ بأن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات ، وقد حدث ذلك فعلا في الشريعة الاسلامية ، فقد أمرت المرأة ان تعتد حولا اذا مات عنها زوجها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ » ثم نسخ باعتدادهما أربعة أشهر وعشرأ في قوله تعالى « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَوْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » وحصل مثل ذلك في الحديث « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحي فالآن ادخروها » و « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » وقد لاحظ الشاطبي — بحق — أن التشريع المكي قلَّ أن يتعرض للنسخ ،

والعلة في ذلك ما علمنا أن التشريع المكي إنما يتعرض لأصول الدين من توحيد وترك أوثان ودعوة الى مكارم الأخلاق وهذه غير معقول فيها نسخ ، إنما يحصل النسخ أحياناً للأحكام الدينية التفصيلية ، وذلك كان في المدينة

تعرض القرآن في آيات الأحكام الى جميع أنواع ما يصدر عن الانسان من أعمال ، الى العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ، الى الأمور المدنية كبيع واجارة وربا ، الى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنى وقطع طريق ، الى نظام الأسرة من زواج وطلاق وميراث ، الى الشؤون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحار بين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب — وهو في هذا كله لا يتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية ، إنما يتعرض غالباً للأمور الكلية ، فهو لا يتعرض في الصلاة مثلاً الى أوقاتها وهيئاتها ، وفي الزكاة الى مقدار الواجب فيها وأنواع ما يجب ، وهكذا في بقية الأبواب ، بل ترك ذلك الى الرسول يبينه بقوله وفعله

وهو في كثير من شؤون التشريع محدّد مصلح ، قد أدخل على النظام الجاهلي تغييرات وتعديلات يطول شرحها ، فهو يقلل عدد الزوجات ، ويزيد في حرية المرأة ، ويغير كثيراً من عادات الجاهلية في زواجهم وطلاقهم ، ويضع نظاماً للارث يخالف النظام الجاهلي ، فقد كانوا في الجاهلية — مثلاً — لا يورثون النساء ، ولا الصغار من أبناء البيت ، إنما يورثون من يلاقى العدو ويقاتل في الحروب^(١) ، فشرع الاسلام توريث المرأة وكان ذلك شديداً على النفوس ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والأبني والأبوين كرهها الناس وقالوا تعطى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة

النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة الخ^(١) ومن أجل هذا أكد القرآن اعطاء المرأة نصيبها وكرر ذلك في أكثر من موضع — وهكذا في كثير من الشؤون التي تعرض القرآن لبيان أحكامها ، ولسنا نستطيع هنا ذكر جميع ما شرعه القرآن من الأحكام^(٢)

وهناك نوع آخر من التشريع كان في عهد رسول الله وهو التشريع بالسنة ، ويختلف عن الكتاب في أن القرآن ألفاظه ومعانيه بوحى من الله ، وأما السنة فألفاظها من عند الرسول ، فالسنة أو أحاديث الرسول بينت كثيراً من آيات القرآن كالذي رأيت في آيات الصلاة والزكاة ، فالقرآن لم يبين هيئات الصلاة ولا أوقاتها ولم يبين المقادير الواجبة في الزكاة ولا شروطها إنما بين ذلك النبي بقوله أو فعله ، كذلك حدثت حوادث وخصومات قضى فيها النبي بالحديث لا بالقرآن فكان قضاؤه في ذلك تشريعاً ، فكل ما قاله النبي أو فعله أو حدث أمامه واستحسنه كان تشريعاً ، ومتى ثبت ذلك عن رسول الله كان في القوة بمنزلة القرآن ، ولكن قلّ أن يثبت ثبوتاً لا يحتمل الشك لما بيننا قبل في كلامنا على الحديث

ويتصل بهذا النوع ما ارتضاه أكثر الأصوليين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحى ، وأنه كان أحياناً يخطئ في رأيه واستدلوا على ذلك بأنه عوتب في أسرى بدر بقوله تعالى « مَا كَانَ لِنَجِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ » وكان قد أشار عليه عمر بالقتل ، ولو

(١) تفسير الطبري جزء ٤ ص ٨٦ (٢) أفرد قوم آيات الاحكام بالتأليف مثل « التفسيرات الأحمدية في الآيات الشرعية » فقتصر على آيات الأحكام وتفسيرها وبيان ما يستنبط منها وانظر كذلك « التفریح الإسلامي » للرحوم الأستاذ الحضري فقد كتب فيه فصلاً مطولاً عن الاحكام التي وردت في الكتاب

كان حكم بمقتضى الوحي ما عوتب ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال في حق مكة « لا يُحْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا » فقال العباس الا الإذخِر فقال صلى الله عليه وسلم الا الأذخِر — ونزل صلى الله عليه وسلم منزلا للحرب فقبل له ان كان بوحي فسمعاً وطاعة ، وان كان باجتهد ورأى فليس منزل مكيدة ، فقال باجتهد ورأى فرحل ، وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقتُ الهدى » وقال صلى الله عليه وسلم « انكم تختصمون الى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فانما أفضى له قطعة من نار » — ولكن اتفقوا على انه صلى الله عليه وسلم لا يُقرُّ على خطأ ، فما اجتهد فيه وأقرَّ عليه كان — لا شك — حجة^(١)

وأحاديث الأحكام كثيرة وردت في كل الانواع التي ورد فيها القرآن فبينت مجمله ، وقيدت مفصله ، وزادت أشياء كثيرة لم يذكرها القرآن وقد عنى العلماء قديماً بجمعها ، ورتبوها حسب الترتيب الفقهي^(٢)

هذان الأصلان — الكتاب والسنة — هما مصدرا التشريع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذلك يتبين أن أساس القانون الاسلامى الهى ، مصدره الله فيما نص عليه من كتاب وحديث ، ليست لأية سلطة حق في مخالفتها ، ولا الخروج على ما ورد في نصوصها ، انما يجتهد المجتهدون فيما لم يرد فيه نص ، مسترشدين بما ورد في الكتاب والسنة من قواعد كلية ، وبذلك تخالف القوانين الوضعية ، ففيها

(١) انظر المستصفى للفرالى جزء ٢ ص ٣٥٥ (٢) من أقدم من عمل ذلك البخارى في صحيحه ومن خير ما ألفه المحمّدون الشوكانى في كتابه نيل الاوطار فقد جمع ما في الكتب الستة ورتبه حسب أبواب الفقه وشرحها شرحاً مستفيضاً بينا ما يستنبط منها من الاحكام

تكون السلطة التشريعية في منتهى الحرية في تفسير قانون أو تعديله أو إلغائه ، وليس الشأن كذلك في القوانين الالهية ، فخرية الفقهاء والخلفاء محدودة في دائرة فهم نصوص القرآن ، ومقدار الثقة بالحديث وعدمها . وفيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي ، واتسعت المملكة الاسلامية اتساعاً عظيماً وسريعاً وعجيباً ، ففي السنة الرابعة عشرة من الهجرة فتحت دمشق ، وفي السابعة عشرة تم فتح الشام كله والعراق ، وفي الحادية والعشرين تم فتح فارس ، وفي السادسة والخمسين وصل المسلمون الى سمرقند ، وفي الغرب أخذت مصر في سنة عشرين ثم امتدت الفتوح الى المغرب وأخذت اسبانيا حول سنة ٩٣ هـ ونال المسلمون من الغنى في المال والرقيق وزخرف الحياة ما لا عهد لهم به من قبل ، وكانت هذه الممالك المفتوحة غنية ، وكانت ممدنة كأرقم ما وصلت اليه المدينة في ذلك العصر ، تمثلت الحضارة الفارسية في فارس والعراق والحضارة الرومانية في مصر والشام ، ولم يكن الفتح الاسلامي سلباً ونهباً وتدميراً ، انما كان فتحاً منظمًا يسير فيه القراء والمعلمون والقانونيون مع الجند الفاتحين ، ويحلون حيث حل الجند — فواجه المسلمون بهذا الفتح مسائل كثيرة — في كل شأن من شؤون الحياة — تحتاج الى تشريع لم يكونوا يحتاجون اليه وهم في جزيرة العرب ، فنظام الري يخالف رى الجزيرة ، وما كان منه في العراق يخالف ما كان منه في مصر ، ومسائل مالية عديدة معقدة لا تقارن بالشؤون المالية بجزيرة العرب ، ومسائل الجيش والفتوح ومعاملة المغلوبين وعلاقة الفاتحين بهم ، وما يؤخذ من الضرائب ممن أسلم ومن لم يسلم واحوال في الزواج لم يكن يعرفها العرب ، وأنواع في طريقة التفاضل لم يكن لهم بها عهد ، وجنبايات ترتكب لم يرتكبها العرب في حياتهم البسيطة

وقل مثل ذلك في سائر الشؤون الداخلية والخارجية ، فواجه الشرعون الاولون أمراً عظيماً ، ولم يدع أحد أن القرآن والسنة الصحيحة نصاً في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع ، وهو الرأي الذي نظّم بعدُ وسمى القياس

جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستهون رأيهم حيث لا نص ، وقد نقل الينا المؤرخون والمحدثون والفقهاء جملةً صالحه من المسائل التي استعمل فيها الصحابة رأيهم ، فلم يكده يتوفى النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية وهي من يتولى الامر بعده ، أمن المهاجرين أم من الانصار أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ، واذا فصل في ذلك فن هو خير من يتولاها ؟ لم يرد في ذلك نص من كتاب ولا سنة فلم يكن الا أن يستعملوا رأيهم ، وقد كان ، فالخضر الذي ذكره المؤرخون لاجتماع السقيفة يدلنا على كيفية استعمال رأيهم وتقليب الامر على وجوهه

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الردة ، فرأى قوماً يمتنعون عن أداء الزكاة مع اقرارهم بالاسلام واتباعهم للصلاة ، فكيف يصنع بهم ولم تحدث حادثة كهذه في عهد النبي ؟ فلجئوا الى الرأي ، فقال عمر كيف تقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها » فقال أبو بكر ألم يقل الا بحقها ، فمن حقها ايتاء الزكاة كما أن من حقها اقام الصلاة

وكذلك عرضت فكرة جمع القرآن في مصحف واختلف الرأي أولاً بين أبي بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبي بكر لما يقول عمر وعرضت لهم مسألة الجلد مع الأخوة ، هل يرث الأخوة ؟ فالقرآن لم ينص على

هذه المسألة ، انما نص على الأب مع الاخوة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر الى أنه يحجبهم كالأب ، وذهب آخرون ومنهم زيد بن ثابت وعلى وعمر الى ارثهم معه وأرادوا أن يعطوا العطاء أعنى الغنائم التي يفتنونها في الحروب فاختلقوا ، هل يسوّى بين المهاجرين والانصار ؟ فقال عمر لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً الى النبي صلى الله عليه وسلم كمن دخل في الاسلام كرهاً ، فقال أبو بكر انما أسلموا لله ، وأجورهم على الله ، وانما الدنيا بلاغ ، وكان أبو بكر يعمل برأيه فيسوى بينهم ولما أفضت الخلافة الى عمر فرق بينهم ، ووزع على تفاوت درجاتهم ، ولما رفضت الى زيد بن ثابت مسألة من مات عن زوج وابوين أعطى للام ثلث ما بقي ، فقال ابن عباس أين وجدت في كتاب الله ثلث ما بقي ؟ فقال زيد أقول برأبي وتقول برأيك وفي تاريخ القضاة للكندي أن عياض بن عبيد الله قاضي مصر كتب الى عمر ابن عبد العزيز في مسألة ، فكتب اليه عمر أنه لم يبلغني في هذا شيء ، وقد جعلته لك فاقض فيه برأيك^(١) والأمثلة الواردة في هذا الباب كثيرة جداً لانطيل بسردها وعلى الجملة فقد كان كثير من الصحابة يرى أن يستعمل الرأي حيث لانص من كتاب ولا سنة ، والمتبع لما روى عن العصر الأول في « الراي » يرى أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة بالمعنى الذي نفهمه الآن من كلمة « العدالة » وبعبارة أخرى ما يرشد اليه الذوق السليم مما في الأمر من عدل وظلم ، وفسره ابن القيم « بأنه ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب » وأنا أقص عليك بعض أمثلة رويت تبين كيف كانوا ينظرون الى المسائل ، وكيف يقبلونها على وجوهها ، وكيف يستعملون رأيهم ، من ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب لما استشار في ميراث الجد والاخوة ، قال زيد وكان رأيي يومئذ أن الجد أولى بميراث ابن ابنه من اخوته ،

فتجاوزت وأنا وعمر محاورة شديدة فضربت له في ذلك مثلاً ، فقلت لو أن شجرة
تشعب من أصلها غصن ثم تشعب في ذلك الغصن خُوطَانٌ ^(١) ، ذلك الغصن يجمع
الخوطين دون الأصل ويغذوهما ، ألا ترى يا أمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب
إلى أخيه من الأصل ، قال زيد فإنا أعدله ، وأضرب له هذه الأمثال ، وهو يأبى
إلا أن الجدل أولى من الاخوة ^(٢)

ورفعت إلى عمر قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردد عمر هل يقتل
الكثير بالواحد ، فقال له عليٌّ رأيت لو أن نفرًا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا
عضواً وهذا عضواً أ كنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك ، فعمل عمر برأيه
وكتب إلى عامله أن اقتلها ، فلو اشترك فيه أهل صنعاء . كلهم لقتلهم ^(٣)
ولما اختلفوا في المسألة المشتركة وهي التي توفيت فيها امرأة عن زوج وأم وأخوة
لأم وأخوة أشقاء كان عمر يعطى للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللأخوة لأم
الثلث فلا يبقى شيء للأخوة الأشقاء فقليل له : هب أن أبانا كان حماراً ، أسنانم
أم واحدة ؟ فعدل عن رأيه وأشرك بينهم

ولما سئل على في عقوبة شارب الخمر قال من شرب هذى ، ومن هذى افترى
فأرى عليه حد الفترى (وهو القاذف) ومثل هذا كثير مما يدل على مقدار تفكيرهم
القانوني في هذا العصر

ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في هذا الباب ، وهو استعمال الرأي ،
فقد روى عنه الشيء الكثير ، وكان هذا من توفيق الله للمسلمين ، فإن عمر قد واجه
من الأمور المحتاجة إلى التصریح ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذي على

(١) الخوط الغصن الفص النابت حديثاً (٢) أعلام الموقعين جزء ١ ص ٢٥٦

(٣) أعلام الموقعين

يده فتحت الفتوح ، ومصرت الأمصار ، وخضعت الأمم الممددة من فارس والروم لحكم الاسلام ، وهى حالة لم يحدث بعد نظيرها ، فكان لعمر من التشريع فى المسائل الاقتصادية والسياسية والعمراية ما كان أصلا للفقهاء من بعده ، ولذلك يقول فيه الفقهاء فى باب الجهاد والسير - وهو الباب الذى تبين فيه علاقة الغالبين بالمغلوبين - « انه العمدة فى هذا الباب »

بل يظهر لى أن عمر كان يستعمل الرأى فى أوسع من المعنى الذى ذكرنا ، ذلك أن ما ذكرنا هو استعمال الرأى حيث لانس من كتاب ولا سنة ، ولكننا ترى عمر سار أبعد من ذلك ، فكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآيه أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لاجرفيته ، ودليلنا على ذلك ماروى عنه العلماء من أحكام نذكر بعضها

فقد قال الله تعالى « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ » الآيه فجعل للمؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام كما أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن ، كل واحد منهم مائة من الابل ، حتى قال صفوان : لقد أعطانى ما أعطانى وهو أفض الناس الى فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس الى ، ثم فى زمن أبى بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فرزق الكتاب ، وقال ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه والافيننا وبينكم السيف^(١) فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعله هى المصلحة ، فلما ارتفعت هذه المصلحة

بِعِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَى مَنْ تَنَالَفَ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَسْتَمِرَّ فِي إِجْرَاءِ الْحُكْمِ
كَذَلِكَ رَوَى عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ لَمْ يَقْطَعْ يَدَ السَّارِقِ فِي عَامِ الْمَجَاعَةِ ، وَرَوَى أَنَّ
غَلْمَةَ خَطَّابِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ سَرَقُوا نَاقَةَ لِرَجُلٍ مِنْ مَزِينَةَ ، فَأَتَى بِهِمْ عُمَرُ ، فَأَقْرَأُوا ،
فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبِ بَجَاءٍ ، فَقَالَ لَهُ أَنَّ غَلْمَانَ حَاطِبِ سَرَقُوا نَاقَةَ رَجُلٍ
مِنْ مَزِينَةَ وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ يَا كَثِيرُ بْنُ الصَّلْتِ ! أَذْهَبَ فَاقْطَعْ أَيْدِيَهُمْ ،
فَلَمَّا وُلِّيَ بِهِمْ رَدَّهُمْ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِي أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَسْتَعْمَلُونَهُمْ وَتَجْبِعُونَهُمْ حَتَّى
أَنْ أَحْدِمَ لَوْ أَكَلْتُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ حُلَّ لَهُ لَقَطَعْتُ أَيْدِيَهُمْ ، وَإِيْمَ اللَّهِ إِذْ لَمْ أَفْعَلْ
لَأَغْرَمْتُكَ غَرَامَةَ تَوْجَعِكَ الْحُجَّ (١)

ومثل ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس « كان الطلاق الثلاث
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وستين من خلافة عمر طلاق
الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب ان الناس قد استعجوا في أمر كانت لهم
فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه — الى كثير من أمثال ذلك ، ويكفي هذا
القدر للدلالة على ما تقول

وقد وجدت نزعة من العصر الأول لتنظيم هذا الرأي من طريق الاستشارة ؛
فقد أخرج البَعَوِيُّ عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم
نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وان لم يكن في الكتاب
وعليم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى بها ، فان أعياء
خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قضى في ذلك بقضاء ؟ فر بما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله
قضاء . . . فان أعياء أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع روس

الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياءه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء ، فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، والادعاء رؤوس الناس فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

وفي المبسوط للسرخسي « ان عمر كان يستشير الصحابة مع فقهاء حتى كان اذا رفعت اليه حادثة قال ادعوا الى علياً ، وادعوا الى زيداً . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه »

وعن الشعبي قال « كانت القضية ترفع الى عمر رضى الله عنه فر بما يتأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه ، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية »

وروى عن سعيد بن المسيب عن علي قال قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة قال اجعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد

وعن شريح قال قال لي عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله فان لم تعلم كل أقضية رسول الله فأقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فان لم تعلم فاجتهد برأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح

ولكن لم يوضع — مع الأسف — نظام ملازم واضح يبين كيفية الشورى ومن الذين يستشارون وقيمة رأى المستشارين الخ مع أن الحاجة ماسة الى هذا التنظيم ، وقد سار الاندلسيون فيه خطوة سديدة بتكوين مجلس للشورى يعين أعضاؤه من قبيل الخليفة ليس هنا موضع الكلام عليه

على كل حال وجد العمل بالرأى ، وتقل عن كثير من كبار الصحابة قضايا أفتوا فيها برأيهم كأبي بكر وعمر وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل

وكان حامل لواء هذه المدرسة أو هذا المذهب فيما نرى عمر بن الخطاب ، وأشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود في العراق ، فكان يتعشق عمر ويحبب بآرائه ، وروى عنه انه قال انى لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم . وجاء في أعلام الموقعين أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمر في شيء من مذاهبه^(١) وقال الشعبي كان عبد الله لا يقنن^٢ ، ولو قننت عمر لقننت عبد الله ، وقال أيضاً « ثلاثة كان يستفتى بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله (بن مسعود) وزيد بن ثابت يستفتى بعضهم من بعض ، وكان علي وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتى بعضهم من بعض » وهذا الخبر يدلنا على أنه كان للمصاحبة العلماء مناح للتفكير ، كل جماعة لم منحي يألف بعضهم بعضاً ويؤيد بعضهم بعضاً

فكان عبد الله بن مسعود من منحي عمر ، وأظهر مناحيه الاعتداد بالرأى حيث لا نص كما رأيت . وهذا المنحى يظهر في ابن مسعود واضحاً أيضاً ، فقد قال أبو عمرو الشيباني كنت أجلس الى ابن مسعود حولاً لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قالها استقلته الرعدة^(٣) وروى عن ابراهيم النخعي أنه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتمعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف وأنت اذا علمت أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود وأن مدرسة العراق توجت بأبي حنيفة^(٤) رأيت سبباً كبيراً من الأسباب التي جعلت مدرسة العراق تشتهر بالرأى واعمال القياس

انتشرت مدرسة الرأى هذه في القرن الأول والثانى للهجرة حتى كانوا ينسبون اليها ، فسموا « ربيعة الرأى » وهو من أكبر التابعين وشيخ الامام مالك وكان من

(٢) أعلام الموقعين

(١) جزء ١ ص ٢٢

(٣) اذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان وهو

أخذ عن ابراهيم النخعي و ابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس وهو تلميذ عبد الله بن مسعود

الموالى ، وكان كثير من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة كالحسن البصرى ، وكان أكبر موطن لها العراق ، ويرجع ذلك الى أسباب ثلاثة : الأول ما ذكر من تأثير عبد الله بن مسعود فيهم وهو ما علمت من ميل الى الرأى يشارك فيه أستاذه عمر بن الخطاب ، والثانى ما ذكره ابن خلدون من أن الحديث كان فى العراق قليلا ، وكان أكثر رواة الحديث فى الحجاز ، لانه موطن النبى صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة ، والثالث أن العراق قطر ممدن كما علمت قد تأثر الى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية ، والمدنية تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع لا يقاس بها القطر البدوى وما فى حكمه ، فاذا انضم الى ذلك قلة ما وصل اليهم من الحديث أنتج ذلك لا محالة اعمال الرأى

وكان لمدرسة الرأى هذه مميزات واضحة

(١) كثرة تفرعهم الفروع حتى الخيالى منها ، وقد ألبأ الى ذلك أو لا كثرة ما يعرض لهم من الحوادث نظراً لمدنيتهم ، ثم ساقهم ذلك الى الجرى وراء الفروض فأكثر من رأيت لو كان كذا ، فيسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ، ثم يفرعونها بقولهم رأيت لو كان كذا ، ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً حتى سماهم أهل الحديث « الأرائييون » قال الشعبى « والله لقد بغض هؤلاء القوم الى المسجد حتى هو أبغض الى من كناسة دارى ، قلت من هم يا أبا عمر ؟ قال الأرائييون »^(١) وقال « ما كلمة أبغض الى من رأيت » وكان مالك بن أنس لا يقدم عليه فى السؤال كثيراً ، وكان أصحابه يهابون ذلك ، قال أسد بن القرات — وقد قدم على مالك — وكان أصحابه يجعلوننى أسأله عن المسألة فاذا أجاب يقولون قل له فان كان كذا ، فأقول له ، فضاقت على يوماً فقال لى هذه سؤكسلة بنت

سليسة؛ ان أردت هذا فعليك بالعراق^(١) وقال ربيعة الرأى لسعيد بن المسيب وقد اعترض عليه في مسألة « أعراق أنت ؟ » الخ وكان عمل العراقيين سبباً في تضخيم الفقه وكثرة مسأله مما جعل الفقهاء الآخرين ينظرون فيها ويبدون حكمهم فيها على أصول مذاههم ، ويظهر أنه كان للمنطق السرياني الذى كان منتشرأ في العراق قبل الفتح - كما وصفنا من قبل - أثر في القالب الذى اتخذه العراقيون في تفريع المسائل (٢) قلة روايتهم للحديث واشراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطاً

لا يسلم معها الا القليل

وحق تعالى قوم فرأوا عدم الأخذ بالحديث بتناً ، وحجتهم في ذلك شكهم المطلق في رواية الحديث ، وكثرة من جرحه المحدثون ، حتى يكادوا لا يتفقون على أمانة محدث وصدقه ، فقالوا لا تترك كتاب الله الثابت للمقطع به لمثل هذا الحديث المشكوك فيه ، وحتى من ظهرت أمانته ، فن يدرينا ما دحيلة نفسه ، وكانت هذه فئة كبيرة على ما يظهر ، فقد عقد الامام الشافى في كتابه الأم فصلاً طويلاً بعنوانه « باب حكاية قول الطائفة التى ردت الأخبار كلها » وحكى آراءهم وناقشهم فيها مناقشة طويلة وبديعة^(٢) وعقد بعده باباً آخر للرد على جماعة ذهبوا الى أنه لا يؤخذ من الأخبار إلا ما اجتمع عليه ، فأما ما اختلفوا فيه فيقدم الرأى والقياس عليه^(٣) ويظهر أن خطورة هذا القول جعلت ناقلى الأخبار لا ينقلون أقوالهم فلا نثر منها الا على القليل المجمال الغامض ، وقد نسب البغدادى القول بأنكار العمل بالحديث الى الخوارج في كتابه « أصول الدين »

(١) المصدر نفسه ص ١٨٧

(٢) الام جزء ٧ ص ٢٥٠ وما بعدها

(٣) الام ص ٢٥٤ وما بعدها جزء ٧

كان يناهض هذه المدرسة مدرسة الحديث أو أهل الحديث ، ونرى لهذه المدرسة أصولاً في الصحابة ، كالعباس والزيبر ، ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن هذه المدرسة الشعبي من التابعين فإنه يقول « ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه ، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحُشِّ » ومنهذه هؤلاء أنهم اذا سئلوا عن شيء ، فإن عرفوا فيه آية أو حديثاً أفتوا والا لم يقولوا شيئاً ، روى أن رجلاً سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال لم أسمع في هذا شيئاً ، فقال له الرجل فأخبرني أصلحك الله برأيك ، قال لا ، ثم أعاد عليه فقال اني أرضى برأيك ، فقال سالم أني؟ لعلي ان أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأياً غيره فلا أجدك ، وروى عن عبد الله بن احمد بن حنبل أنه قال سألت أبي عن الرجل يكون يبلى لا يجد فيه الا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيم ، وأصحاب رأي ، فتنزل به النازلة ، فقال أبي : يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي ، ضعيف الحديث أقوى من صاحب الرأي ^(١) ومثل هذه الأقوال كثير

وأظهر ما كانت هذه المدرسة في الحجاز لعكس الأسباب التي ذكرناها في العراق ، وكان من مميزات هذه المدرسة (١) كراهيتهم الشديدة للسؤال عن الفروض ، لأن المصدر عندهم وهو الحديث محدود ، وهم يكرهون إعمال الرأي ، وقد رويت أقوال كثيرة تدل على كراهيتهم للسؤال عن حادثة الا اذا وقعت فعلاً ، وعيبهم على العراقيين إثارة الفروض (٢) ومن مميزات الاعتداد بالحديث حتى الضعيف منه وتساهلهم في شروطه وتقديهم ذلك على الرأي ، كالذي روينا عن احمد بن حنبل وكانت هذه المدرسة كما أسلفنا سبباً غير مباشر لوضع الحديث ، فقد رأى

قوم لا يتحرون الصدق أب هنالك مسائل لا تعد لم يرد فيها نص ، وراوا أعلام مدرستهم لا تُقدِّم على الرأى تحمل به هذه المشاكل ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة يفظون بها هذا الموقف ، قال عتيق الزبيدي : وضع مالك الموطأ عن نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقى هذا ؛ ولو بقى قليلا لأسقطه كله ^(١) ومن أدلتنا على ذلك ما بين أيدينا من كتب الفقه حتى فقه الامام أبى حنيفة المشهور فى عصره بأعمال الرأى ، فانك لا تجد فرعاً من فروعهِ الا وفيه الحديث عن الرسول أو الصحابي ، مع قول الثقات بأنه لم يصح عنده الا أحاديث قليلة ، وقد نبه العلماء على ضعف كثير مما ورد فى هذه الكتب

وتعالى اصحاب الحديث كما تعالى اصحاب الرأى حتى قال بعضهم أن السنة حاكمة على الكتاب وليس الكتاب حاكماً على السنة ، وحتى كان فى العصر الثانى من يقول أن السنة تنسخ الكتاب

كان النزاع بين المدرستين شديداً ووجه كل فريق قوارص اللوم للآخرين ، ووضعت الأحاديث لتأييد كل مدرسة ، فاذا روت مدرسة الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول بيننا وبينك كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحلناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وأن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله) ^(٢) روت مدرسة الرأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فأن وافق كتاب الله فأننا قلته وان خالف كتاب الله فلم أقله

(١) الديباج المذهب فى تراجم المالكية للقاضى ابن فرحون ص ٢٥

(٢) انظر كتاب نصب الرأية فى تخرىج أحاديث الهداية للزبيدي

(٣) الحديث فى الواقفات للشاطي جزء ٤ ص ٧

أنا وكيف أخالف كتاب الله و به هداى الله ؟^(١) وهذا هو الذى يفسر لنا ما نراه فى الكتب من تناقض فقد روى عن أبى بكر فى العمل بالرأى وفى ذم الرأى، وعن عمر فى العمل بالرأى وذم الرأى ، وابن مسعود كذلك^(٢) وقد أجهد بعض العلماء أنفسهم فى التوفيق بين هذه الأقوال المتناقضة ، ورأوا أن نوعاً من الرأى محمود ونوعاً منه مذموم ، وأن ماورد عنهم فى الذم إنما ينصرف الى النوع المذموم ، والذى نرى أن هذه الأقوال المتناقضة إنما هو من أثر المدارس المتنازعة ، ومن وضع من اندس فى كل مدرسة ولم يرع الحق ولم يخش الله

وكانت بين المدرستين مناقشات طريفة نذكر لك مثلاً منها

فقد روى أن ربيعة الرأى سأل سعيد بن المسيب عن عقل^(٣) أصابع المرأة ما عقل الاصبغ الواحدة ؟ قال عشرة من الابل ، قال فأصبهان ؟ قال عشرون ، قال فثلاث ؟ قال ثلاثون ، فأربع ؟ قال عشرون ، قال فعند ما عظم جرحها نقص عقلها ؟ فقال له سعيد أعرافى أنت ؟ إنما هى السنة

وهناك مدرسة كانت بين المدرستين لاهمل الرأى بتاتاً وهى مع ذلك غنية بالحديث ، ولا تعمل الرأى الا بشروط ، والا عند ما لم يكن نص فى المسألة فيما وصل اليها من حديث كثير ، ومن أعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعى ، وقد ارتقى البحث فى الرأى ونظم ووضعت له قواعد وشروط وسمى بالقياس ، وحصر الرأى بعد وضع هذه القواعد والنظم فى دائرة ضيقة لا تتعدى غالباً تشبيه ما لم ينص عليه بما نص عليه لعله يجمعها وهذه المدارس على اختلافها رقت التشريع رقيقاً يبيناً بما بحثت واستنبطت ،

(١) الحديث فى الموافقات أيضاً جزء ٤ ص ٩ وقد نيه على وضعه

(٢) نقل هذه الأقوال ابن القيم فى أعلام الموقعين جزء ١ (٣) العقل الدية

حق الأحاديث الموضوعة نفسها كان لها فضل في التشريع ، فإنها لم توضع اعتباراً ولا كانت مجرد قول يقال ، إنما كانت في الغالب نتيجة تفكير فقهي وبحث واجتهاد ، ثم وضع هذا الرأي وهذا الاجتهاد في قالب حديث

ولنعد الآن الى القاء نظرة عامة على تاريخ التشريع في ذلك العصر في عهد الخلفاء الراشدين كان مركز الخلافة في المدينة ، وكان فيها أكثر كبار الصحابة وأوسعهم علماً ، فلما تولى أبو بكر كانت تعرض عليه معضلات المسائل ليقتضى فيها ، وكان — كما رأيت — يستشير كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه أنه عين قاضياً في ناحية من النواحي ، وقد ذكروا أنه لما كثرت عليه شؤون الأمة عهد بالشؤون القضائية الى عمر

فلما تولى عمر وفتحت الفتوح عين القضاة في الامصار ، في مصر والشام والعراق ، وكان بجانب القاضى جملة من الصحابة والتابعين في كل مصر ، عرفوا عادات المصر الذى نزلوا به ونوع معيشتهم وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكان لهم علم بالقرآن وجملة صالحة من الحديث ، ورأى يحكمونه فيما ليس فيه نص ، فكان هؤلاء يُسْتَفْتَوْنَ فيما يعرض لهم فيفتون ، هؤلاء أصدروا فتاوى في أمور كثيرة عدت بعد تقاليد لكل مصر ، أو بعبارة أخرى سوابق قضائية تراعى اذا حدث مثلها ، وقد ذكرنا قبل أن أهل المدينة كانوا يتبعون أكثر ما يتبعون فتاوى عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، وأهل مكة فتاوى عبد الله بن عباس ، وأهل الكوفة فتاوى عبد الله بن مسعود ، وأهل مصر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص — هذه الفتاوى كانت تكثر بظهور أحداث لم يسبق صدور فتوى فيها واجتهاد العلماء في بيان حكمها

ولما جاءت الدولة الأموية نقلت مركز الخلافة الى دمشق الشام — وفي عهدها

ظهر أثر الامتزاج الذي كان بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة على النحو الذي
أبناه من قبل

وساعد على هذا الامتزاج أن المسلمين كانوا يحق في عصرهم الأول متسامحين
مع غيرهم أجمل تسامح ، وسيرة عمر بن الخطاب أصدق شاهد على ذلك ، وإنما
جاءت القسوة وسوء المعاملة بعد هذا العهد — فكان من أثر ذلك أن وضع تحت
أعين المسلمين أنواع من المدينيات المختلفة ، وأنواع من الديانات المختلفة ، وأنواع من
الانظمة المختلفة — كل هذه جملت الساميين وغير المسلمين يتساءلون ما حكم الاسلام
فيها؟ ما رأى الاسلام في هذه الجزئيات الكثيرة التي أنتجتها هذه المدينيات ،
ما الذي يرضاه الاسلام وما الذي لا يرضاه ، أيها يتفق مع قواعده الكافية وأبها
لا يتفق؟ فكان موقف الفقهاء أمام هذه المشاكل من أصعب المواقف وأشدّها
عناء ، وكانوا هم من جانبهم من أكثر الناس نشاطاً وتحملاً للعبء

يذهب بعض الباحثين من المستشرقين مثل « جولد زيهر » و « ساتلانا »
الى أن الفقه الاسلامي في هذا العصر تأثر كثيراً بالقانون الروماني ، وكان هذا الفقه
الروماني مصدراً من مصادره ، استمد منه بعض أحكامه ، قالوا كان في الشام مدارس
للقانون الروماني عند الفتح الاسلامي في قيسرية وفي بيروت ، وكان هناك محاكم
تسير في نظامها وأحكامها حسب القانون الروماني ، واستمرت هذه المحاكم في البلاد
بعد الاسلام زمناً — قالوا — وطبيعي أن قوماً لم يأخذوا من المدينة بحظ وافر اذا
فتحوها بلاداً ممدنة نظروا ما ذا يفعلون وبم يحكمون ثم اقتبسوا من أحكامهم ، —
وقالوا — ان المقارنة بين بعض أبواب الفقه وبعض أبواب القانون الروماني تقنعنا
بما نقول ، بل أن هناك قواعد نقلت من القانون الروماني بنصها مثل (البيئنة على
من ادعى واليمين على من أنكر) وأن كلمتي الفقه والفقهاء استعملتا وفقاً لمعنى الكلمة

المستعملة عند الرومان ، فهم يستعملون كلمة « juris » وهى تدل على الفهم والمعرفة والحكمة — وقالوا — ان الفقه الاسلامى أخذ عن القانون الرومانى اما مباشرة أو من طريق التلمود فان هذا التلمود أخذ كثيراً من القانون الرومانى ، واتصال المسلمين باليهود مكثهم من الأخذ ببعض أقوال التلمود الى آخر ما قالوا

ولسنا نرى أن الأدلة التى أتوا بها مقنعة، فتشابه بعض أحكام فى قانونين لا يجعلنا نقطع بأخذ أحدهما عن الآخر، سيما اذا روعى أن القوانين — الهبة أو وضعية — تراعى العدالة فى التقنين ، وهناك أمور واضحة العدالة يتفق فيها المشرعون كقاعدة البيئنة على من ادعى واليمين على من أنكر — وكلمة الفقه فى أصل اللغة العربية معناها العلم بالشيء والفهم له ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له ، كما غلب الشعر على ذلك الضرب المعروف من القول ، وفى هذا المعنى استعملها القرآن قبل امتزاج العرب بالرومان فقال « فَلَولاَ نَرِّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ » ثم غلبت على هذا النمط من العلم (علم التشريع) لأنه يتطلب فقهاً فى الدين ومعرفة بالكتب والسنة، وهذا شأن العرب فى أسماء العلوم على العموم، تكون الكلمات عامة ثم تُخصَّص — ولم نعر على أحد من الأئمة المشرعين أشاراية إشارة الى القانون الرومانى على سبيل النقد أو التأييد أو الاقتباس، وقد كان أولى الناس بالتأثر بالقانون الرومانى الأوزاعى ، فقد عاش فى بيروت، موطن أكبر مدرسة رومانية فى الشام ، وكان أكبر فقيه فيها ، وقد التفت بعض المستشرقين الى ذلك وقالوا — ان من دواعى الأسف أن مذهبه اندثر ولو عثرنا عليه لوجدنا فيه أثراً كبيراً للقانون الرومانى ، ويظهر لنا أنه قول غير وجيه ، فقد عثرتُ على جملة صالحة من مذهبه فى الجزء السابع من الأُم ، ودلتنى قراءتها على أن من الانصاف أن يعد الأوزاعى من مدرسة الحديث لامن مدرسة الرى، عكس ما يقول « جولد زيهير » ومدرسة الحديث أبعد مظنة من التأثر بالقانون الرومانى

ولسنا ننكر أن القانون الروماني أفاد من ناحية غير هذه ، أعنى ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشرعة الاسلامية ، فمن المحقق أن مصر والشام كانت تحكمها محاكم رومانية بالقانون الروماني ، فلما جاء الاسلام ودخل قوم من هؤلاء المحكومين فيه وخضع له غيرهم كان من الطبيعي أن يعرضوا تقاضيه القديم وآراء محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها وما لم يقر — هب اليوم أنه لداع من الدواعي غير القانون المصري ووضعت أسس أخرى لقوانين جديدة ، فما لا شك فيه أن المتقاضين ورجال القضاء ونحوهم ممن كانوا يتقاضون حسب القانون القديم يثيرون مسأله ويعرضون رأيه ويقارنون بين التعاليم القديمة والتعاليم الجديدة — خصوصاً اذا لاحظنا أن القضاة في صدر الاسلام كان لديهم الشيء الكثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الاسلام ، قرأت في ذيل كتاب قضاة مصر « أن خير بن نعيم (تولى قضاء مصر من ١٢٠ - ١٢٧) كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخطبهم بها ، وكذلك شهادة الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم »^(١)

في هذا العهد عهد الدولة الاموية لا نرى خلفاءهم يهتمون بشيء من شؤون التشريع الا قليلا منهم كعمر بن عبد العزيز ، فالتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كالذي كان في عهد الدولة العباسية ، انما رقى في المدارس وفي حلقات الدروس المستقلة عن خلفائهم ، ولم يبذل الأمويون محاولة في صوغ تشريعهم صبغة رسمية ، فلا نرى في الدولة الأموية مثل أبي يوسف في الدولة العباسية ، يحميه الخلفاء ، ويؤيدونه في التشريع ، ويوثقون الصلة بينه وبينهم ، وبينه وبين قضاة

(١) تاريخ قضاة مصر للسكندى — ذيل عليه ص ٣٤٩

الامصار ، ولا ترى من المشرعين من اتصل بالأمويين الا قليلا كالأزهري
وفي هذا العهد لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت، انما كان هناك أئمة كثيرون
يجتهدون كالأوزاعي ، اندثرت مذاهبهم ، وبدأ في آخر عهد الدولة الأموية
يظهر امامان من الأئمة الأربعة : الامام أبو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن
أنس في المدينة ، فالامام أبو حنيفة ولد سنة ٨٠ هـ في ولاية عبد الملك بن مروان ،
وعاش نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، وهو من أصل فارسي ، أخذ الفقه عن
جعفر الصادق من البيت العلوي ، وعن ابراهيم النخعي من أكبر فقهاء عصره ،
وسمع الحديث من الشعبي والاعمش وقتادة ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة
حجته وحسن منطقته ودقته في الاستنتاج ، ومن أجل ذلك عد أمام أهل الرأي ،
ولم يصل الينا شيء من تأليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً أنه دون مذهبه في كتاب ،
انما فعل ذلك تلميذاه من بعده أبو يوسف ومحمد

والامام مالك ولد سنة ٩٦ بالمدينة من أصل عربي ، وبها تعلم وعلم وألف ،
واشتهر بأنه حجة في الحديث ، وعد من أجل ذلك امام أهل الحديث ، ويمتاز
مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبي حنيفة ، ويحتج بعمل أهل المدينة
وتوفي سنة ١٧٩ ، وخلف لنا كتاب الموطأ ، وقد اشتهر أنه كتاب حديث ولكنه
في الحقيقة كتاب فقه وان ملأ حديثاً ، فلم يكن غرضه أن يجمع فيه الأحاديث
المعروفة في عهده ، والتي صححت عنده ، انما غرضه الاتيان بالتشريع مستدلاً عليه
بالحديث ، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه في بعض المسائل

ولا نظيل بذكر ما كان بينهم من خلاف في وجهة النظر واختلاف في
الأصول التي اعتمدوا عليها ، فذلك بالعصر العباسي أليق ، انما نذكر هنا ملاحظة
دقيقة لاحظها ابن خلدون عند تعليقه لانتشار مذهب مالك في المغرب والأندلس

قد قال « وأيضاً فالبدادة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا الى الحجاز أميل ، لمناسبة البدادة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصناً عندهم ، ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »^(١)

فهو يريد أن يقرر أن مدينة البلد الذي نشأ فيه الامام أو بدواته لها أثر خاص في تكوين مذهبه ، من كثرة فروع وقلتها ، بل يظهر أن لها كذلك أثراً في تكوين رأيه ، ولو استعرضنا بعض خلافات بين الفقهاء لوجدنا ذلك واضحاً ، فمن ذلك مثلاً أن أبا حنيفة يجوز أن يفتتح الصلاة بالفارسية بدل أن يقول الله أكبر بالعربية ، ولو كان قادراً على قولها بالعربية ، ويجوز أن يقرأ القرآن بالفارسية ، وخالفه في ذلك الامام مالك والشافعي^(٢) ومثل تجوز الامام أبي حنيفة أن تزوج المرأة الحرة المكلفة نفسها من غير ولي ، وقال مالك والشافعي لا يجوز الا بولي^(٣)

والظاهر أن هذا المنزاع أعنى تقدير الامام للظروف التي تحيط به وتأثيرها في آرائه إنما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاما اذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر في تكوين رأيه ، ودليلنا على ذلك مثلاً ما نرى من أن مذهب أبي حنيفة اعتبار الكفاءة في الزواج نسباً ، فقريش عنده أكفاء لبعض ، وليس سائر العرب أكفاء لقريش ، والموالي ليسوا بكفاء للعرب ، مع أن الامام مالكا يقول لا تعتبر الكفاءة الا في الدين ، لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام « الناس سواسية كأسنان المسط ، لا فضل لعربي على عجمي ، انما الفضل بالتقوى »^(٤) - ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان

(١) المقدمة ص ٣٧٥ (٢) الزيلعي جزء ١ ص ١٠٩

(٣) الزيلعي جزء ٢ ص ١١٧ (٤) الزيلعي جزء ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩

﴿ مصادر هذا الفصل ﴾

- المستصفي للفرزالي
مسلم الثبوت
صحيح البخاري ومسلم
مقدمة ابن خلدون .
المواقفات للشاطبي
تاريخ ولاية مصر وقضائها للسكندي
خطط المقرئزي
تفسير الطبري
العقد الفريد لابن عبد ربه
تيسير الوصول في جمع أحاديث الرسول
أسباب النزول للواحدي
التفسيرات الأحمدية في الآيات الفرعية
أعلام الموقعين لابن القيم والطرق الحكيمية له
شرح الزيلعي على متن الكنز
فتح القدير على الهداية
الأم للامام الشافعي
نصب الراية في تخریج أحاديث الهداية للزيلعي
وفيات الاعيان لابن خلكان
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون
تاريخ التفریع الاسلامی المرحوم الشيخ محمد الحضری
دائرة المعارف الاسلامیة فی مادة « فقه »

Abdurahim, Muhammadan jurisprudence

Macdonald, Muslim Pheology

Goldziher, Le Dogma et Le Loi de L'Islam,

الباب السابع

الفرق الدينية

كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكوّن حولها أهم الفرق الاسلامية في العصر الأول، وهي الخوارج والشيعة ثم المرجئة فلنستعرض باختصار تام مدارها فيها حتى نتبين كيف نشأت هذه الفرق ، تاركين تفصيل ذلك الى الجزء الخاص بالتاريخ السياسي من كتابنا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعين من يخلفه ، ولم يبين كيف يكون اختياره ، فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها ، وعلى طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم في الحياة السياسية أو فشلهم

شعر المسلمون من لحظة وفاته صلى الله عليه وسلم بضرورة التفكير فيمن يخلفه ، وأسرع الأنصار قبل دفنه الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة لينتوا في الأمر ، وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم خشية ألا ينظر الأنصار في الأمر الا من جانبهم ، وفي هذه السقيفة انقسموا الى رأيين: رأى يقول يجب أن يكون الخليفة من الأنصار ، وحجتهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لبث في قومه في مكة نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن منهم الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الأذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الأنصار وآمنوا به ، وأعزوا دينه ، ومنعوه وحجبه ممن أراد بهم سوءاً ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وبهم قرير عين ، فهم أولى الناس أن يخلفوه

وفريق آخر وهم المهاجرون يرون أن تكون الخلافة فيهم ، وحجتهم أنهم أول من آمن به ، وصبروا على الأذى ، ولم يستوحشوا لقلة عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش والعرب لا تدين الا لهم ، ولا تقر بعزة ومنعة غير عزتهم ومنعتهم ، فهم أولى بالخلافة من غيرهم — وبعد حوار طويل واقترح بعض الأنصار للتوفيق بين الرأيين أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، ورفض المهاجرين ذلك الاقتراح أيضا تمت البيعة في هذا المجلس لأبي بكر التيمي القرشي

لم يكن على حاضر هذا الاجتماع لاشغاله هو وأهل بيته في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ العدة لدفته ، فلما بلغه خبر البيعة لأبي بكر لم يرض عنها وتكون رأى ثالث وهو ان تكون الخلافة في بيت النبي ، وأقرب الناس اليه صلى الله عليه وسلم عمه العباس ابن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب ، ولكن العباس لم يكن من السابقين الى الاسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم الا آخرأ ، فأولى الناس من قرابة النبي علي بن أبي طالب وهو من أول الناس اسلامأ ، وزوج فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر — وحجة أصحاب هذا الرأي أن أقرب الناس الى النبي أولى أن يخلفوه ، وأن بيت بني هاشم خير من بيت أبي بكر ، فالعرب للاولين أطوع وأن المهاجرين احتجوا على الأنصار بأنهم قوم النبي وعشيرته فأل النبي وأقربهم اليهم أولى ، كما جاء في نهج البلاغة أن عليأ سأل عما حدث في سقيفة بني ساعدة فقال فماذا قالت قريش ؟ قالوا احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال علي « احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة » يريد أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبي ، فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبي أنهم من ثمرة قريش ، وهم قرابته ، — وسواء صح هذا القول عن علي أو لم يصح فهو تعبير صادق عما في نفسه ، دعا

إلى هذا الرأي على^١، وأيده بعض بني هاشم، وأيده الزبير بن العوام، وعطف عليه بعض الأنصار لما كان موقفهم وموقف على^٢ سواء في ضياع الأمر من أيديهم، ولم يبايع على^٣ أبابكر إلا بعد لأي

وظلت النظريات الثلاث تتعارض، ووجد في العصور المختلفة من يؤيدها ويدافع عنها، حتى النظرية الأولى - وهي نظرية الأنصار - فقد كان قوم يعتنقونها وإن لم يظهروا ظهوراً بيناً في التاريخ^(١) أما النظر يتان الاخيرتان فكان الحرب بينهما أحكم، والجدال أشد

لم تمت النظرية القائلة بأولوية على في عهد أبي بكر وعمر، ولكن سكنت وخذت، وساعد على خودها عدل أبي بكر وعمر، وانتصافهما حتى من أنفسهما، وأنها لم يعير العصبية القبلية أى التفتات، وزاد في سكونها اشتغال الناس بالحروب والفتوح، ونجاحهم، فلم يجد الناقون مجالاً يدخلون منه على الناس لاثارتهم الفتن ولما ولي عثمان تبرم على وأنصاره، وزادهم تبرماً أن عثمان - وهو أموى - استعان بالأمويين، فكان أكثر عماله منهم، وكان كاتبه وأمين سره مروان بن الحكم الأموى، ومروان هذا وشيعته هدموا كل ما بناه الاسلام من قبل، ودعمه أبو بكر وعمر، من محاربة العصبية القبلية، وبث الشعور بأن العرب وحدة، وحكموا كأمويين لا كعرب، فحرك ذلك ما كان كامناً من العداوة القديمة الجلهلية بين بني هاشم وبني أمية، وانتشرت الجمعيات السرية في آخر عهد عثمان تدعو الى خلعه وتولية غيره، ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو الى على، ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ (وكان من يهود اليمن فأسلم) فقد تنقل في البصرة

(١) أنظر شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة جزء ٢ ص ٦ ففيها قصيدة شاعر يؤيد الانصار وينصرهم على قريش

والكوفة والشام ومصر يقول « انه كان لكل نبي وصي ، وعلى وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه » - وكان من أكبر الذين ألبوا على عثمان حتى قتل

لما قتل عثمان بايع علياً كثير من المسلمين فتحقت بذلك نظرية القائلين بحق علي في الخلافة من يوم وفاة رسول الله ، وأيده كثير من كبار المهاجرين لانطباق نظريتهم عليه أيضاً ، وخرج علي على طلحة والزبير ومعاوية ، وكلهم يلصق بعلي تهمة أن له ضلعاً في قتل عثمان ، وعلى أقل تقدير أنه قعد عن نصرته وكان في استطاعته رد الناس عنه ، وكان من حجة بعضهم أنه - وقد بوع - يجب عليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ويقول كل من طلحة والزبير أنه أولى بالمطالبة بدم عثمان ، لأنه من الستة الذين انتخبهم عمر للشورى ، ومن السابقين الاولين للاسلام ، ويقول معاوية أنه أولى الناس رحماً بعثمان ، وأقوى أهل بيته على المطالبة بدمه

ووجدت في هذا الموقف طائفة من كبار الصحابة لم تباع علياً ولم تباع غيره ، ولم تشترك في شيء من الخلاف القائم ؛ وفضلت العزلة ، من أشهرهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة ، وسعد بن أبي وقاص ؛ وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام ، ومن قول سعد بن أبي وقاص في ذلك « أن رسول الله أمرني اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد ، فاذا تقطع أبيت منزلي فكنت فيه لأبرحه ، حتى تأتيني يد خاطية أومنية قاضية » فاما طلحة والزبير فقد انتهى أمرهما سريعاً بانهما وقتهما في وقعة الجمل ، وأما معاوية فكان أصعب منالا ، اذ كان لديه جند الشام المنظم الطامع وكان بين علي ومعاوية من وقعة صفين ما كان ، فلما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح ، وطلب التحكيم الى كتاب الله

هذه خلاصة تاريخية موجزة اضطررنا لذكرها لأن عليها تأسست ثلاث فرق من أكبر الفرق الاسلامية ، وهى الخوارج والشيعة والرجئة

الفصل الأول

الخوارج

لما كانت وقعة صفين بين على ومعاوية ، وطلب معاوية تحكيم كتاب الله اختلف أصحاب على اقبالون هذا التحكيم لأنهم يحاربون لأعلاء كلمة الله وقد دُعوا اليها ، أم لا يقبلون لأنها خدعة حربية ، لجأ اليها معاوية وصحبه لما أحسوا بالهزيمة ، وبعد جدال وتردد قبل على التحكيم ، واختار معاوية عمرو بن العاص ليتمه واختار أصحاب على أبا موسى الأشعري ، اذ ذاك ظهر قوم من جند على أكثرهم من قبيلة تميم ، نفروا من أن يحكم أحد في كتاب الله ، ورأوا أن التحكيم خطأ ، لأن حكم الله في الأمر واضح جلي ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من الحار بين أيهما الحق ، وليس يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلهم إنما حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق في جانبهم ، هذه المعاني المحتلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية « لا حكم الا لله » فسرت الجملة سير البرق الى من يعتنق هذا رأى ، وتجاوزتها الإنحاء ، وأصبحت شعار هذه الطائفة

طلبوا من على أن يقر على نفسه بالخطأ بل بالكفر ، لقبوله التحكيم ، ويرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا اليه وقتلوا معه ، فأبى على ، وكان

موقفه في منتهى الدقة ، فكيف يرجع عن اتفاق أمضاه ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ولورج لتفريق عنه أكثر أصحابه ، وكيف يقر على نفسه بالكفر ولم يشرك بالله شيئاً منذ آمن ، فضايقه بالاكثر من « لا حكم الا لله » فاذا خطب في المسجد قاطعوه بقولهم « لا حكم الا لله » فتجاوبت بها أنحاء المسجد ، وراه أحدهم فتلا « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أُشْرِكْتَ لَيَجْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » يُعرض به ، وزاد بعض الناس ميلا الى رأيهم فسل الحكيم في حكمهما ، وخيبة الآملين في أن التحكيم يحقن السماء ويعيد المسلمين الى الوئام ، حتى انضم اليهم بعض القراء من جيش على - فلما يئست هذه الجماعة من رجوع على الى رأيهم اجتمعوا في منزل أحدهم ، وخطب خطيبهم يقول « أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنبئون الى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق ، وإن من وضر ، فإنه من يُمنّ ويُصرّ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل ، والخلود في جناته ، فاخرجوا بنا - اخواننا - من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ، أو الى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع اللضلة » ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة تسمى « حروراء » وسما حينذاك بالحرورية نسبة الى هذه القرية ، وبالحكمة أي الذين يقولون لا حكم الا لله - وهما اسمان كثيراً ما يطلقان على الخوارج ، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه عبد الله ابن وهب الراسبي - واسم الخوارج جاء من أنهم خرجوا على علي وصحبه ، وان كان منهم من يشق اسم الخوارج من الخروج في سبيل الله أخذاً من قوله تعالى « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » وسما أيضاً « الشراة » أي الذين باعوا أنفسهم لله

من قوله تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » وقد حاربهم على في الوقعة الشهيرة بوقعة النهروان وهزمهم وقتل منهم كثيراً ، ولكنه لم يبدفهم ولم يبدفكرتهم . وزادت هذه الهزيمة في امعان الخوارج في كرهه على ، حتى دبوا له مكيدة قتله ، فقتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، وقد كان زوجاً لامرأة قُتِل كثير من أفراد أسرتها في وقعة النهروان

وظلت الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية يهددون بها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة ، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة ، وظل المهلب بن أبي صفرة يجالدهم ويعانى في قتالهم الشدائد والأهوال السنين الطوال ، مما لا محل لذكره هنا ^(١) غير أنا نشير الى أنهم كانوا فرعين : فرعاً بالعراق وما حولها ، وكان أهم مركز لهم « البطائح » بالقرب من البصرة ، وقد استولوا على كربة مان وولاية فارس وهددوا البصرة ، وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب ، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة وفرعاً بجزيرة العرب استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف ، ومن أشهر أمراءهم فيها أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك

ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين الا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طول عهد الدولة الأموية

ثم كانوا كذلك في الدولة العباسية ، ولكن لم يكن لهم من القوة ما كان لهم في عهد الامويين ، فقد ضعف شأنهم ، وانحط قوادهم **تعاليمهم** : ابتدأ الخوارج كلامهم في أمور تتعلق بالخلافة ، فقالوا بصحة

(١) قد ألف الاقدمون كثيراً من الكتب في أخبار الخوارج خاصة كالدائى ولكنها لم تصل الينا وقد جمع ابن أبي الحديد في الجزء الاول من شرح نهج البلاغة أخبارهم مطولة في موضعين من كتابه فارجع اليه

خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما ، و بصحة خلافة عثمان في سنيه الأولى ، فلما
غيرو بدل ، ولم يسر سيرة أبي بكر وعمر ، وأتى بما أتى من احداث وجب عزله ،
وأقروا بصحة خلافة عليّ ، ولكنهم قالوا أنه أخطأ في التحكيم ، وحكموا بكفره لما
حكّم ، وطعنوا في أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ، — كما حكموا بكفر أبي
موسى الاشعري وعمرو بن العاص « وقد قبض على أحدهم وقدم الى زياد بن أبيه ،
فسأله زياد عن أبي بكر وعمر فقال فيهما خيرا ، وسأله عن عثمان فقال كنت أتوكلي
عثمان — على أحواله — في خلافته ست سنين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك ،
وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن أمير المؤمنين عليّ فقال أتولاه الى أن حكّم ، ثم
أتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسه سباً قبيحاً^(١) الخ
فترى من هذا أن كلامهم كان يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم والبحث
فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمناً ومن لا يكون
وقد وضعوا نظرية للخلافة وهي أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من
المسلمين ، واذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكّم ، وليس بضروري أن يكون
الخليفة قرشياً ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً ،
واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله ،
والا وجب عزله

ولهذا أمروا عليهم من اختاروه منهم ، وسموا عبد الله بن وهب الراسبي أمير
المؤمنين ، ولم يكن قرشياً وإنما هو من «راسب» حى من الأسد ، وكذلك أمراؤهم
من بعده . — وقد خالفوا بهذا نظرية الشيعة القائلة بأنحصار الخلافة في بيت النبي
عليّ وآله ، وأهل السنة القائلين بأن الخلافة في قريش — وهذه النظرية هي التي

دعتهم الى الخروج على خلفاء بنى أمية ثم العباسيين لاعتقادهم أنهم جأرون غير عادلين ، لم تنطبق عليه شروط الخلافة في نظرهم
نرى الخوارج في أول أمرهم كانت صبغتهم سياسية محضة ، ثم نراهم في عهد عبد الملك بن مروان قد مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية ، وأكبر من كان له أثر في ذلك الازارقة ، اتباع نافع بن الأزرق ، وأهم ما قرره الخوارج في ذلك أن العمل بأوامر الدين — من صلاة وصيام وصدق وعدل — جزء من الايمان وليس الايمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر

والخوارج لم يكونوا وحدة ، ولم يكونوا كتلة واحدة ، انما كان واضحا فيهم الطبيعة العربية البدوية ، فسرعان ما يختلفون ، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضهم بعضاً ، ولو اتحدوا لكانوا قوة في منتهى الخطورة على الدولة الأموية — لذلك لا نستطيع أن نذكر ما هو من تعاليمهم مشترك بين جميعهم الا النظريتين السابقتين ، نظرية الخلافة ، ونظرية أن العمل جزء من الايمان ، حتى هاتان النظريتان ليستا من اعتقاد جميعهم الا بقليل من التسامح ، فمنهم من يرى أن لا حاجة للامة الى امام . وانما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ، ويظهر أن هذه الفكرة هي التي كان يفهمها بعضهم من جملتهم المشهورة « لا حكم الا لله » بدليل ما روى أن علي بن أبي طالب لما سمعهم يقولون « لا حكم الا لله » قال « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم أنه لا حكم الا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة الا لله — وإنه لا بد للناس من أمير برأو فاجر ، يعمل في أمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمعُ به النفي ، ويقاقلُ به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح برٌّ ، ويستراح من فاجر »

وقد قال ابن أبي الحديد « أن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك ، ويذهبون الى أنه لا حاجة الى الامام ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي » (١)

على كل حال قد اتفق جمهور الخوارج على النظريتين السابقتين وتفرقوا الى فرق بلغت في العدد نحو العشرين ، كل فرقة تتخالف الأخرى في بعض تعاليمها ولا يسع هذا المختصر ذكر جميعها (٢) غير أننا نذكر هنا أن من أشهر فرقهم الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق ، وكان من أكبر قهاتهم ، وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم وقال أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبدة الاوثان لا يقبل منهم الا الاسلام والسيف ، ودارهم دار حرب ، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم ، ولا تحل التقية (٣) لان الله يقول « إِذْ أَفْرَقَ مِنْهُمْ يُحْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » واستحل الغدر بن خلفه ، وكفر القعدة أى الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه ، ولو كان هؤلاء القعدة على مذهبهم

ومن فرقهم النجدات ، اتباع نجدة بن عامر وأهم تعاليمه التى انفرد بها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالناس معذرون بجهله الى أن تقوم عليهم الحجة ، ومن أداه اجتهاده الى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، وعظم جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر .

(١) جزء ١ ص ٢١٥ (٢) ارجع الى ذلك فى الملل والنحل للشهرستانى والمفصلات الاسلامية للاشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى

(٣) أنظر معناها عند الكلام على الشيعة

ولنافع مع نجدة بن عامر مناقشات طويلة ممتعة حول هذه المبادئ* (١)
كذلك من أشهر فرقهم « الأباضية » نسبة الى رئيسهم عبد الله بن أباض التيمي
ولا يزال أتباعه في المغرب الى اليوم ، وهم لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالأزارقة،
بل قالوا يحل التزوج منهم ، ويتوارث الخارجى وغيره ، ونزعتهم أميل الى المسالمة،
فقالوا لا يحل قتال غير الخوارج وسيهم في السر غيلةً ، ولا يجوز قتالهم الا بعد
الدعوة واقامة الحججة واعلان القتال الخ وقد ظهر عبد الله بن أباض في النصف الثانى
من القرن الأول للهجرة وعاش اتباعه في أكثر أحوالهم مسالمين للخليفة
وفرقه أخرى من فرقهم « الصفرية » اتباع زياد بن الأصفر وهم لا يختلفون
كثيراً في تعاليمهم عن الأزارقة

وهذه الفرق الأربع الأزارقة والنجدات والاباضية والصفريه هى أشهر فرق
الخوارج وأكثرها دورانا في الكتب

والخوارج يقولون أن ممن اعتنق مذهبهم عكرمة مولى ابن عباس ومالك بن
أنس الصحابى - وكان الحسن البصرى يوافق الخوارج في رأيهم بأن عليا أخطأ في
التحكيم ولكن لا يعتنق مذهبهم « وكان اذا جلس فتمكن في مجلسه ذكر عثمان
فترحم عليه ثلاثا ، ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول لو لم نلعنهم لُعننا ، ثم يذكر عليا
فيقول لم يزل أمير المؤمنين على رحمة الله يتعرف النصر ويساعده الظفر حتى حَكَّم،
فَلِمَ تحكَّم والحق معك؟ ألا تمضى قُدُما - لا أبالك - وأنت على الحق؟ » (٢)
وكان مما حاربهم به المهلب بن أبي صفرة اختلاق الأحاديث عليهم ، فقد
كان يضع الحديث ليشد به أزر قومه ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ،

(١) اقرأها في الجزء الثانى من الكامل للبردد و ٣٨٢ من الجزء الأول من ابن أبى الحديد

(٢) الكامل جزء ٢ ص ١٣٦

ويقول أن الحرب خدعة ، وكان حتى من الأزدي إذا رأوا المهلب خارجا قالوا

« راح يكذب » وفيه يقول رجل منهم

أنت الفقى كل الفقى لو كنت تصدق ما تقول^(١)

ولعل هذا وأمثاله هو السرفما ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب

التاريخ والأدب في ذم الخوارج

كان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا ، وقد انضم اليهم بعض
الموالى اعجابا برأيهم الديمقراطي في الخلافة ، فليس بضرورى أن يكون من قریش
ولا من العرب ، فهم في نظرهم الى الخلافة شعوبيون ولكن مع هذا لم ينضم اليهم
من الموالى إلا قليل ، لأهم وأكثرهم بدو شديدو العصبية لجنسهم ، يحتقرون
الموالى ويزدرونهم ، روى ابن أبي الحديد أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية
فقالوا لها « فضحتنا » ، ولولا هذه العصبية العربية الجافة لتبهم من الموالى كثير

والناظر في تاريخهم يتبين فيهم مميزات واضحة أهمها

١ - التشدد في العبادة والانهماك فيها ، يصفهم الشهرستاني بأنهم أهل صوم

وصلاة ، ويصفهم المبرد « بأنهم في جميع أصنافهم يبرءون من الكاذب ، ومن ذى

العصية الظاهرة » وقد قتل أحدهم زياد ، ثم دعا مولاه فاستوصفه أمره ، فقال

« ما أتيتك بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط »

ولما أرسل على عبد الله بن العباس لأهل النهروان من الخوارج « رأى منهم

جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثفونات الأبل ، عليهم قمص مرصصة وهم

مشرون » ولعل خير ما قيل فيهم ما قاله أبو حمزة الخارجي في وصف أصحابه

(١) الحكاية في ابن أبي الحديد جزء ١ ص ٣٨٦

« شباب والله مكتهون في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينُهُم ، ثقيلة عن الباطل أرجلُهُم ، أنصَاءُ عبادة ، وأطلاح سَهْر ، فنظر الله اليهم في جوف الليل منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت ، والراح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قُدماً حتى اختلقت رجلاه على عنق فرسه ، وتخصبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله » وقد غلوا في أنظارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة - وأحياناً الصغيرة - كافراً ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها ، وتشدد كثير منهم في النظر إلى غيرهم من المسلمين فعدوهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم أشد من معاملة الكفار ، ويحكون أن واصل بن عطاء - رأس المعتزلة - وقع في أيديهم فادعى أنه (مشارك مستجير) ورأى أن هذا ينجيهِ أكثر مما تنجيهِ دعواه أنه مسلم مخالف لهم ، وكذلك كان ، واشتدوا في معاملة مخالفهم من المسلمين حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني بل لم يرضوا من مخالفهم أن يقولوا أن علياً أخطأ في التحكيم ، وعمان أخطأ فيما أحدث ، بل لا بد أن يقر بكفرهما وكفر من ناصرهما ، وطلبوا من عبدالله بن الزبير أن يتبرأ من أبيه ، ولم يكتفوا من عمر بن عبد العزيز بعدله وجمال سيرته بل طلبوا منه كذلك أن

يتبرأ مما تبرأوا هم منه، وأن يلعن أسلافه من بني أمية ، ولعل هذا التشدد واقدامهم على سفك دماء معارضينهم هو أكبر ماشوه حركتهم

٢ - أخلصوا لعقيدهتهم ، وقاتلوا دفاعاً عنها . ولهذا نظر اليهم كثير من

خيرة الناس نظرة عطف واشفاق ، فقد روى أن علي بن أبي طالب في آخر أيامه قال « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كن طلب الباطل

فأدركه » يريد أن الخوارج طلبوا الحق وحاموا عن عقيدة اعتقدوها وان أخطؤوا

فيها ، وأما معاوية فكان لا يطلب حقاً ، وإنما كان يطلب باطلا ويحامي عنه وقد أدركه ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج (انى قد علمت أنكم لم تخرجوا

مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها) وقد حملهم

شديد إيمانهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة الى مبادئهم جهراً ، ويرسلوا الرسل

الى خلفاء بني أمية يدعونهم ، ولم يرضوا بأى نوع من أنواع التضحية ، فتاريخهم

مماؤه بالشجاعة النادرة . يقول صاحب العقد الفريد « وليس فى الأفراق ^(١) كلها

أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن أنفساً على الموت ، منهم

الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى الى قاتله ويقول « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى »

— وأرسل معاوية رجلا الى ابنه من الخوارج ينصحه بالرجوع عن قتال معاوية

فأبى ، فأداره فصمّم ، فقال له أى بنى أجيئك باينك لعلك تراه فتحن اليه ، فقال

له يا أبت ! أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كموب الرمح أشوق منى الى

ابنى — وكان الخارجى يقاتل على السوط يؤخذ منه أشد قتال — وقال كعب

« أن فتك الحرورية يفضل فتك غيرهم بعشرة أبواب — وأرسل ابن زياد أسلم

ابن زُرعة فى ألفين لمحاربة فرقة من الخوارج فهزمه أبو بلال الخارجى فى أربعين

(١) جمع الجمل لفرقة

من أصحابه فقال له ابن زياد ويحك ، أتمضى في ألفين فتنهزم لحمة أر بعين ؟ فكان اذا خرج أسلم إلى السوق أو مر بصبيان صاحوا به أبو بلال ورائك — واشتركت نساء الخوارج في القتال مع رجالهم ، فقد حدثنا الرواة عن كثير من نساء أبلين في القتال خير بلاء ، كالذى روى أبو الفرج في الأغاني أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها ام حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجسام وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكا ، وخطبها جماعة من الخوارج فردتهم ولم تجيبهم ، فأخبر من شهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَمِئَتْ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَأْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا قَتَى يَحْمَلُ عَنِ ثِقَلِهِ

هذه الصفات أعنى الشدة في الدين والاخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف إليها العربية الخالصة هي التي جعلت للخوارج أدباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً ، تخير اللفظ ، وقوة في السبك ، وفصاحة في الأسلوب ، لحن عبيد الله بن زياد في حبس الخوارج وقتلهم فكلم فيهم فأبى وقال أقمعُ النفاق قبل أن ينجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى البراع — وأتى عبد الملك بن مروان برجل منهم فدعاه عبد الملك إلى الرجوع عن مذهبه ، ثم زاد في الاستدعاء ، فقال له الخارجى لِتَغْنِيكَ الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال له قل فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة ، فقال عبد الملك « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة وقرر في قلبى من الحق » واشتهر منهم مصانع الخطباء كأبى حمزة وقطري بن الفجاءة وفحول الشعراء كعمران بن حطان والطير ماسح ، ومن أشهر علمائهم باللغة والأدب

أبو عبيدة معمر بن المثنى، وهو من أوسع أهل البصرة علماً باللغة والأدب والنحو
واخبار العرب وأيامها. ومن أكثر المؤلفين في صدر الدولة العباسية فقد روى له نحو
من مائتي مصنف، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالي الذين اعتنقوا مذهب
الخوارج فهو من أصل يهودى فارسى، وكان يكره العرب ويؤلف في مثالبها -
وليس هنا موضع عرض أدب الخوارج والمختار من شعرهم ونثرهم وميزتهم في
الأدب عن عداهم فموضع ذلك الجزء الخاص بالحياة الأدبية من كتابنا ان شاء الله

الفصل الثاني

الشيعة

كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العباس عم النبي وعلى بن
عمه، وعلى أولى من العباس، لما بينا من قبل والعباس نفسه لم ينازع علياً في
ألوليته للخلافة، وإن نازعه في أوليته في الميراث في «فدك»^(١)

وظهرت فكرة الدعوة لعلى بسببته كما يدل عليه التاريخ، وتتلخص في أن
لا نص على الخليفة، فترك الأمر لأعمال الرأي، فالأنصار أدام رأيهم الى أنهم أولى
بها، والمهاجرون كذلك، وأصحاب على الى أن الخلافة ميراث أدبى، ولو كان النبي
يورث في ماله لكان أولى به قرابته، فكذلك الارث الأدبى - ولم يرد من طريق

(١) نعم ان الراوندية نصوا على أن الخلافة من حق العباس وأولاده ولكن هذا القول
لم يظهر في أيام العباس وإنما ظهر في أيام المنصور والمهدى

صحيح أن علياً ذكر نصاً — من آية أو حديث — يفيد أن رسول الله عينه للخلافة ولو كان لديه نص وذكره لما بقي الأنصار والمهاجرون على رأيهم ولبايعوه ، بل ما بين أيدينا من تاريخ يدل أن علياً بايع أبا بكر ، وإن كان بعد تلكو ، كما بايع عمرَ وعثمان من بعده ، وكل ما صح عن علي أنه كان يرى أنه كان أولى بالأمر منهم ، ويحتج بأنه وأهل بيته الثمرة وقريش الشجرة ، والثمرة خير ما في الشجرة ، ويروى البخارى عن ابن عباس أن علياً رضى الله عنه خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه الذى توفى فيه فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟ فقال أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال أنت والله بعد ثلاثِ عبدُ العصا ، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى من وجهه هذا ، إني لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فأذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فإن كان فينا علمناه ، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال على رضى الله عنه اما والله لئن سألتها فمُنِعَناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لا أسألهما .

وكان جمع من الصحابة يرى أن علياً أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي عمّاراً وأبا ذر وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله والعباس وبنيه وأبى بن كعب وحذيفة الى كثير غيرهم وزى بعد هذا العصر أن الفكرة تطورت فقال شيعة على (١) « أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوّض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لئب اغفالها ، ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وأن علياً

(١) شيعة الرجل أصحابه وأتباعه

رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة»^(١)

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب على بالوصى ، يريدون أن النبي أوصى لعلى بالخلافة من بعده ، فكان وصى رسول الله ، فعلى ليس الامام بطريق الانتخاب بل بطريق النص من رسول الله ، وعلى أوصى لمن بعده ، وهكذا كل امام وصى من قبله ، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها ، يروون أن أبا الهيثم وكان بدرى يقول

كنا شعَارَ نبينا وِدِّ ناره يَفديه منا الروح والأبصار
إِنَّ الوصى امامنا وولينا بِرِحِ الخَفَاءِ وباحت الأسرار
ويروون أن غلاماً خرج من جيش عائشة فى وقعة الجمل وهو يقول
نحن بنو ضبة أعداء على ذلك الذى يُعرف قَدِّمًا بالوصى
وفارس الخيل على عهد النبي ما أنا عن فضل على بالمسى
لكننى أنعى ابن عفان التقي ان الوليُّ طالبُ نارِ الولي

وقد سقنا هذا ليسان أن كلمة الوصى شاعت فى اطلاقها على على وان كنا

نشك فى نسبة هذه الأبيات الى قائلها

وقد أدّاهم هذا النظر الى أمور ، منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم الا ما كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر ، ولأقص عليك مثلا مما يقوله ابن أبى الحديد فى على مع أنه يعد من معتدلى الشيعة ، قال « يقول أصحابنا - وهم قدسكوا

(١) مقدمة ابن خلدون

طريقة مقتصدة - أن علياً أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلام منزلة في الجنة ، وأفضل الخلق في الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاذه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو لله سبحانه وتعالى وخالد في النار مع الكفار والمنافقين ، إلا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على تولى وجهه ، فاما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولو الامامة قبله فلو أنه أنكر امامتهم وغضب عليهم فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو الى نفسه لقلنا أنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت أن رسول الله قال له (لعلي) حربك حربى ، وسلمك سلمى ، وأنه قال اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وقال له لا يجبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق ، ولكننا رأينا رضى امامتهم وبايعهم وصلى خلفهم . . فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برى من معاوية برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم الارتبة النبوة ، وأعطيناها كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم هو عليه السلام « (١)

ودعاهم القول بأفضلية على وعصمته الى استعراض ما حدث من الصحابة في بيعة ابى بكر وعمر وعثمان ، وكان من هؤلاء الشيعة الغالى والمقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبابكر وعمر وعثمان ومن شايعهم اخطأوا ، اذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على وأنه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم وكفر من شايعهم لأنهم - وقد أوصى النبي لعلي - جحدوا الوصية ، ومنعوا الخلافة

(١) شرح نهج البلاغة جزء ٤ ص ٥٢٠

مستحقها - وأحسدروا من ذلك الى شرح حوادث التاريخ على وفق مذهبهم ،
 وتأويل الوقائع تأويلا غريباً ، أسوق لك مثلاً منه « فترجم الشيعة أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم كان يعلم موته ، وأنه سيرّ أبا بكر وعمر في بعث أسامة لتخلو دار
 الهجرة منهما ، فيصفو الأمر لعلّي عليه السلام ، ويبايعه من تخلف من المسلمين
 بالمدينة على سكون وطمانينة ، فاذا جاءها الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وبيعة الناس لعلّي بعده كانا عن المنازعة والخلافة أبعد . . . فلم يتم ما قدّر ،
 وتناقل اسامة بالجيش أياماً مع شدة حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تفوذه» (١)
 ولم يكتف غلاة الشيعة بهذا القدر في عليّ ، ولم يقنعوا بأنه أفضل الخلق بعد
 النبي ، وأنه معصوم ، بل ألّهوه ، فمنهم من قال « حلّ في عليّ جزء الهى ، واتحد
 بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ، اذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان
 يحارب الكفار وله النصر والظفر ، وبه قلع باب خير ، وعن هذا قال والله
 ما قلعت باب خير بقوة جسديّ ، ولا بحركة غذائيّة ، ولكن قلعته بقوة
 ملكوتيّة . . . قالوا وربما يظهر عليّ في بعض الأزمان . . . والرعد صوت الهى والبرق
 تبسمه . . . الخ» (٢) وهؤلاء الذين ألّهوه ذهبوا في تأليهه جملة مذاهب ، وقالوا
 فيه أقوالاً غريبة لا داعى للاطالة بذكرها - وقد ذكروا أن أول من دعا الى تأليه
 عليّ عبد الله بن سبأ اليهودى (٣) وكان ذلك في حياة عليّ ، وقد رأيت قبل طوقاً
 من سيرة ابن سبأ هذا ، فهو الذى حرك أبا ذر الغفارى للدعوة الاشتراكية ، وهو
 الذى كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان ، والآن الله علينا ، والذى يؤخذ
 من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألّف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ

(١) شرح نهج البلاغة جزء ١ ص ٥٤ (٢) الشهرستاني جزء ١ ص ٢٠٤
 (٣) يذهب بعض الباحثين الى أن عبد الله بن سبأ رجل خرقا ليس له وجود تاريخي
 محقق ، ولسكان لم نر لهم من الأدلة ما يثبت مدعاهم

الاسلام ستاراً يستر به نيته ، نزل البصرة بعد أن أسلم ونشر فيها دعوته فطرده واليها ، ثم أتى الكوفة فأخرج منها ، ثم جاء مصر فالتف حوله ناس من أهلها ، وأشهر تعاليمه الوصاية والرجعة ، فأما الوصاية فقد أبناها قبل ، وكان قوله فيها أساس تأليب أهل مصر على عثمان بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة من عليّ بغير حق ، وأيد رأيه بما نسب الى عثمان من مثالب ، وأما الرجعة فقد بدأ قوله بأن محمداً يرجع ، وكان مما قاله « العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمداً يرجع » ثم نراه تحوّل — ولا ندرى لأى سبب — الى القول بأن علياً يرجع ، وقال ابن حزم أن ابن سبأ قال « لما قتل عليّ لو أتيتمونا بدماعه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » وفكرة الرجعة هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية ، فعندهم أن النبي « الياس » صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، ووجدت الفكرة في النصرانية أيضاً في عصورها الأولى ، وتطورت هذه الفكرة عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الأئمة ، وان الامام المختفي سيعود فيملأ الأرض عدلاً ، ومنها نبعت فكرة المهدي المنتظر

والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعا الى الاعتقاد بألوهية عليّ ، مع أن أحداً لم يقل بألوهية محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليّ نفسه يصرح بالاسلام وتبعيته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعملة في نظرنا أن شيعة عليّ رووا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشيء الكثير ، وقالوا أنه كان يعلم كل شيء سيكون ، ووضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة « اسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسى بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهلدى مائة وتضل مائة الا أنباتكم بناعقيا ، وقائدها وسائقها ومُنْاخ ركابها ، ومَحْط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلاً ، ومن يموت منهم موتاً الخ » ورووا له أنه أخبر بقتل الحسين ، وأخبر بكر بلاء ،

وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، وبنى أمية وملكهم ، وأخبر بينى بويه وأيام دولتهم ، وأخبر عبد الله بن عباس بانتقال الأمر الى أولاده « فانه لما ولد لعبد الله بن عباس ابنه عليّ أخرجته أبوه الى عليّ بن أبي طالب فأخذه وتقلّ في فيه وحنّكه بشمرة قد لاكها ودفعه اليه وقال خذ - اليك - أبا الأملك^(١) » هذه الأخبار وأمثالها انتشرت بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون أنه أخبر بما كان وما سيكون الى يوم الدين ، كل هذا اذا أنت ضممته الى أن أكثر شيعة عليّ كانوا في العراق ، وكانوا من عناصر متنوعة ، والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الغريبة ، وقد سادت فيهم من قبل تعاليم ماني ومزدك وابن ديسان ، كما رأيت من قبل ، ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة في حلول الله في بعض الناس - كل هذه الأمور جعلت منهم من يؤله علياً ، فأما العرب فكانوا أبعد الناس عن المقالات والمذاهب الدينية ، حياتهم البسيطة وعقليتهم التي على الفطرة تأتي عليهم أن يلصقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أوهية وهو الذي يكرر دائماً ما جاء في القرآن « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ » هذه العقيدة في عليّ تناقض فكرة الاسلام البسيطة الجميلة في وحدانية الله وتبرئته عن المادة ، ومن حسن الحظ أن ليست هذه المقالة في عليّ قول الشيعة جميعهم

ولا أكثرهم ، بل قول فرقة قليلة منهم هم الغلاة
أساس نظرية الشيعة - كما رأيت - الخليفة أو كما يسميه هم « الامام »
فعليّ هو الامام بعد محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله ، والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان - والامام في نظرهم ليس كما ينظر اليه أهل السنة ، فعند أهل السنة الخليفة أو الامام « نائب عن صاحب الشريعة

في حفظ الدين ، فهو يحمل الناس على العمل بما أمر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والادارية والحرية ، ولكن ليس لديه سلطة تشريعية ، الا تفسيراً لأمر أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص ، أما عند الشيعة فللامام معنى آخر هو أنه أكبر معلّم ، فالامام الأول قد ورث علوم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ

وهناك نوعان من العلم علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم هذين النوعين لعليّ ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره وأطلعته على اسرار الكون وخفايا الغيبات ، وكل امام ورث هذه الثروة العلمية لمن بعده ، وكل امام يعلم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الأسرار ، ولذلك كان الامام أكبر معلّم ، ولا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث الا اذا روى عن هؤلاء الأئمة

وهم مختلفون اختلافاً كبيراً في الأئمة وتسلسلها ، لانطيل بذكرها (١) . وأهم فرق الشيعة الزيدية والامامية : فالزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة وأقربها الى أهل السنة ، ولعل هذا راجع الى أن زيداً - امام الزيدية - تتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه كثيراً من تعاليمه ، فزيد يرى جواز امامة المفضل مع وجود الأفضل ، فقال كان عليّ بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر ، ولكن - مع هذا - امامة أبي بكر وعمر صحيحة ، ونظرهم الى الامام كذلك نظر معتدل ، فليست هناك امامة بالنص ، ولم ينزل وحى يعين الأئمة ، بل كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة يصح أن يكون اماماً ، فهو يشترط في الامام الخروج على الأمراء والسلاطين يطالب بالخلافة ، ولهذا كانت الامامية في نظرهم عملية ،

(١) انظرها في الملل والنحل للمهرستاني ومقدمة ابن خلدون

لا سلبية كما هي عند الأمامية تنتهي بالامام المختفي ، وهم لا يؤمنون بالخرفات التي ألصقت بالامام فجلت له جزءاً إلهياً ، وقد خرج زيد على هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي قتل وصلب سنة ١٢١ هـ وخرج بعده ابنه يحيى قتل كذلك سنة ١٢٥ هـ ولا يزال الزيدية في اليمن الى الآن

والامامية سموا كذلك لان أهم عقائدهم أسست حول الامام ، وقد قالوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم نص على خلافة عليّ وقد اغتصبها ابو بكر وعمر ، وتبرءوا منها ، وقد حوا في امامتهما ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءاً من الايمان ، والامامية فرق متعددة لا تنفق على أشخاص الأئمة

فن أشهر فرقهم^(١) «الأثنا عشرية» سموا كذلك لأنهم يسلون أممتهم الى اثني عشر اماماً ، وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم ، «والاسماعيلية» سميت كذلك لأنهم يققون بأئمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو لاء لبوا دوراً طويلاً في تاريخ الاسلام ، وأخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة الذي شرحناه قبل وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله اخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطوني ، ووضعوا لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدىء بانارة الشكوك في الاسلام كسؤالهم ما معنى رمى الجمار؟ وما العدو بين الصفا والمروة؟ وتنتهي بهدم الاسلام والتحلل من قيوده ، وأولوا كل ما فيه فقالوا ان الوحي ليس الا صفاء النفس ، وان الشعائر الدينية ليست الا للامة ، أما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها ، وان الأنبياء هم سؤاس العامة ، أما الخاصة فانبياءهم الفلاسفة^(٢) وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن ، فهو رموز لاشياء يعرفها العارفون ، انما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والحجاز ، وللقرآن ظاهر

(١) ترى هذه التعاليم وتدرجها ونصوصها في الجزء الاول من خطط القرزي

وباطن ، ويجب أن تحترق الحجب المادية حتى نصل الى أظهر ما يمكن من الروحانية ، ومن ثم سموا أيضاً-«الباطنية» ولا يسعنا هنا أن نذكر أهم تعاليمهم وكيف أخذت من الأفلاطونية الحديثة فان هذه الفرقة لم تظهر في عصرنا الذي نورخه انما ظهرت في الدولة العباسية ، وكان من آثار دعواتهم الدولة الفاطمية في المغرب ومنصر ، ولا يزال لهم بقايا الى اليوم في الشام والعجم والهند ، ورئيسهم الآن «أغا خان» الزعيم المشهور

والامامية على العموم - تقول بعودة امام منتظر وان اختلفوا - باختلاف طوائفهم - فيمن هو الامام المنتظر ، فرقة ينتظرون جعفر الصادق ، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وثالثة تنتظر محمد ابن الحنفية وتزعم انه حي لم يموت وأنه بجبل رضوى الى أن يأذن الله له بالخروج ، ومنهم كثير عزة وفي ذلك يقول :

ألا ان الأئمة من قریش	ولاه الحق أربعة سواه
علي والثلاثة من بنيهِ	هم الأسباط ليس بهم خفاه
فيسبط سبط إيمان وبرٍ	وسبط غيبته كركب بلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تقيب لا يرى فيهم زماناً	برضوى عنده غسل وماء

وكان السيد الحميري الشاعر الأموي المشهور يعتقد كذلك أن محمد بن الحنفية لم يموت وأنه في جبل رضوى ، بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاًختان تجريان بماء وغسل ويعود بعد الغيبة فيملا العالم عدلاً كما مليء جوراً - ولهم في ذلك سخافات يطول شرحها ، وأساس هذه العقيدة ما رأينا قبل من قول ابن سبأ بالرجعة ونقلها عن اليهودية ، وأن الشيعة فشلوا أول أمرهم في تكوين مملكة

ظاهرة على وجه الأرض وعذبوا وشردوا كل مشرد فخلقوا لهم أملاً من الامل المنتظر والمهدى ونحو ذلك

وقد اتفقت تعاليم الخوارج والشيعة على أن خلفاء بني أمية مغتصبون ظالمون ، فاشتركوا في مناهضتهم ، ولكن الخوارج كانوا ظاهرين في حروبهم غلبت عليهم الطبيعة البدوية في الصراحة ، فأكثرهم لا يقول بالتقية ، أما الشيعة فكانوا يحاربون جهراً إذا أمكن الجهر ، فإذا لم يستطيعوا فسرّاً ، وقال أكثرهم بالتقية^(١) فكانوا بهنا أشد على بني أمية ، وهم أدعى الى الخنث منكم ، فبشوا العيون والأرصاد على الشيعة واضطهدوهم اضطهاداً شديداً ، ففسدوا للحسن حتى طعن بخنجر في جنبه ولكن لم يمته ، وأوقعوا القتل في جيشه حتى وادعهم ، ثم قتلوا الحسين في وقعة كربلاء ، ثم تتبعوا أهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم على الظنّة ، وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه أو نهبوا ماله . أو هدموا داره ، واشتد بهم الأمر في أيام عبيد الله بن زياد قاتل الحسين «وأتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتلته ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق أو كافر

(١) يراد بالتقية المداراة ، كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالظاهر بقية أو عمل لا يعتقد بصحته ، فمن كان على دين أو مذهب ثم لم يستطع أن يظهر دينه أو مذهبه فيظاهر بغيره فذلك تقية ، وعد قوم منها مداراة الكفار والظلمة والتبسم في وجوههم وبحودك ، وقد اختلف فيها الشيعة والخوارج وأهل السنة ، فأكثر الشيعة يقول بها بل منهم من قال يجب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وحلوا بيعة على لابي بكر وعمر وعثمان على التقية ، وكان كثير من الشيعة يكتبون تشيعهم تقية ويعلمون سرّاً ، وأما أكثر الخوارج فقالوا أنت التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين ، بل منهم من كان يرى أنه لا يصح قطع الصلاة اذا جاء سارق ليسرق متاعه وهو يسلي ، أما أهل السنة فتوسطوا وقالوا إن من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده فان لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ووجب عليه أن يسعى في المزوج بدينه . . الخ الخ

أحب اليه من أن يقال له شيعة عليّ» حتى يروى أن رجلاً - يقال انه جدّ الأصمى - وقف للحجاج فقال له أيها الأمير، أن أهلي عقونى فسمونى علياً، وأنى فقير بئس وأنا الى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وولاه عملاً، ويقول المدائنى « أن زياد بن سمية كان يتتبع الشيعة فى الكوفة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام عليّ، فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية الى عماله فى جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة، وكتب اليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا بحالهم، وقربوهم وأكرمومهم، واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه، لىما كان يعثه اليهم معاوية من الصلات ... وقال إنه كتب الى عماله أن انظروا الى من قامت عليه البيعة أنه يحب علياً وأهل بيته فاحبوه من الديوان واسقطوا عطاءه وورقه» - والعباسيون كانوا أبلغ فى التنكيل بهم لأنهم أعرف بنفائهم، لما كانوا يعملون معهم فى عهد بنى أمية

هذه الاضطهادات كان من نتائجها احكام الشيعة للسرية ونظامها، فهم أقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء، وكمثال عملهم حتى يتمكنوا من عدوم - وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل ونحو ذلك، وكان من أثر هذا الاضطهاد أيضاً اصطبغ أدهم بالحزن العميق، والنوح والبكاء، وذكري المصائب والآلام

وقد حاربوا الأمويين بمثل ما حاربوا به فكما وضع الأمويون الحديث فى

فضائل الصحابة - عدا علياً والهاشميين - وخاصة عثمان ، وضع الشيعة أحاديث كثيرة في فضائل عليّ وفي المهدي المنتظر ، وعلى الجلبة فيما يؤيد مذهبهم ، وربما فاقوا في ذلك الأمويين ، فاشتغل بعض علمائهم بعلم الحديث وسمعوا الثقات ، وحفظوا الأسانيد الصحيحة ، ثم وضعوا بهذه الأسانيد أحاديث تتفق ومذهبهم ، وأضلوا بهذه الأحاديث كثيراً من العلماء لانخداعهم بالاسناد ، بل كان منهم من سُمي بالسُدى ومنهم من سمي بابن قتيبة فكانوا يروون عن السدى وابن قتيبة فيظن أهل السنة أنهما المحدثان الشهيران مع أن كلا من السدى وابن قتيبة الذي ينقل عنه الشيعة إنما هو رافضى غال ، وقد ميزوا بينهما بالسدى الكبير والسدى الصغير والأول ثقة والثاني شيعى وضاع ، وكذلك ابن قتيبة الشيعى غير عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ونسبوا لأئمة أهل السنة ككتاب « سر العارفين » الذى نسبوه للغزالي ، ومن هذا القبيل ما نراه مشهوراً في الكتب من اسناد كل فضل وكل علم الى عليّ بن أبى طالب إما مباشرة وإما بواسطة ذريته ، فعلم المعتزلة جاء من أن واصل بن عطاء - رأس المعتزلة - تلقى العلم عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذ عليّ ، وأبو حنيفة أخذ العلم عن جعفر الصادق ، ومالك بن أنس قرأ على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على عكرمة وعكرمة على عبد الله بن عباس وعبد الله قرأ على عليّ ، وبهذه الطريقة ينسب فقه الشافعى الى الامام عليّ لأنه تلميذ مالك ، بل فقه عمر بن الخطاب يرجع الى عليّ لأنه كان يرجع اليه فيما أشكل من المسائل وكان يقول لولا عليّ لهلك عمر - وتفسير القرآن أخذ أكثره عن عبد الله بن عباس وهو أخذه عن عليّ ، فقد قيل لابن عباس أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط - والتصوف منسوب اليه وقد نسب اليه الشبلى والجنيد

وسرى وأبو يزيد البسطامي، وينسبون الخرقة التي هي شعارهم اليه - وأبو الاسود
الدؤلي واضع علم النحو أخذه عن علي بن ابي طالب ، فقد أملى عليه الكلام
كله ثلاثة أشياء اسم وفعل وحرف ، وعلمه تفسير الاسم الى معرفة ونكرة وتقسيم
الاعراب الى الرفع والنصب والجر والجزم - وعلى الجملة فليس هناك من علم الا
وأصله علي بن ابي طالب ، كأن العقول كلها أجدبت وأصيبت بالعمى الآ على بن
أبي طالب وذريته ، وعلى رضي الله عنه من ذلك براء .

والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ،
ومن كان يريد ادخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ، ومن
كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كالذي كان في المغرب قبل انتقال
الفاطميين الى مصر - كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون
وراءه كل ماشاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقال
الشيعة أن النار محرمة على الشيعة الا قليلا ، كما قال اليهود لن تمسنا النار الا أياماً
معدودات ، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم أن نسبة الامام الى الله
كنسبة المسيح اليه ، وقالوا أن اللاهوت متحد بالناسوت في الأمام ، وأن النبوة
والرسالة لا تنقطع أبداً فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي . وتحت التشيع ظهر القول
بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة
عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام ، وتستر بعض الفرس بالتشيع
وحاربوا الدولة الاموية ، وما في نفوسهم الا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم
قال المقرئ « واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام
أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها
بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً

لهم ، فلما امتحنوا بزوال السولة عنهم على أيدي العرب ، وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاضمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالحاربة في أوقات شتى وفي كل ذلك يظهر الله الحق ... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم على^(١) ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى »

وقد ذهب الاستاذ وطوسن Wellhausen الى أن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية ، مستدلاً بأن مؤسسها عبد الله بن سبا وهو يهودى ، ويميل الاستاذ دوزى Dozy الى « أن أساسها فارسي ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة في البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لاتنخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً فأولى الناس بعده ابن عمه علي بن أبي طالب ، فمن أخذ الخلافة منه كأبي بكر وعمر وعثمان والامويين فقد اغتصبها من مستحتها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا الى الملك نظرة فيها معنى إلهي ، فنظروا هذا النظر نفسه الى علي^(٢) وذريته وقالوا أن طاعة الامام أول واجب وأن اطاعته اطاعة الله »

والذي أرى — كما يدلنا التاريخ أن التشيع لم ي بدأ قبل دخول الفرس في الاسلام ، ولكن بمعنى ساذج وهو أن علياً أولى من غيره من وجهتين : كفايته الشخصية وقربته للنبي ، ، والعرب من قديم تفخر بالرياسة وبيت الرياسة ، وهذا الحزب كما رأينا وجد من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبما يمرور الزمان والمطاعن في عثمان ، ولكن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الاسلام من يهودية نصرانية ومجوسية ، وأن كل قوم من هؤلاء كانوا يصغون التشيع بصبغة دينهم ، فاليهودية تصنع الشيعة يهودية ، والنصرانية نصرانية وهكذا ، وإذ

(١) جزء ١ ص ٣٦٢ مختصر ١

كان أكبر عنصر دخل في الاسلام هو العنصر الفارسي كان أكبر الأثر في التشيع
انما هو للفرس

ومن أشهر الادباء والشعراء المتشيعين في هذا العصر أبو الأسود الدؤلي وفي عليّ
وبنيه يقول

يَقُولُ الْأَرْذَلُونَ بَنُو قَشِيرٍ طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيًّا؟
بَنُو عَمِ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْوُ إِلَيَّا
أَحِبُّهُمْوُ كَحَبِّ اللَّهِ حَتَّىٰ أَحِبُّهُ إِذَا بُعِثْتُ عَلَيَّ هَوِيًّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِيبُهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيًّا

وكذلك كان كثير عزة وقد قرأت قبل شعره في الرّجعة، والكُمَيْت وكان

شيعياً غالباً ومن شعره في الخلافة

يَقُولُونَ لِمَ يُورَثُ وَلَوْلَا تَرَاهُ لَقَد شَرَكْتُ فِيهِ بِجِيلٍ وَأَرْحَبُ (١)
وَلَا نَنْشَلَتْ عَضُوبٍ مِنْهَا يَحَابِرُ وَكَانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ عَضُو مَوْرَبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيِّ سِوَاهُمُ إِذَا فَذَوُ الْقَرَبِيِّ أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
فِيَا لَكَ أَمْرًا قَدْ أُشِنَّتْ جُمُوعُهُ وَذَارًا تَرَى أَسْبَابَهَا تَنْقَضُ
تَبَدَّلَتْ الْأَشْرَارَ بَعْدَ خِيَارِهَا وَجُدَّهَا مِنْ أُمَّةٍ وَهِيَ تَلْعَبُ

(١) بجيل وأرحب قبيلتان

الفصل الثالث

المرجئة

رأينا قبل أن الشيعة والخوارج كان أول أمرها حز بين سياسيين تكونا حول الخلافة ، وأن رأى الخوارج فيها رأى ديمقراطي ، ورأى الشيعة رأى ثيوقراطي ، أما المرجئة فكانت كذلك أول أمرها ، أعنى حزبا سياسياً محايداً له رأى فيما شجر بين المسلمين من خلاف ، يروى ابن عساکر في توضيح رأيهم « أنهم هم الشكك الذين شكوا وكانوا في المغازی ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمرکم واحد ، ليس بينكم اختلاف وقد مننا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كانت عليّ أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة ، وعندنا مصدق . فنحن لا نتبرأ منها ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجى أمرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما »

فبرى من هذا أنه حزب سياسي لا يريد أن يغمس يده في الفتن ، ولا يريق دماء حزب ، بل ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب آخر ، وأن السبب المباشر في تكوينه هو اختلاف الأحزاب في الرأي ، والسبب البعيد هو الخلافة ، فلولا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة واذن لا يكون مرجئة

وكلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخر ، سمو المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء ، وبعضهم يشتق اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لأنهم كانوا

يقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة فهم يؤمنون كل مؤمن
عاص — والأول أنسب لما حكينا عن ابن عساكر --

نشأت المرجئة لما رأت خوارج يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم ، ورأت
من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم ، وكلاهما يكفر الامويين
ويلعنهم ، والامويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطون ، وكل طائفة تدعى أنها
على الحق ، وأنها وحدها على الحق ، وأن من عداها كافر وفي ضلال مبين فظهرت
المرجئة تسالم الجميع ، ولا تكفر طائفة منهم ، وتقول أن الفرق الثلاث : الخوارج
والشيعة والامويين — مؤمنون ، وبعضهم مخطيء ، وبعضهم مصيب ، ولسنا نستطيع
أن نعين المصيب ، فلنترك أمرهم جميعاً الى الله ، ومن هؤلاء بنو أمية ، فهم يشهدون
أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين ، بل مسادين
نرجيء أمرهم الى الله الذي يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها ، وينتج من هذا
أن موقفهم أزاء حكم الأمويين موقف تأييد ، ولكنه تأييد سلبي لا ايجابي ، فليسوا
ينحازون اليهم ويحملون سيوفهم يقاتلون في جيوشهم ، ولكن هم أزاء الامويين
مثلهم أزاء الشيعة والخوارج ، وهم — على ما يظهر — يرون حكومة الامويين
حكومة شرعية — وكفى بذلك تأييداً —

ونواة هذه الطائفة كانت بين الصحابة في الصدر الاول ، فانا نرى أن جماعة
من أصحاب رسول الله امتنعوا أن يدخلوا في النزاع الذي كان في آخر عهد عثمان
مثل أبي بكر وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين ، وروى أبو بكر أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ستكون قتن ، القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها
خير من الساعى اليها ، ألا فاذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له ابل فليلحق بأبله ،
ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه ، قال فقال

رجل يارسول الله من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال يعيد الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج أن استطاع النجاء »

هذه النزعة الى عدم الدخول في الحروب التي بين المسلمين بعضهم وبعض هي الأساس الذي بنى عليه مذهب الارزاء^(١) ولكنه لم يتكون كذهب — كما رأينا — الا بعد ظهور الخوارج والشيعة

و بعد أن كان مذهباً سياسياً أصبح بعدُ يبحث في أمور لاهوتية ، وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسي ، فأهم ما بحثوا فيه تحديد « الايمان » و « الكفر » والمؤمن والكافر وقد دعا الى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عدام والشيعة كذلك ، غلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً ، و غلت الشيعة فعدوا الاعتقاد بالامام ركناً أساسياً من أركان الايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية أن يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثير من المرجئة أن الايمان هو المعرفة بالله وبرسله ، فن عرف أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن ، وهذا رد من المرجئة على الخوارج الذين يقولون أن الايمان معرفة بالله وبرسله ، والايان بالفرائض ، والكف عن الكبائر ، فن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة ، كافرأ في نظر الخوارج ، ورد أيضاً على الشيعة الذين يعتقدون أن الايمان بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، بل غلا بعض المرجئة أكثر من ذلك فقالوا أن الايمان الاعتقاد بالقلب « وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الاسلام ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث في دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل

(١) يقول النووي على مسلم أن الفضايا (يريد قضايا الفتن التي كانت بين الصحابة) كانت مشتهية حتى أن جماعة من الصحابة تمهروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتبعنوا الصواب الخ

الايان عند الله عز وجل وليُّ الله عز وجل ، من أهل الجنة (١) « فترى من هذا أن هؤلاء لا يعدون إيماناً الا الاعتقاد القلبي بالله ورسله وليست الأعمال الظاهرة جزءاً من الايمان

ولهذا الكلام كله نتيجة تتفق ورأيهم السياسى ، فهم لا يحكمون بالكفر على الأمويين ولا على الخوارج والشيعة ، بل لا يجزئون بكفر الأخطل ونحوه من النصرارى واليهود لأن الايمان محله القلب ، وليس يطلع عليه الا الله وذلك يدعو الى مسألة الناس جميعاً

وقد لاحظ بعض المستشرقين أن الكلام على طائفة المرجئة وبدء تكونها وشرح عقائدها أحيط بشيء من الغموض ، وغلل ذلك بأن الدولة العباسية دمّرت هذه الطائفة وأماتت القول بهذه العقيدة لأنها تناصر الامويين الى حدّ ما ، وعلى كل حال فهذه الفرقة تدخلت بعد العصر الأموى فى الفرق الاخرى وذابت فيها ولم يعد لها وجود مستقل محسوس

وقد اشتهر من شعراء نبي أمية بالقول بالارجاء نَابِتُ قُطْنَةٌ وكان فى صحابة يزيد ابن المهلب يوليه أعمالاً من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته ، وله قصيدة فى الارجاء تعد وثيقة قيمة فى توضيح مذهبهم ، رواها أبو الفرج فى الأغاني ، منها

يَا هَيْدُ فَاسْتَمِعِي لِي إِنَّ سِيرَتَنَا	أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا
نُرْجِي الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشَبَّهَةً	وَتَصَدَّقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْعَدَا
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ	وَالْمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِي دِينِهِمْ قِدَدَا
وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بَالِغٌ أَحَدًا	مِنَ النَّاسِ شِرْكًا إِذَا مَا وَحَدُّوا الصَّمَدَا

لَا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِنَا
 مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ
 وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ
 كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ
 أَمَا عَلِيٌّ وَعُمَانُ فَأَنْهَمَا
 وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَعْبٌ وَقَدْ شَهِدَا
 يَجْرِي عَلَيْهِمَا وَعُمَانَا بِسَعِيهِمَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَحْضُرَانِ بِهِ
 سَفَكُ الدَّمِ ، طَرِيقًا وَاحِدًا جَدَدًا
 أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَى الْحِسَابَ غَدَا
 رَدُّ وَمَا يَقْضِي مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدًا
 وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيهَا قَالَ وَاجْتَهَدَا
 عَبْدَانِ لَمْ يُشْرَكَ بِاللَّهِ مِنْ عَبْدِ
 شَقَّ الْعَصَا وَبَيْنَ اللَّهِ مَا شَهِدَا
 وَلَسْتُ أَدْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
 وَكُلَّ عَبْدٍ سِيلَتِي اللَّهُ مُنْفَرِدَا

ونحن اذا حللنا قصيدته لنتبين منها معنى الارجاء وجدناه يقول أنه لا يحكم على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب ، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالايمان ، وأنه لا يسفك دم أحد من المسلمين الا دفاعا عن نفسه ، وأنه اذا اشتبهت الامور وكفرت كل طائفة أختها فيما فعلت أرجأنا أمرهم جميعا الى الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أما الجور اليين والعدا والواضح والأعمال الظاهرة فنصدر أحكامنا عليها في صراحة ، ونبين الخطأ فيها من الصواب ، وأن الخوارج أخطأوا اذ حكموا على عليّ وعثمان بالكفر ، فأنهما عبدان لله لم يشركا به منذ عرفاه ، ولكن كان بينهما شعب لم يخرج بهما عن الايمان ، فنترك أمرهما لله يقدر عملهما ويكافئ عليه .

الفصل الرابع

القدرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشرى على أن من أولى المسائل التي تعرض للعقل عند ما يبدأ التعمق في البحث مسألة الجبر والاختيار ، هل أرادتنا حرة تعمل ما تشاء وترتك ما تشاء ، وتشكل عملها كما تشاء ، أو أنا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، وأن أرادتنا معلولة بعلى فإذا حصلت العلة حصل المعلول لا محالة ؟ وهي مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعاً في العصور المختلفة ، تترصق في الاخلاق وفي القانون ، وفي فلسفة التاريخ ، وفي علم الكلام ، وفي الفلسفة على العموم — وقد نشأت الابحاث الدينية في هذا الموضوع لا نظر الانسان فرأى أنه — من ناحية — يشعر بأنه حر الارادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسؤولية تقتضى الحرية ، فلا معنى لأن يعذب ويثاب اذا كان كالريشة في مهب الريح لا بد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه — ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شىء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتماً أنه لا يستطيع أن يعمل الا على وفق ما علم الله ، فحار في ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار

وقد وردت آيات في القرآن قد تشعر بالجبر مثل « حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي
النَّارِ» «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» - وهناك آيات تشعر
بالاختيار وأن الانسان مسئول عن عمله «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»
«وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ،
ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ»
«وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجْعِدِ اللَّهُ غَفْرًا رَحِيمًا، وَمَنْ
يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» الى كثير من
أمثال هذه الآيات، ووردت أحاديث كثيرة ان صحت تدل على تعرضه عليه السلام
لمسألة القدر تصريحًا أو تلميحًا فمن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن
عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما
أخطأه لم يكن ليصيبه» وعن علي قال «كنا في جنازة ببيع الفرقد فأتانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمنا وقعدنا حوله وبیده مَحْضَرَةٌ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا
الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ،
فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَنْتَكِلُ عَلَيَّ كِتَابِنَا فَقَالَ أَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسِرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ. أَمَا
مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُصِيرُ إِلَى عَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ
فَيُصِيرُ إِلَى عَمَلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ قَرَأَ «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى»
فلما انتهى المسلمون من الفتح وهدؤوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة،
وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريان يون، وتكلم فيها
الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى. فظهر في الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة
معارضين في ذلك الفكرة الشائعة بأن الانسان مسير لا مخير، روى عن نافع قال

جاء رجل الى ابن عمر فقال أن فلانا يقرأ عليك السلام — لرجل من أهل الشام — فقال ابن عمر أنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام » ، وقد سمي هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وبعبارة أخرى أن الانسان له قدرة على أعماله « بالقدرية » وسماه بذلك خصومهم لحديث ورد « القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الأولون الذين يقولون بحرية الارادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الانسان من خير وشر ، وعلى كل حال فقد لصق الاسم بالطائفة الأولى وصار لقباً لها

وقد ذكروا أن من أسبق الناس قولاً بالقدر معبد الجهني وغيلان الدمشقي أما معبد فقد قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال « أنه تابعي صدوق لكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم في القدر ، قتله الحجاج صبراً لخروجه مع بن الأشعث » فترى من هذا أن قتله كان قتلاً سياسياً وان كان كثير يذكرون أنه قتله لزندقته ، وكان يجالس الحسن البصرى أولاً وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة وقال ابن نباتة في « سرح العيون » « قيل أن أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي » وأما غيلان الدمشقي فكان يسكن دمشق وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان « قال الأوزاعي قدم علينا غيلان القدرى في خلافة هشام بن عبد الملك فتكلم غيلان وكان رجلاً مفوهاً ، ثم أكثر الناس الوقعة فيه والسعاية بسبب رأيه في القدر وأحفظوا هشام بن عبد الملك عليه فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه »

وقد روى أن غيلان وقف يوماً على ربيعة (الرأى) فقال له أنت الذى تزعم أن الله يجب أن يعصى فقال له ربيعة أنت الذى تزعم أن الله يعصى قسراً ، وحكى

أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن غيلان وفلاناً نطقا في القدر فأرسل اليهما وقال ما الأمر الذي تنطقان به ؟ فقالا هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال وما قال الله ؟ قالوا قال « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا » ثم قال « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » ثم سكتا ، فقال عمر اقرأ فقرأ حتى بلغا « إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ، وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » الى آخر السورة قال عمر كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول ؟ — قال ابن مهاجر ثم بلغ عمر أنهما أسرفا فأرسل اليهما وهو مغضب ، فقام عمر وكنت خلفه قائما حتى دخلا عليه وأنا مستقبلهما فقال لهما ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله ابليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال فأومأت اليهما برأسي أن قولنا نعم والافوه الذبح ، فقالا نعم فقال أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها فألهمها أن يأكلا منها ؟ فأومأت اليهما برأسي فقالا نعم ، فأمر باخراجها وأمر بالكتاب الى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام فلما يلبثا الا يسيرا حتى مرض عمر ومات ولم يُفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل

فترى من هذا انتشار القول في القضاء والقدر في هذا العصر وشدة الجدل في هذا الأمر بين المتخصصين — وقد اختلف الباحثون في منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام ؟ فيذهب بعضهم الى أن العراق منبع ذلك ، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وهو يسكن البصرة ، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها ، ويؤيد ذلك مارواه ابن نباتة من أن منشأ القول في ذلك نصراني من العراق أسلم وأخذ عنه معبد وغيلان — ويذهب آخرون الى أن الحركة ظهرت في دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى في بيت الخلفاء كيجي الدمشقي .

وعلى كل حال فأنا ترى أن القول في القضاء والقدر سال سيله في العراق والشام في هذا العصر ومن العسير تعيين أسبقهما ، وقد قال ابن «تَيْمِيَّة» «ان أكثر الخوض في القدر كان بالبصرة والشام وبعضه في المدينة »

وعلى العكس من هؤلاء القَدَرِيَّة طائفةُ الجَبَرِيَّة وكان من أولهم جهم بن صفوان ، ولذلك تسمى هذه الفرقة الجهمية ، وكان يقول أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لا بد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجاد ، فكما يجرى الماء ويتحرك الهواء ويسقط الحجر فكذلك تصدر الأفعال عن الانسان ، يُصدرها الله فيه وتُنسب الى الانسان مجازاً كما تنسب الى الجادات ، فكما قال أثمرت الشجرة وجرى الماء وطلعت الشمس وأمطرت السماء وأنبئت الأرض كذلك يقال كتب محمد وقضى القاضي وأطاع فلان وعصى فلان ، كلها من نوع واحد على طريق المجاز — والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدّر لفلان فعل كذا وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية وقدر أن يعاقب

واشتهر بهذا القول جهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان ، من الموالى وأقام بالكوفة وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجندهم الى قوله ، ظهر مذهبه في ترمذ وكان كاتباً (وزيراً) للحارث بن سُرَيْج ، وقد خرج الحارث هذا على بنى أمية في خراسان واتبعه كثير من أهلها وكان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل الخير والفضل ، وقد هُزم الحارث واِسْرَ جهم بن صفوان فقتل ، ثم قتل الحارث سنة ١٢٨ هـ — ومن هذا ترى أن الجهم أيضاً قتل لأمر سياسي لا علاقة له بالدين

ولم يشتهر الجهم بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشيء آخر لا يقل عنه خطراً

وهو القول بنفى صفات الله ، ذلك أنه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام الخ . فنفي جهيم أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال أن ما ورد في القرآن مثل سمع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالخالق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك ، وقال لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى التشبيه ، وقال أن القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لفيه الصفات فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الاعلى التأويل ، وإنما خلقه الله ، وأنكر أن الله يرى يوم القيامة وقال « إن الجنة والنار يفتيان بعد دخول أهلها فيها ، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجهيمها ، اذ لا يتصور حركات لا تتناهى آخرأ كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولاً »

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ونشطوا للرد على الجهمية نشاطاً عظيماً ، ولعل أهم ما حملهم على الرد مسألان مسألة الجبر لأنها تدعو الى التعطيل ، وترك العمل ، والركون الى القدر ، ومسألة المغالاة في تأويل الآيات التي تنبت لله صفات ، وفي هذا التأويل خطر على القرآن وتفهم معانيه

ذابت القدرية والجهمية في غيرها من المذاهب ولم يعد لها وجود مستقل ، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة ، وكثيراً ما يسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية في قولهم « أن للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه — وأحياناً يلقب المعتزلة بالجهمية لأنهم وافقوا الجهمية في القدر لأن الجهمية كما علمت جبرية ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن ، وقولهم أن الله لا يرى ، وقد ألف البخارى والامام احمد كتابين في الرد على الجهمية وعنيتاً بهم المعتزلة ،

والمعتزلة يبرأون من هذين الاسمين ، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية ويقولون كما رأيت — أن مثبت القدر أولى بالاتساق اليه من نافية ، ويتبرأ بشر بن العتمر ، — أحد رؤساء المعتزلة — من الجهمية في أرجوزته اذ يقول

نفيعمونا ولسنا منهم ولا هو منا ولا نرضاهم
إمامهم جهم وما لجهم وحسب عمرو^(١) ذى التقى والعلم

واسم المعتزلة يذهب بعضهم الى أنه أتى من « أن واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفسقوا بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقبل لهما ولأتباعهما معتزلون »^(٢) وملخص هذا أنهم يريدون أن يقولوا أنهم سمو معتزلة لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن ، ويذهب البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» الى أنهم سمو معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة ، ويفهم من قول السعدي في مروج الذهب أنهم سمو بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة

ولنا « فرض » آخر في تسميتهم المعتزلة ، لفتنا اليه مآقراناه في خطط المقرئى من أن بين الفرق اليهودية (التى كانت منتشرة فى ذلك العصر وقبله) طائفة يقال لها الفَرُوشِيم وقال أن معناها المعتزلة^(٣) « ومن مذهبيهم القول بما فى التوراة على

(١) يريد عمرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة

(٢) ابن خلكان نقل عن السمعاني (٣) خطط المقرئى جزء ٢ ص ٤٧٦ طبعة أميرية

معنى ما فسرته الحكماء من أسلافهم « اه وقد أكدت هذا المعنى المعاجم اللغوية الحديثة فقد ذكرت « أن معنى اللفظ الفروشم Pharisees هو Separated وهو ينطبق على المعنى الذى تؤديه كلمة معتزلة » وذكر بعضهم عن هذه الفرقة أنها كانت تتكلم فى القدر وتقول ليس كل الأفعال خلقها الله^(١) فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلم من اليهود لما رأوه بين الفرتين من الشبه فى القول بالقدر ونحو ذلك ، وربما يؤيد هذا ما جاء فى موضع آخر من المقرئى اذ قال « قال ابن منبه اعترل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن فسموا المعتزلة » ، فهل ابن منبه الذى يعنيه المقرئى هو وهب بن منبه ؟ ان كان كذلك وكان هو وقومه هم الذين سموهم كان فى ذلك تأييد لما تقول ، فان وهب بن منبه - كما نعلم - ممن أسلم من يهود صنعاء

على كل حال لم يكن كثير من المعتزلة يرضى عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، أما التوحيد فلاهم تقوا صفات الله وعدوا القول بها تعديداً لله ، وأما العدل فلاهم نزهاوا الله عما يقوله خصومهم من أنه قدّر على الناس المعاصى ثم عذبهم عليها ، وقالوا أن الانسان حر فيما يفعل ، ومن أجل هذا عُدّب على ما يفعل ، وهذا عدل

اشتهر من أوائل الداعين الى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد^(٢) فأما

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية فى مادة Pharisees

(٢) لاحد بن يحيى المرتضى كتاب اسمه النية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل طبع منه جزء فى طبقات المعتزلة ، وهو ينهب الى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للإسلام فقد عد من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، ومن الطبقة الثانية الحسن والحسين ومجد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وغيرهم ، ومن الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن وعبد الله بن الحسن وأبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وهو الذى أخذ عنه واصل ، ومن الطبقة الرابعة فيلان العمشقى واصل بن عطاء والح الذى يظهر من كلامه أنه يريد أن يعد معتزلاً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على أن الانسان حر الارادة ،

واصل فكان من الموالي ، ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل الى البصرة ، وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ وكان خطيباً بليغاً مقتدرأ على الكلام سهل الألفاظ يقول فيه بعضهم .

عَلِيمٌ يُبَدِّلُ الْحُرُوفَ وَقَامِعٌ لِكُلِّ خَطِيبٍ يَبْلِغُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
وقد ألف كتباً كثيرة لم يصلنا منها شئ .

وأما عمرو بن عبيد فولى كذلك ، تتلمذ للحسن البصرى واعتنق رأى واصل ابن عطاء في الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا واشتهر بالزهد والورع ، وفيه يقول ابو جعفر المنصور

كَلَّمُكُمْ يَطْلُبُ صَيْدٌ غَيْرَ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ

وتوفى سنة ١٤٥ هـ في رجوعه من الحج

وكلاهما (واصل وعمرو) عرف بالتقوى والصلاح ، ويعدان بحق مؤسسى

مذهب الاعتزال

وتتلخص تعاليم المعتزلة في الأصول الآتية

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا

مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار بفسقه

وقد دعا الى اثاره هذا القول أن الحروب السياسية من مقتل عثمان ووقعة الجمل

وووقعة صفين جعلت الناس يتساءلون من الحق ومن الخطىء ، ثم انتقلوا من ذلك الى

القول بأن الخطىء كافر أو مؤمن ، فكانت الحوارج تقول بكفر مرتكبى الذنوب

أو يدل على أنه يرى الحسن والقيح العقليين ، لانه استدل مثلا على أن أبابكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنهما قالوا فى المرأة المفوضة فى مهرها برأيهما ، أى أنهما يقولان بالحسن والقيح العقليين ولذلك حكما بالرأى ، واستدل على أن ابن عباس منهم بانه ناظر القائلين بالجبر من الشاميين وأزهمهم الحجة ، وليس يريد أن مذهب الاعتزال بهذا الاسم وبصفته مذهباً كان من عهد أبى بكر

والمرجئة يقولون بأنه مؤمن ، وقال الحسن البصرى أنه منافق ، فقال واصل أنه فاسق وله منزلة بين الكفر والايان ؛ وقال أنه يخلد في النار

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل ، ولعل الذى حملهم على هذا القول ما رأوا من تعالى جهنم بن صفوان وأصحابه في سلب الانسان قدرته وجعله كالجماد تجرى الأعمال على يديه كما تجرى على الحجر ، وقد روى أن واصل بن عطاء أرسل بعض أصحابه الى خراسان لمباحثة جهنم ومجادلته

(٣) القول بالتوحيد فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله واحد لا شريك له من أى جهة كان ، ولا كثرة في ذاته البتة ، وتأولوا الآيات التي تثبت هذه الصفات والتي يفهم منها أن له صفات كصفات المخلوقين — وربما كان قد دعاهم الى هذا القول ماشاع في عصرهم من ذهب قوم الى تجسيد الله تعالى وأثبتت صفات له كصفات المخلوقين ، كقذاتل بن سليمان الذى عاصر واصل

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، وللشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً . فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسناً والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحاً ، ولذلك يشترك العقلاء في حسن الاحسان الى الفقير واتخاذ العريق ، ويستقبحون كفران الجميل وايلام البريء ، ولو لم يصلهم في ذلك شرع ، بل ولو كانوا ملحدين ، والشرع لم يجعل الشيء حسناً بأمره به ، ولا القبيح قبيحاً بنهيه عنه ، بل الشرع انما أمر بالشيء لحسنه ، ونهى عن الآخر

لتبجحه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس ، لأن أمره ونهيه تابعان لما في الشيء ذاته من حسن وقبح

وربما دعاهم الى وضع هذا المبدأ ما رأوا من تعالى قوم وجودهم على ماورد من حديث ولو موضوع ، ووقفهم عند النص ، فاذا لم يجدوا نصاً لم يجزءوا على ابداء رأى ، وقد رأيت هذه النزعة عند كلامنا على مدرسة الحديث ، فأحس المعتزلة بالخطر الذى يصيب الناس من شل العقل الى هذا الحد فوضعوا هذا الأساس ، ولذلك كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرهاً للمعتزلة ، والعكس ، ولما كانت الدولة للمعتزلة فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بأهل الحديث تنكيلاً فى فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون

كذلك تعرض المعتزلة للامور السياسية التى سبقت عصرهم وأدلوها فيها بأرائهم ولم يجاروا الحسن البصرى فى قوله « تلك دماء طهر الله منها أسيفنا فلا نلطح بها أسنتنا » بل قالوا أن الصحابة أنفسهم كان يخطئ بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً . وقد روى عن عمرو بن عبيد فى نقد الرجال الشيء الكثير ، فقد سب أبا هريرة ، وطعن فى روايته ، وخوّن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ونسبهما الى سرقة مال الفىء ، الى كثير من أمثال ذلك — وعلى الجملة قد أباحوا لأنفسهم تشريح الصحابة وتقديم والحكم على أعمالهم وحروبهم ، وكان أكثرهم جرية فى ذلك من اعتنق الاعتزال من الشيعة^(١) ونحن نذكر لك طرفاً من آرائهم فى المسائل السياسية فقد اتفقوا — تقريباً — على أن يعة أبى بكر يعة صحيحة شرعية وأنها لم تكن عن نص من النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كانت بالاختيار ، واختلفوا

(١) ان أردت مثلاً لذلك فاقرا الرسالة التى نقلها ابن ابى الحديد عن ابن جعفر فى شرح

شهب البلاغة جزء ٤ ص ٤٥٤ وما بعدها

في أيهما أفضل أبو بكر أم علي ، فقال قدماء البصريين كعمرو بن عبيد والنظام والجاحظ وهشام القوطي أن أبا بكر أفضل من علي ، وقال البغداديون كبشر بن المعمّر وأبي الحسين الخياط أن علياً أفضل ، ولم في ذلك حجاج طويل ، ولما وصلوا الى وقعة الجمل كان واصل بن عطاء يقول أن أحد الفريقين فاسق بقتاله لا محالة ، ولكن لم أستطع الجزم أي الفريقين هو الفاسق ، وأما عمرو بن عبيد فقال بسق الفرقتين المتقاتلتين جميعاً - وتبرأ المعتزلة من عمرو ومعاوية وخطوئهما وأتباعهما ، وهكذا حللوا كثيراً من الأعمال في التاريخ الاسلامي وأبدوا فيها رأيهم ، واختلفوا فيما بينهم ، وأدلى كل بالحجج التي يعزز بها رأيه مما يطول ذكره

وقد نشأ الاعتزال كما رأيت في البصرة . وسرعان ما انتشر في العراق ، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، وكان بين معتزلي البصرة ومعتزلي بغداد جدال وخلاف في كثير من المسائل

وكان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة في ذلك أبو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ ، ولسنا نستطيع هنا أن نبين النظريات اليونانية وكيف نقلها أئمة المعتزلة فوضع ذلك الكلام على الحركة العقلية في صدر الدولة العباسية ان شاء الله

والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الاسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين ، ذلك أنه في أوائل القرن الثاني للهجرة ظهر أثر من دخل في الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والديهرية ،

فكثير من هؤلاء أسلموا ورددوهم مملوءة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين ، فسرعان ما أثاروا في الاسلام المسائل التي كانت تثار في أديانهم ، وكانت هذه الأديان التي ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ونظمت طريق بحثها ، وتعمقت في ذلك كثيراً ، فهاجموا الاسلام وهو الدين الذي يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك ، وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط بل كانت البلاد الاسلامية مملوءة بنوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على دينهم ، وكان منهم كثير من في بلاط الدولة الأموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء ، وهؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفي وكانت معروفة في دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير في النصرانية ، وأثار الزرادشتيون كثيراً من مسائلهم

كل هذا دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالاً علمياً وردوا هجمات القائلين بالجبر والذكرين لله ، وما أثار اليهود والنصارى واللجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطاً بديعاً ، فواصل بن عطاء يقول عنه المرتضى « أنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم في فصاحة من القول يصفها بشار بقوله فيه

وَقَالَ مُرْجِيًّا تَقْلِي بَدَاهَتُهُ
كَمِ رَجُلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ

وتعنفه زوجه فتقول : كان اذا جنه الليل صف قدميه صلى ، ولوح ودواة بجانبه ، فاذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فسكتها ثم عاد الى صلاته . ولم يكتف بذلك بل بعث دعواته الى الأمصار يجادلون أصحاب التعاليم المخالفة وينشر مبادئه ، فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب ، وحفص بن سالم الى خراسان يناظر

جهما القائل بالجبر ، كما بعث الى اليمن والى الجزيرة والى أرمينية - وأخذ واصل
يؤلف الكتب في ذلك حتى ليزكروا أنه ألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على
المانوية - وكذلك كان عمرو بن عبيد يجادل مخالفيه ويدعو الى الاعتزال في مهارة ،
يقول واصفه كان عمرو اذا رأته مقبلاً توهمته جاء من دفن والديه ، واذا رأته جالساً
توهمته أجلس للقود ، واذا رأته متكلماً توهمت أن الجنة والنار لم يخلقها الا له ، وقد
أبى هو وأصحابه الأولون - على ما يظهر - أن يتولوا للحكومة عملاً ، وأرادوا أن
يكون عملهم لله خالصاً ، فابن قتيبة يحدثنا « أن عمرو بن عبيد قال لأبي جعفر
المنصور أن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك ببعضها ، واذا كر ليلة تَخَضُّ
عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع ياعمرؤ تَحَمَّمتَ أمير
المؤمنين ، فقال عمرو « ان هذا صحبتك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك
يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر
فما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني ، قال عمرو ادعنا
بمدلك تَسْخُ أَنْفُسَنَا بِعُونِكَ ، بِبَابِكَ أَلْفُ مِظْلَمَةٍ ، ارِدِدْ مِنْهَا شَيْئاً نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ ^(١)
ولكنهم مع هذا كانوا مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب : أهمها أنهم
خالفوا أهل الحديث في كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ،
ومنها أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة ، ومنها أنهم
في أيام سلطتهم في عهد المأمون والمنتصم نكلوا بالناس في القول بخلق القرآن ولم
يسيروا سيرة فلسفية في الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة ، بل حملوا الناس على القول برأيهم
بالسيف ، وكان في ذلك ذهاب دولتهم وسمعتهم ، ولعل من هذه الأسباب أنهم أنزلوا
الصحابة منزلة سائر الناس فلم يقرؤا لهم بعصمة ، وجرؤوا عليهم يشرحون أعمالهم

ويحكمون بصواب بعضها وخطأ بعضها، فقد رأيت ما قال عمرو بن عبيد ، وجاء بعده النظام فنقد عمر وأبا بكر وابن مسعود في بعض أقوالهم وأكذب حذيفة وأبا هريرة في حديث طويل (١)

وقد فشا في العصر الأموي الجدل في هذه المذاهب التي ذكرنا من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وغيرهم ، وملئت كتب التاريخ والأدب والملل بما كان يدور بينهم من حوار شديد ، فابن أبي الحديد يروي لنا أن الخوارج في حرب المهلب لهم كانوا يضعون السيف من حين لآخر ثم يلتقون بخصومهم ويتجادلون ويدعون الى مذهبهم ، ويحدثنا الاغانى أن ثابت قطننة استمع لقوم من الخوارج كانوا يجتمعون بقوم من المرجئة بخراسان فيتجادلون فال الى قول المرجئة وأجبه ، وقال قصيدته التي ذكرناها في الارزاء . ويحدثنا أيضاً أن شيعياً ومرجئاً اختصما واحتكما الى أول من يطلع عليهما فطلع « الدلال » فقال له أيهما خير الشيعي أم المرجعي ؟ فقال لا أدري الا أن أعلاى شيعي وأسفلى مرجعي (٢) ويحدثنا ابن نباتة أن هذا الخلاف وصل الى الشعراء فقد كان ذو الرمة قدريا ، وكان رؤبة جبرياً ، وأنهما اختصما فقال رؤبة والله ماخص طائر أفحوصاً ولا تفرمص سبع قرموصاً الا بقضاء الله وقدره ، فقال ذو الرمة والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عياييل ضرائك (٣)

ويقول الراجز

يأيها المضر كمْ لا يُهَمُّ إِنْكَ ان تُقَدَّرَ لَكَ الحُمَى مُحَمَّ

(١) ترى هذا القول مطولاً ومردوداً عليه في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢١

وما بعدها

(٢) يريد أن عقله وهواه مع عليّ ، وشهواته مع المرجئة لأنها لا تكفر بالذنوب

(٣) العياييل جمع عيل وهو ذو العيال وضرائك جمع ضريك وهو الفقير

ولو علّوتَ شاهقاً من العَلَمِ كَيْفَ تَوْقِيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ
ويروى الاغانى أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عبيد
وواصل بن عطاء، و بشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء
ورجل من الأزد (هو جزير بن حازم) فكانوا يجتمعون في منزل الأزدى ويختصمون
عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ،
وأما بشار فبقي متحيراً مخلطاً ، وأما الأزدى فمال الى قول السَّمْنِيَّةِ (وهو مذهب
من مذاهب الهند) قال وكان عبد الكريم يفسد الاحداث بدعوتهم الى دينه .
وما زال عمرو بن عبيد به حتى أخرجه من البصرة ثم دل عليه من قتله، وروى الامام
احمد أن الجهم لقي بعض السمنية فقال له السَّمْنِيُّ ألسنت تزعمن أن لك إلها ؟ قال الجهم
نعم، قال فهل رأيت إلهك ؟ قال لا ، قال فهل سمعت كلامه ؟ قال لا ، قال فسمعت
له رائحة ؟ قال لا ، قال فما يدريك أنه إله ، قال له الجهم ألسنت تزعمن إن فيك روحا
قال نعم قال فهل رأيت روحك ؟ قال لا ، قال فسمعت كلامه ؟ قال لا ، قال فوجدت
له حسا ، قال لا ، قال فكذلك الله

كل هذا يدلنا على أن حركة الجدال في المذاهب الدينية والآراء السياسية
المصبوغة بالصبغة الدينية كانت في هذا العصر حركة عظيمة ، وقد كان لها أثر كبير في
العلم وفي السياسة وفي الأدب ، وقد صدرت هذه الفرق عن عقليات مختلفة من فرس
وروم وسريان وعرب وغيرهم ، وكانت هذه العقليات تؤمن بأديان مختلفة من يهودية
ونصرانية ومجوسية ووثنية وغيرها ، ولو ظلت الأمة الاسلامية أمة عربية فقط لرأينا
فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة ، ولكن ما كنا نرى فيها مذاهب الشيعة الغالية
وتعاليمهم الغريبة وما كنا نرى المعتزلة وأبحاثهم الفلسفية ومذاهبهم العميقة

هذه الحركات العلمية التي شرحناها ، والفرق الدينية التي أبنا تعاليمها ، كانت في الدولة الأموية على حالة السذاجة ، لم تصل الى درجة القواعد المنظمة ، والعلوم المتميزة والشرح المحكم ، انما وصلت الى هذه الدرجة في صدر العصر العباسي لما أخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأساس الذي وضعه العناء في الدولة الاموية ، مستعينين على ذلك بترجمة ما وصات اليه الأمم ، قبلهم وموعدنا في الكلام على ذلك الجزء التالي ان شاء الله وهو المستعان .



حجلاً مصادر هذا الباب

- الملل والنحل للشهرستاني
الفصل في الملل والنحل لابن حزم
شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة
الفرق بين الفرق للبغدادي
أصول الدين للبغدادي . (مطبع حديثا في الاستانة)
مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري . (يطبع الآن في الاستانة ومنه نسخة خطية في
مكتبة أيا صوفيا)
المواقف وشرحه .
خطط الفريزي
مقدمة ابن خلدون
الرسالة الاتنا عشرية
شرح البخاري للقطايف والنووي على مسلم
تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي
ابن خلسكان
رسائل متفرقة لابن تيمية
الكامل للمبرد في أخبار الخوارج
الأغانى في مواضع متفرقة
البيان والتبيين للجاحظ
دائرة المعارف الاسلامية في مادة خوارج وشيعة وقدرية وغيرها

Macdonald, Muslim Theology

Browne, A Literary History of persia

Goldziher, Le Dogma et Le Loi de L'Islam

- طبقات ابن سعد
الأحكام السلطانية للماوردي
تاريخ الطبرى في الحوادث من سنة ٩٩ الى ١٣٢
تيسير الوصول الى جامع الأصول من أحديث الرسول
شرح العيون شرح رسالة ابن زبدون
تفسير الفخر الرازى في جملة مواضع
المستصلى للفزلى
العقد الفريد لابن عبد ربه
طبقات المعتزلة المرتضى . (طبع بالهند)

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

بشارع المبدولى رقم ٣٨ بعابدين بمصر

تليفون ٩٢-٢٩-بسات

كشف بمطبوعات اللجنة

تطلب جميعها من مركز اللجنة ومن المكاتب الشهيرة

تكون لجنة التأليف والترجمة والنشر من جماعة من خيرة رجال الأدب والعلم والفنون المتمازين بمؤلفاتهم ومقدرتهم العلمية واللجنة تتحرى دائماً تصداً واحداً وهو خدمة الوطن بالعمل على تنوير العقول وتهذيب النفوس بما تخرجه للناس من المؤلفات القيمة في مختلف الميادين والمستويات فالاقبال على اقتناء كتبها إنما هو خدمة للبلاد

- ١ - مبادئ الكيمياء الجزء الأول : - للسنة الثالثة الثانوية ١٣
- ٢ - « الجزء الثاني : - للسنة الرابعة الثانوية تأليف الدكتورين احمد زكى الدكتور في العلوم والاخصائى في الكيمياء من جامعة لندن ، والدكتور احمد عبدالسلام الكردي في الفلسفة ١٥
- ويعتاز هذان الجزءان بالدقة العلمية الصحيحة بالتبسيط والجلاء ، وهما الأشكال الكثيرة التي توضح جميع موضوعاتهما
- ٣ - سلسلة الجغرافية الحديثة : - خمسة أجزاء تتناول برامج السنوات الحقة في التعليم الثانوى ، قامت بتأليفها شعبة الجغرافيا باللجنة وهي مؤلفة من خمسة من أكبر أساتذة الجغرافيا المعروفين بالمدارس الثانوية . وقد ظهر فضل هذه السلسلة للمتعلمي بها من الوضوح وحسن الأسلوب ودقة المعلومات وفائتها ، وهي تبيد الطالب أكبر فائدة بصفتها مرجعاً وهادياً في موضوع الجغرافيا الجزء الأول ١٦ قرشا والثاني ١٨ قرشا والثالث ٢٠ قرشا والرابع ٢٠ قرشا والخامس ٢٠ قرشا ٩٤
- ٤ - تاريخ الأدب العربى : - الطبعة الرابعة في مقرر البكالوريا وهو تأليف الأستاذ المعروف احمد افندى حسن الزيات مدير التعليم العربى بالجامعة الأمريكية ويعتاز بطريقة بحثه العلمى وعلو أسلوبه وطريقته في الممارسة والموازنة على الأسلوب التحليلى الأدي . فليس يقتصر على أنه كتاب مدرسى بل هو كتاب نافع في الثقافة الأدبية العامة للبلاد العربية قاطبة ٣٠
- ٥ - تاريخ القرن التاسع عشر : - في مقرر البكالوريا تأليف الدكتور حسين حسنى والاستاذ محمد افندى فاسم الاستاذ بمدرسة المعلمين العليا . وهو يتناول تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا والشرق بالبحث الدقيق والتحليل العلمى في أسلوب جميل مشوق يجدر بكل مطلع أن يجعله في مكتبته ٣٥

- ٦ - اصول التربية : - مدارس المعلمين تأليف الاستاذ أمين مرسى قنديل الأستاذ
بمدرسة المعلمين العليا وهو بحث مستفيض في أصول التربية لا يستغنى عنه مشتغل بالتعليم وهو خير
ما ظهر في اللغة العربية في ذلك الموضوع الجليل ٢٠
- ٧ - شرح قانون العقوبات : - لمدرسة الحقوق . يتناول الجرائم المختلفة ويبين
كل ما يختص بها بطريق تحليلي دقيق ، وقد صار اليوم أكبر مرجع في اللغة العربية في ذلك
الموضوع لرجال القضاء والمحاماة ، ويكفي للثقة به أنه تأليف الاستاذ الكبير احمد بك أمين
المستشار الملكي ١٠٠
- ٨ - مشاهد الطبيعة (جزءان) : - كتاب في الجغرافيا للاطفال في السنتين الاولى
والثانية الابتدائيتين جعل فيه كثير من الصور المختارة ليسان الموضوع واضحا مثالا أمام عين
الطفل ولغته سهلة لا يسر على التلميذ الصغير فهمها وهو مطبوع طبا واضعا بحرف كبير لتسهيل
قراءته . وقد دل اقبال المدارس عليه على أنه سد فراغا في التعليم ، وهو تأليف الاستاذين
المعروفين محمد افندى فؤاد حسن مفتش مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، محمد افندى فريداً بوحديد
الاستاذ بمدرسة الأمير فاروق الثانوية ثمن الجزء ٦
- ٩ - سمير الاطفال (سنة أجزاء) : - للمدارس الابتدائية ثلاثة أجزاء للبنين ومثلها
للبنات للسنوات الاولى والثانية والثالثة الابتدائية تأليف الاستاذ محمد افندى المرأوى ، ومطبوع
بالشكل الكامل ومجلى بالصور البديعة وهو كتاب محبوب عند الاطفال يترجمون بأشعاره العذبة التي
يفهمونها وترى فيهم ملكة الخيال والذوق الادبي والاخلاق الكريمة وقد قررتها وزارة المعارف
ومجالس المديرية وادارات التعليم الخصوصية والاهلية ثمن الجزء ٤
- ١٠ - المسألة المصرية : - ترجمه الكاتب الجليل (Egypt's Ruin) تأليف
الاستاذ روثستين وترجه الاستاذان عسبد الحميد العبادى المدرس بالجامعة المصرية ، محمد بدران
المدرس بالمدرسة الملكية الثانوية في لغة عربية تجمع بين مائة الاسلوب والدقة والكتاب يشرح
أصل المسألة المصرية وتطورها من وجهة نظر غير انجليزية وهو بذلك يمتاز بتحرى وجوه
الحقيقة التاريخية ٢٥
- ١١ - آلام فرتر : - القصة العالمية للشاعر الالماني العظيم جوت وهي تعتبر من الخلفات
الحالدة في الادب في جميع بلاد العالم وقد ترجمها بقلمه البديع الاستاذ احمد حسن الزيات ١٥
- ١٢ - علم الاخلاق (الى نيقوماخوس) : - تأليف الفيلسوف الاعظم ارسططاليس
وكتب بذلك توتيباً بالكتاب ، وقد ترجمه الى الفرنسية مع مقدمة بديسة في تاريخ علم الاخلاق
العلامة الفرنسي (سنت هيلير) وعربه وصدره بمقدمة متممة حضرة الاستاذ الكبير صاحب المعالي
احمد لطفي السيد بك وزير المعارف الحالي (١٩٢٨) وهذه الحقائق في ذاتها خير ما يقدم به
الكتاب الى جمهور المتأدبين وأولى الثقافة ١٠٠
- ١٣ - كتاب الاخلاق : - تأليف الكاتب الانجليزي الشهير (سميلز) وترتيب

- الاستاذ محمد الصادق حسين بك ، ويمتاز الكتاب في أصله بسمعة اطلاع الكاتب واختلاف ميادين تجاربه وعلمه . والترجمة بديعة وشيقة الاسلوب لا يعلمها القارى بل يسره منها الاستزادة ، ولهذا كان كتاباً قيماً للتسليّة والاطلاع والفائدة والادب ٢٠
- ١٤ — كتاب الاخلاق : — تأليف الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية ، وهو محبوب تبويها علمياً بسط فيه الاستاذ مباحث علم الاخلاق بسطاً وافياً مع وضوح القصد وسهولة المنهج . وهو يفيد محب الاطلاع والتأدب كما أن فيه موضوعات برنامج علم الاخلاق بالمدراس الثانوية المقرر على طلبة السنة الثالثة ٢٠
- ١٥ — مبادئ الفلسفة : — تأليف الدكتور (رابوبورت) ألفه ليكون مقدمة لمن يدرس الفلسفة من طلبة المدارس ومن يمانئهم ، وعربه الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية وهو خير ما يقرؤه من ريد الايام بمبادئ علم الفلسفة ومباحثها ٨
- ١٦ — كتاب الانتصار : — يتضمن رد ابن الحياط على فضايح المعتزلة لابن الراوندى صححه وصدوره بمقدمة بديعة في تاريخ المعتزلة المستشرق الدكتور نيرج الاستاذ بجامعة إبـالا بالسويد وضيع في مطبعة دار الكتب المصرية ١٥
- ١٧ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : — بحث فيها وقد لها ومفارقتها بالفلسفة الاجتماعية في الوقت الحاضر تأليف الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة المصرية ١٥
- ١٨ — بسائط الطيران : — رسالة تتناول ماخيه وحاضره ومستقبله وتتضمن شرح أجزاء الطائرات والمناطيد والمحركات ونظرية هملسا ويحتوى على ثمانين صورة تأليف الدكتور احمد عبد السلام الكردي مهندس الطيران ١٦
- ١٩ — كتاب الحرية والدولة : — يتناول المباحث الاجتماعية كالدولة والسلطان وحقيقة معنى الحرية وعلاقة الفرد بالجماعة والحكومة ونشأتها الى غير ذلك مما لا بد أن يلم به كل مدنى وقلم الكتاب سهل جميل يحمل القارى على الاستزادة ١٥
- ٢٠ — كتاب رفائيل : — هي القصة الخالدة الكبرى التي دمجها براء الشاعر الفرنسى المسمى لامارتين ، وحسب القصة أنها من تأليفه ، وتعريب الاستاذ احمد حسن الزيات المعروف بمقدرته الفائقة في الادب واللغة العربية ١٥
- ٢١ — القضاء الجنائى : — مجموعة قيمة من الاحكام ، الجزء الاول لصرح قانون العقوبات والجزء الثانى لصرح قانون تحقيق الجنائيات تأليف الاستاذ الكبير على زكى العرابى بك رئيس نيابة استئناف مصر وفى ذلك وحده ما يدل على أن الكتاب نتيجة تجربة طويلة وعلم غزير كل جزء ٧٥
- ٢٢ — الثورة الفرنسية : — رسالة تبسط حوادث الثورة الفرنسية الكبرى وتتضمن نظرات عميقة في معانيها ومبادئها ، وقد كتبها المؤلف الاستاذ حسن جلال رئيس مكتب معالى وزير الحرية بقلمه السهل المتع فكانت بحثاً يجمع بين الدقة والسهولة ٨

٢٣ - صلاح الدين وعصره : - رسالة في تاريخ بطل الاسلام الكبير صلاح الدين الايوبي. تتناول وصف الدول التي كانت في وقته في المشرق والغرب وبيان أحوالها الاجتماعية. وتبين كيف نشأ ذلك البطل وكيف بنى دولته الكبيرة وتابع فضاله العالمي المشهور . وفي خاتمة الكتاب فصل شيق في تحليل شخصية ذلك الرجل العظيم ، وكل ذلك في أسلوب سهل جميل من قلم مؤلفه الاستاذ المعروف محمد فريد أبو حديد ٨

٢٤ - الأدب الجاهلي : بحث قيم في الادب الجاهلي يتناول طريقة جديدة في النقد الادبي وتطبيقها على الادب العربي وهو يفتح ميداناً فسيحاً أمام الباحث في المحلفات الادبية العربية ، فالكتاب أسلوب طريف في الادب العربي زيادة على ما له من القيمة العظيمة في النقد والبحث الانشائي مطبقاً على الشعراء وأصحاب النثر الجاهليين وهو من تأليف الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين ٢٥

٢٥ - تاريخ اليهود في بلاد العرب : بحث علمي جديد في موضوع لم يسبق مثله في اللغة العربية ، وهو يبين علاقة اليهود ببلاد العرب منذ بدنها وبين تطورها في مختلف العصور . ألفه الاستاذ الدكتور (اسرائيل ولفسون) ١٥

٢٦ - الكيمياء الحديثة : في مقرر السنة الخامسة الثانوية تأليف الاستاذ أمين ابراهيم كميل المدرس بالجامعة المصرية وهو يمتاز بدقته ووفاء بجائته ١٢

كُتِبَتْ بِحَسْبِ الطَّبعِ

لا تزال اللجنة حادة في إصدار الكتب القيمة بين مؤلفات ومترجمات ، وسيظهر قريباً ثلاثة كتب عظيمة

١ - فجر الإسلام : في ثلاثة أجزاء يشمل تاريخ الدول الاسلامية في العصر الاول مدة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية ، وتتناول مباحثه جميع الوجوه بين التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي والحالة العقلية وسيكون بذلك مرجعاً حجة في تاريخ هذا العصر ، ألفه الاستاذ « الدكتور طه حسين » أستاذ آداب اللغة بالجامعة المصرية ، والاستاذ « احمد امين » والاستاذ « عبد الحميد العبادي » المدرسان بالجامعة المصرية

٢ - الشاهناماه : ترجمة القصة الكبرى الفارسية تأليف الشاعر الفارسي العظيم الفردوسي وتمريب الاديب القديم (البندلوي) وقد قام على مراجعته وضبطه ونشره الاستاذ « عبد الوهاب عزام » المدرس بالجامعة المصرية

٣ - الامتيازات الأجنبية : بحث تاريخي علمي في أصل الامتيازات الاجنبية بمصر ومناقشتها من الوجهتين القانونية والاجتماعية تأليف الاستاذ « محمد عبد الباري » مؤلف كتاب الحرية والدولة

